مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٣٠٤ . ذو الحجة ١٤٣٣ هـ . أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٢ م

تدافع القيم في التعليم

البناء على القبور..
الهدم والوهم

الإمام ابن قيم الجوزية..
رحلاته للحج

سؤال السيادة..
والإجابات المتعثرة

التعرِّي تجارة الفضائيات العربية

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

Available on the iPhone App Store

مستشفى أبها الخاص

الآن

مركز طب وجراحات العيون

الليزر البارد...أمان أكثر وتكلفة أقل

تعتبر عمليات تصحيح الإبصار من أكثر العمليات نجاحاً على الإطلاق، حيث أجريت ملايين العمليات من هذا النوع في مراكز طبية متخصصة وحققت نجاحاً باهراً

(تحت إشراف نخبة من أفضل الاستشاريين)

خدمات المركز

- عمليات زراعة القرنية وزرع الحلقات لمرضى القرنية المخروطية.
- إجراء جميع الفحوصات الخاصة بالعين من تصوير القرنية وتصوير قاع القرنية وتصوير قاع العين باستخدام الصبغة وخريطة مجال الإبصار وأشعة الموجات الصوتية على العين.
- عمليات إزالة المياه البيضاء بالموجات فوق الصوتية مع زرع العدسة.
- عمليات المياه الزرقاء.
- عمليات الليزر للشبكية.
- عمليات انفصال الشبكية وإزالة الجسم الزجاجي.
- متابعة وعلاج مرضى الاعتلال الشبكي للسكريين.
- عمليات حزام السيلكون لتعديل انفصال الشبكية بالتبريد.
- عمليات تصحيح طول وقصر النظر باستعمال الليزر.
- عمليات الحول وتجميل العين.

للحجز و الاستعلام

072292222

تحويلة: 240، 241، 242

الموقع الالكتروني : www.aph.emd.sa

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٤ **الانتصار لرسول الله ﷺ وتوقيره**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **ما بقاء الأمة بعد نبيِّها وصحابته وأزواجه؟**
الأمين الحاج محمد أحمد

الغرب: قراءة عقدية

١٤ **هل ستنتصر الأمم المتحدة لسيد المرسلين؟!**
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

١٦ **منهج القرآن الكريم في التشريع والتكليف**
د. أمين الدميري

بلِّغوا عني ولو آية

١٩ **﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾**
د. عبد العزيز كامل

كلمات في المنهج

٢٤ **الحج.. توحيدٌ وتحقيقٌ للتقوى**
أ. د. ناصر بن سليمان العمر

قضايا تربوية

٢٨ **تدافع القيم في التعليم**
محمد بن عبدالله الدويش

معركة النص

٣٦ **سؤال السيادة.. والإجابات المتعثِّرة**
فهد بن صالح العجلان

حوارات

٤٤ **حوار مع خالد أبو صلاح**
مجلة البيان

نص شعري

٤٨ **حجاج بيت الله** هائل سعيد الصرمي

المسلمون والعالم

٥٠ الإسلاميون المغاربة وتحديات الربيع العربي
أبو حفص محمد عبد الوهاب رفيقي

٥٦ الكنيسة المصرية ودماء الإساءة للنبي الكريم
عصام زيدان

٦٠ «إرهاب العصابة الأسدية»
محمود ثروت أبو الفضل

٦٦ السلفيون والسياسة
أحمد عمرو

٦٩ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

عين على العدو

٧٤ كيفية التعامل الاستخباري الصهيوني مع تهديدات المنطقة — د. عدنان أبو عامر

قصة قصيرة

٧٦ «فثمَّ الجنة» — عائشة الشريف

إعلام

٧٨ التعرِّي.. تجارة الفضائيات العربية
باسل النيرب

اقتصاد

٨٢ الربط القياسي.. مفهومه ومذاهب الفقهاء فيه
د. عبد السلام ميصور

قراءة

٨٨ الإمام ابن قيم الجوزية.. رحلاته للحج (٦٩١هـ - ٧٥١هـ)
خالد بن محمد الأنصاري

بأقلامهن

٩٢ أجمل طفل في العالم
سحر شعير

الورقة الأخيرة

٩٥ البناء على القبور.. الهدم والوهم
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

حرب الكراهية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد:

يزعم بعضهم أن الفيلم المسيء لمقام النبي ﷺ عملٌ معزولٌ في الغرب لا ينبغي الالتفات إليه. والحقيقة أن سياسة الاستعلاء والكبر التي يتعامل بها الغرب مع الآخرين تجعله غير قادر على تفهّم مشاعر غضب المسلمين عند تطاوله على سيد ولد آدم ﷺ ودين الإسلام، وهي نفسها التي تجعله يزدري قيمهم ومقدساتهم.

والذي لا شك فيه أنَّ الفكر الغربي تأسَّس في رؤيته لنا على أساطير الكراهية والعنصرية وازدراء الإسلام، وازدادت حدة هذه الأساطير، التي ينفخ فيها الإعلاميون والساسة والمفكرون، بشكل متسارع جداً؛ مع تنامي ظاهرة الخوف من الإسلام، ونحسب أن هذا الفيلم حلقةٌ من منظومة واسعة من حرب الأفكار التي تصَّاعد مع مرور الأيام.

إن مناهج التعليم والإعلام في الغرب تشكّل المعارف وتبني الصورة الذهنية للمجتمع الغربي عن جناب النبي ﷺ ودين الإسلام، وقد أُعدّت دراسات كثيرة عن صورة المسلمين والإسلام في التعليم والإعلام، وخرجت بنتائج مذهلة في تقصّد كثير من الغربيين - على المستويين الرسمي وغير الرسمي - تشويه الإسلام والتنفير من المسلمين، ومن ذلك دراسة أعدّتها الباحثة «مارلين نصر» عن صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية نشرها مركز دراسات الوحدة العربية، ذكرت فيها أن الكتب المدرسية تقدّم العرب بصفتهم نهابين مخرّبين سفاحين!

إن مشاعر الغضب التي عمَّت الشارع الإسلامي تدل على فطرة صادقة وعاطفة حية للشعوب المسلمة، ومن واجب الدعاة والمصلحين أن يستثمروا هذه العواطف بمشاريع فاعلة لتعزيز الهوية والولاء للدين، ونشر تعاليم الإسلام.. نسأل الله - عزَّ وجل - أن يرزقنا شربة من حوض نبينا ﷺ، ويُنعم علينا بصحبته في الفردوس الأعلى من الجنة.

وصلى الله عليه وسلم

الانتصار لرسول الله ﷺ وتوقيره

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد النبي الأمين خير الأولين والآخرين، أما بعد:

فمحبة المسلمين للرسول الأعظم محمد ﷺ وتعظيمهم وتوقيرهم له والذبّ عنه، ليس مجرد عمل عاطفي تجاه شخصية محبوبة، وإنما هو دين يتديّنون به أثبته الله تعالى في كتابه، وجعل الفلاح من نصيب القائمين به، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقد قام أصحاب الرسول الكرام الأماجد - رضي الله عنهم - بذلك خيرَ قيام، وتابعهم في ذلك التابعون، وذلك مستمر بإذن الله تعالى إلى يوم الدين يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد اقتضت سنة الله تعالى أن يكون للحق أعداء محاربون كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وكلما كان الحق أوضح وأشد نصاعة؛ جَهِد الأعداء المحاربون لله ورسله من الجن والإنس في عداوتهم للحق والسعي الشديد والكيد لإطفاء نوره. وأشد صور الحق نصاعة هو ما جاءت به رسل الله تعالى - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً -، وما جاء به رسولنا الكريم محمد بن عبد الله ﷺ في الذروة العليا في ذلك. ومن شأن الحق الواضح الجلي الذي لا تشوبه شائبة أن يمتلك القدرة الفائقة التي لا يُستطاع مقاومتها على خلع المشركين وأهل الجهل والضلالة مما هم فيه، ونقلهم بسرعة وقوة إلى معسكر الإيمان والتوحيد؛ ليكونوا من جنده المخلصين، ومن ثم كانت عداوة أهل الشرك والضلالة له ﷺ، سواء في القديم أو الحديث، أشد وأشد، فقالوا

عنه ﷺ في القديم شـــاعر، وقالوا ساحر، وقالوا مجنون، لكن أقوالهم الفاجرة الآثمة، إضافة إلى حربهم، لم تقوَ على إطفاء نور الحق أو حجبه عن الناس، فآمن به مَن كان مِن أشد الناس له عداوة وانتقل إلى حزب المؤمنين وصار من المدافعين بأموالهم وأنفسهم عن رسول الله ﷺ، وذلك كله تصديق لقوله تعالى له: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيـــرًا﴾ [الفرقان: ١٣]، فقد تكفّل الله تعالى بهدايته للحق وتبصيره بالرشـــد، وضمن له النصر على من ناوأه وعاداه من الإنس والجن جميعهم.

ولم تقتصر عداوة من عاداه ﷺ على القديم، بل في العصر الحديث أيضاً، وربما كانت العداوة الآن أشـــد وأقســـى، وذلك من جانبين:

١ جانب تيقن المشركين من قوة هذا الدين وثبات حقائقه ومـــن ثم ثبات أهله وتيقنهم منه، ومن ثم لا بد من بذل الجهود القوية المضاعفة لزحزحة بعض أتباعه عنه.

٢ ضعف المســـلمين الآن بالقياس إلى قوتهم في الأزمنة الغابرة، والذي يغري المشركين بالتطاول عليهم والطمع في تحقيق اختراق في جبهتهم، تمهيداً لإزالة الحق دين الإسلام، وهيهات ثم هيهات، ولو اجتمع من بأقطارها على ذلك فلن يفلحوا ولن ينجحوا.

فبعدما بَهرت أضواء الحق أبصار المشركين، وغزت دلائله وبيّناته عقولهم وقلوبهم، رغم ضعف إمكانات المسلمين العسكرية والتقنية، وانتقال كثير من المشـــركين من دائرة الكفر والشرك إلى دائرة التوحيد والإســـلام والإيمان، وشعور أهل الكفر بغلبة الإسلام لهم وأنه قادم إلى عقر دارهم ليقتلع جذور الشرك من أرضهم النكدة؛ رأوا بأفكارهم العفنة وعقولهم النتنة أن القدح والطعن في ســـيد الخلق أجمعين محمد رسول رب العالمين ﷺ إلى الإنس والجن أجمعين، ربما يعوق تقدم الإسلام في ديارهم، فاعتمـــدوا هذه الخطـــة الخبيثة وراحوا يطعنون ويســـخرون ويرســـمون ويمثلون بزعم حقهم في حريـــة التعبير. والحقيقة التي تفضحها الوقائع أن المسألة ليست مسألة حرية تعبير، بل هي الحرب والكيد للإسلام ولرسوله العظيم، وذلك:

أولاً: لأن ما يذكرونه ليس تعبيراً عن رأي في مســـألة في الإسلام أو في رســـوله ﷺ، وإنما هو كذب واختلاق وسخرية واستهزاء، وليس ذلك رأياً، بل فجور وسفاهة وإجرام وعدوان، ونحـــن نتحداهم إن كان لهم رأي يقوم علـــى أدلة وبراهين أن يبرزوا لمناظرة علماء الإســـلام وليستعينوا في ذلك بما شاؤوا، وليس ينتظرهم غير الخيبة والخســـران وانكشاف باطلهم كما حاق بمن قبلهم من بني جلدتهم في كل مناظراتهم التي حدثت مع علماء المسلمين.

ثانياً: أن الحرية التي يزعمون يكبتونها ويسنون لها القوانين لمنعها وعقوبة فاعلها إذا كان في ذلك ما يحقق للمسلمين بعض أحكام دينهم؛ كما منعت فرنســـا ارتداء المســـلمات لحجابهن الشرعي، ثم سنت قانوناً لمعاقبة كل من تخالف ذلك من النسوة المسلمات، ولم ينظروا لمسألة الحرية التي بها يتشدّقون؛ وكذلك منعت هولندا بناء المآذن ولم تنظر لمسألة الحرية.

ثالثاً: أن هناك من الأمور التـــي يمكن بقوة إدراجها في حريـــة التعبير، إلا أنه يُمنع الناس من التعبير فيها، بل سُـــنّت القوانين لتجـــريم من يخالف الرواية المعتمدة من الســـلطات، ولم ينظروا لمســـألة الحرية؛ فحرق اليهود في أفران الغاز من قبل النازيين مســـألة تاريخية تثبت أو تنفى بالدلائل، ومع ذلك اعتمدت ســـلطات كثير من البلدان الرواية اليهودية في حرقهم فـــي أفران الغاز بحيـــث يجرّم من خالفهـــا ويعاقب على ذلك بالسجن، ولم ينظروا لحرية الرأي، ولا للأدلة التي يقدمها من ينفي هذه الواقعة أو من يبين المبالغة المتعمدة فيها.

فحرية الفكر المدّعاة أكذوبة من أكذوباتهم التي لا تفنّد.

ولو قُدّر أن هؤلاء القوم عندهم حرية تعبير فعلاً ويقدرونها حق قدرها، فإن مسائل ديننا لا تؤخذ من مجرد الفكر والتصور، بل هي قائمة على أدلة، وما يزعم من فكر في هذا المجال فهو من كذبهم واختلاقهم.

ولا ينبغي لنا أن نســـكت على كذبهم وإفكهم وســـخريتهم برســـولنا الكريم واستهزائهم به لرؤيتهم أن هذا من قبيل حرية التعبير، فديننا ورســـولنا ورســـل الله جميعهم لا يمكن للمسلم أن يتنازل في حقهم وتعظيمهم لمن يرى أن من حقه الســـخرية منهـــم والطعن فيهـــم، وما تجرّأ الكفار المشـــركون على تكرار التنقص من رســـولنا الكريم إلا لما رأوا من ضعف رد المسلمين

على إفكهم، ولو كان رد المسلمين رداً مكافئاً لجرمهم بالمقياس الشـــرعي لمـــا كرّروا ذلك الأمـــر ولأدبهم الرد الشـــرعي عن محاولة تكراره، فقد بدأ ذلك المجرم المرتد ســـلمان رشـــدي بكتابة آيات شـــيطانية، وقد لعبت السياســـة دورها في حصر المشكلة في رد فعل الشيعة على سلمان رشدي، لكن الفتوى التي أصدرها إمام الشيعة في زمنه أخافته وأخافتهم كثيراً، فلما هدأت العاصفة كرّمت ملكة بريطانيا المرتد ســـلمان رشدي وقلدته وســـام الفارس وهو لم يقدم شيئاً يخدم به أمـــة الإنجليز، وكان الذي قدمـــه هو كتابه الفاجر «آيات شـــيطانية»، فهي تكرمه على قدحه في الإســـلام، ما يدل على أن المسألة خارجة عن حريـــة التعبير، ثم قامت جريدة دنماركيـــة بنشـــر رســـوم كاريكاتورية فيها ســـخرية بسيد البشـــر محمد ﷺ، وكان رد الفعل ضعيفاً لم يتجاوز المقاطعة الاقتصادية التي مـــا لبثت أن تروجع عنهـــا ولم تمكث طويلاً، ثم كانت ثالثـــة الأثافي الفيلم الذي أنتجه النصارى العرب في أمريكا يسخرون فيه من ســـيد البشـــرية، ولم يزد رد الفعل عن مقاطعـــة موقعي «جوجـــل» و«يوتيوب» المسؤولين عن نشره على المواقع الإلكترونية، والمقاطعة ليست كافية في ذلك ولا تمنع من هذا العمل ولا من تكـــراره مرة أخرى، كما أن هناك حكماً شـــرعياً فيمن سب الرسول ﷺ أو سخر منه أو تنقصه، وحكمه في ذلك القتل حداً، فلو أســـلم وتاب لم يسقط عنه حد القتل، فالساب أو المستهزئ أو الساخر من سيد ولد آدم يقتل حداً، سواء كان مسلماً أو كافراً معاهداً أو كافراً حربياً، ولن يوقف هذا المســـلك المشـــين من هؤلاء المشـــركين إخوان القردة والخنازير؛ غير تطبيق الحكم الشـــرعي عليهم، والـــذي أراه في ذلك أن

لم يـزد رد الفعـل عن مقاطعـة موقعي «جوجـل» و«يوتيوب» المسـؤولَين عن نشر المقطع على المواقع الإلكترونية

يحدَّد القائمون بذلك العمل العدواني على مقدســـات المسلمين، وتجرى التحقيقات حول ذلك، وتطالب البلدان التي تأويهم بتســـليمهم لمحاكمتهم على ما اقترفوه، فإن أبت تلك الدول تســـليمهم حوكموا غيابياً، فإذا صدرت الأحكام بحقهم طولبت تلك الدول طلباً حثيثاً بتسليمهم، فإن لم تقبل بتسليمهم نظر لتلك الدول على أنها دول تأوي مجرمين مطلوبين للعدالة الإســـلامية، ثم تبيـــح الدولة التي أصدر قضاتها الحكـــم لرعاياها العمل على تنفيذ الحكم الصادر، ومثل هذا ســـيؤدي بكل تأكيد إلى دخول هذه الفئران إلى جحورها وعدم قدرتها على الظهور العلني، وســـيقلص إلـــى أكبر حد ممكن من هذه التصرفات المجرمة، وستشـــعر تلك الدول التي تأوي هذه الجراثيم البشرية أن المسلمين جادون في عقوبة من ينتقص دينهم بكل سبيل، عقوبـــة حقيقية موجعة، ومن ثم فإنهم ســـيتعاهدون على كف ســـفهائهم عن تلك التصرفـــات. لقد أباحت أمريكا لقواتهـــا أن تقوم بتنفيذ العدالة من وجهة نظرهم على من يعاديها، وســـنت لذلك القوانين، ورأينا لذلك الطائرات التي تعمل من دون طيار تخترق أجواء الـــدول دون أذن، وتقوم بالدخول إلى المناطق التي يظنون فيها وجـــود من يبحثون عنهم، وقتلهم، ويعدون ذلك التصرف تصرفاً قانونياً، فلا يصلح أن يكـــون حرص هؤلاء على دنياهم أشـــد من حرصنا على ديننا وتعظيم رســـولنا والـــذبّ عنه، فليس هناك ما يحول بيننا وبـــين إجراء هذه المحاكمات إذا كنا ننوي الانتصار لرسول الله ﷺ.

مدار الوطن للنشر

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب

يسره أن يطلق مشروع عقيدتي

خلال موسم حج ١٤٣٣ هـ

- لكل من يرغب في التوزيع الخيري على ضيوف الرحمن
- لكل الهيئات الحكومية والأهلية المعنية بالتوزيع خلال موسم حج ١٤٣٣ هـ

ساهم معنا في توزيع
رسائل مختارة في العقيدة
على حجاج بيت الله الحرام

وسائل دعوية متنوعة

أكثر من 200 إصدار لخدمة ضيوف الرحمن

الحقائب الدعوية

حقائب سلوفانية فاخرة بمقاسات متنوعة

الكتب والرسائل

أكثر من ٤٠ كتابًا في أحكام ومناسك الحج والعمرة ومنها :

المطويات

أكثر من ٦٠ مطوية دعوية في الحج والعمرة ومنها :

الكروت

أكثر من ٣٥ كارتاً دعوياً في الحج والعمرة ومنها :

اللغات الأجنبية

حقيبة هذا هو الإسلام مترجمة إلى ٨ لغات

حقيبة العقيدة أولا باللغة الإنجليزية واللغة الإندونيسية

مطوية أعمال الحج مترجمة إلى ٦ لغات

الأكثر مبيعًا في الحج

كتاب كيف نحقق التوحيد؟

كتاب التحذير من فتنة القبور لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله

الرياض : الملز / ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) ف : ٤٧٢٣٩٤١ | السويدي / ت : ٤٢٦٧١٧٧ ف : ٤٢٦٧٣٧٧ | مندوب الرياض : ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦
مندوب الغربية (مكة المكرمة) : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ مندوب الشرقية والشمالية : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ مندوب الجنوبية والتوزيع الخيري : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩
لطلبات الجهات الحكومية : ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧ الموقع على الإنترنت www.madaralwatan.com البريد الإلكتروني pop@madaralwatan.com

استعداد كامل للشحن داخل وخارج المملكة
الخط الساخن لخدمة العملاء
0566665451

ما بقاء الأمة بعد نبيِّها وصحابته وأزواجه؟

الأمين الحاج محمد أحمد(*)

حب النبي ﷺ، وآله، وأصحابه، وأزواجه، وورثته؛ من الإيمان.. وبغضهم، وإذاؤهم، وانتقاصهم؛ كفر، وزندقة، ونفاق.

رضي الله عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس عندما سأله الرشيد - رحمه الله - عن رجل شتم النبي ﷺ، وذكر له أن فقهاء العراق أفتوه بجلده!! فغضب مالك وقال: (يا أمير المؤمنين ما بقاء الأمة بعد نبيها؟! من شتم الأنبياء قُتِل، ومن شتم أصحاب النبي ﷺ ضُرِب)(١).

إي وربي.. ما بقاء الأمة بعد نبيها؟ فمن شتم نبينا أو نبياً من الأنبياء، أو ملكاً من الأملاك، تلميحاً كان أو تصريحاً؛ قُتِل، وكذلك من اتهم عائشة بما برّأها الله منه، أو كفَّر، أو ضلَّل سائر أصحاب رسول الله ﷺ، أو كفَّر السادات الغرر أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ - رضي الله عنهم؛ قُتِل كذلك.

أمَّا من تنقّصهم وسبهم بما دون ذلك، جُلِد أو أدِّب أدباً غليظاً مبرحاً زجراً له ولأمثاله.

إجلال الصحابة من إجلال الله ورسوله، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، وبفضلهم نطق القرآن الكريم، وشهدت سنة سيد المرسلين، وعلى ذلك أجمعت الأمة، وذلك أن الله اصطفاهم واختارهم اختياراً لصحبة نبيه، ولنصرة دينه، فعلى المسلمين أن يعرفوا لهم قدرهم، ويؤدوا واجب حقهم عليهم، ولهذا عندما بيَّن الله جزاء الذين يؤذون الله ورسوله، أعقبه بالذين يؤذون المؤمنين، وفي مقدمتهم الصحابة المرضيون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ

(*) رئيس الرابطة الشرعية للعلماء والدعاة في السودان، ورئيس رابطة علماء المسلمين.

(١) (المعيار المعرب للونشريسي جـ٢/٣٥٦).

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧ - ٥٨].

هذا الحق يشمل جميع أصحاب رسول الله ﷺ، لا فرق في ذلك بين الصحابة والقرابة، فالصحابة ليس فيهم دغل، وإنما الدغل في غيرهم، أمثال ابن زياد والحجاج - عليهم من الله ما يستحقون -، فأهل السنة يحبون جميع أصحاب رسول الله، وقرابته، وأزواجه، ولم يفرق بين هؤلاء وأولئك إلا الرافضة المخذولون المحرومون.

أهل السنة لا يدّعون العصمة لأحد من الصحابة، أمَّا الشيعة فبينما هم غلوا في أهل البيت، وادّعوا لهم العصمة، بالغوا في تكفير الصحابة الآخرين، وتضليلهم، وسبهم، وانتقاصهم، بل ليس لهم شغل سوى ذلك، والخوارج على العكس والنقيض منهم في تضليلهم وتكفيرهم لأمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، فالحسنة بين سيئتين، وخير الأمور أوسطها، وهو الذي سلكه أهل السنة والجماعة.

فمن حق الرسول ﷺ علينا الذبّ والدفع عنه وعن سنته، وشرعته، وعن أصحابه وأزواجه وحَمَلة رسالته وورثة الأنبياء بعدهم، وهم العلماء.

الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ طعن غير مباشر في المصدر الثاني في شرعنا، في السنة، كما قال أبو زُرعة الرازعي - رحمه الله -: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق؛ لأنَّ الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة).

قلت: إذا كان الإمام الذهبي - رحمه الله - قد أمسك عن ذكر الأئمة المتبوعين في الفروع بما يقدح فيهم لمكانتهم في الإسلام، وفي نفوس أتباعهم؛ فكيف بمن يتقربون إلى الشيطان وليس للرحمن بتضليل وتفسيق وتكفير السادات الغرر، والصحابة الأماجد، وبعض أمهات المؤمنين الأفاضل؟!

قال ابن الوزير اليماني - رحمه الله -: (وقد أشار الذهبي إلى الاعتذار عن ذكر الإمام أبي حنيفة وأمثاله، وإلى أنه لا يقدح عليه بما ذكر فيه من الاختلاف، فقال في خطبة الميزان - ميزان الاعتدال -: وكذا لا أذكر من الأئمة المتبوعين في الفروع أحداً، لجلالتهم في الإسلام، وعظمتهم في النفوس. فإن ذكرت أحداً منهم فأذكره على الإنصاف، وما يضره ذلك عند الله ولا عند الناس، إذ إنما يضر الإنسان الكذب والإصرار على كثرة الخطأ، والتحري على تدليس الباطل، فإنه خيانة وجناية، فالمرء المسلم يطبع على كل شيء إلا الخيانة، والكذب. انتهى كلامه.

فانظر كيف تأدب أبو عبدالله الذهبي، وذكر جلالة الأئمة المتبوعين في الإسلام، ونص على أن ذكرهم في كتب الجرح والتعديل لا يضرهم عند الله ولا عند الناس، وهكذا فليكن ذكر العالم لمن هو أعلم منه بأدب وتواضع وتعظيم وتوقير، جعلنا الله ممن عرف قدر الأئمة، وعصمنا من مخالفة إجماع الأمة)[1].

نماذج لمن ذبّ ودفع عن صاحب الشرع، وسنته، وحَمَلتها من الصحابة والعلماء:

سنورد في هذه العجالة نماذج يسيرة لمن ذبّ ودفع عن صاحب الشرع، وسنته، وحملتها من الصحابة الأخيار الأبرار، والعلماء الربانيين الحكماء؛ لعلها تصادف آذاناً صاغية، ونفوساً زاكية صافية، وقلوباً من الأحقاد والأضغان خالية، ورجالاً عوفوا من التقليد والتعصب، بل يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وإذا ظهر لهم الحق أتوا إليه مذعنين غير معاندين.

فنقول وبالله التوفيق والسداد، والعون والرشاد:

١ - قال سعيد بن المسيِّب - رحمه الله -: كان ابن البرصاء الليثي من جلساء مروان بن الحكم أمير المدينة في زمن معاوية - وكان يسّمر معه - فذكروا الفيء عند مروان، فقالوا: (الفيء مال الله، وقد وضعه عمر في موضعه.

فقال مروان: إنَّ الفيء مال أمير المؤمنين، معاوية يقسمه فيمن شاء.

فخرج ابن البرصاء فلقيَ سعد بن أبي وقاص، فأخبره.

قال سعيد: فلقيني سعد وأنا أريد المسجد، فقال: الحقني، فتبعته حتى دخلنا على مروان، فأغلظ له.

فقال مروان: ترون من قال هذا لهذا الشيخ؟ قالوا: ابن البرصاء، فأتيَ به، وأمر بتجريده ليضرب، فدخل البواب يستأذن لحكيم بن حزام - رضي الله عنه -، فقال: ردوا عليه ثيابه، وأخرجوه حتى لا يهيج علينا هذا الشيخ الآخر)[2].

---

(١) (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم - للإمام ابن الوزير اليماني المتوفى ٨٤٠هـ - جـ٢/١٦٦).

(٢) (الإصابة في تمييز الصحابة - للحافظ ابن حجر - في مجلد واحد ضخم ص ٢٣٠).

٢ – وعن عائذ بن عمرو – رضي الله عنه – أنه دخل على الطاغية ابن زياد، فقال: أي بني، إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن شر الرعاء الحطمة، فإيَّاك أن تكون منهم، فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم[١].

٣ – وقال أبو سعيد الخدري – سعد بن مالك – رضي الله عنه يرفعه: «لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو علمه»، قال أبو سعيد: «فحملني ذلك على أن ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه، ثمَّ رجعت».

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يخرج يوم الفطر ويوم الأضحى فيبدأ بالصلاة، فإذا صلى صلاته وسلم، قام فأقبل على الناس وهم جلوس في مصلاهم، فإن كان لهم حاجةٌ ببعث ذكره للناس أو كانت له حاجة بغير ذلك أمرهم بها، وكان يقول: «تصدقوا، تصدقوا، تصدقوا!»، وكان أكثر من يتصدق النساء، ثمَّ ينصرف، فلم يزل كذلك حتى كان مروان بن الحكم، فخرجت مخاصراً مروان – محاذياً له – حتى أتينا المصلى، فإذا كَثِير – كان اسمه «قليل» فسماه عمر «كَثِير» – بن الصلت قد بنى منبراً من طين ولبن – طوب –، فإذا مروان ينازعني يده، كان يجرني نحو المنبر، وأنا أجره نحو الصلاة، فلما رأيت ذلك منه قلت: أين الابتداء بالصلاة؟ فقال: لا، يا أبا سعيد! قد تُرِك ما تعلم. قلتُ: كلا – أي لا – والذي نفسي بيده! لا تأتون بخير مما أعلم – ثلاث مرات – ثمَّ انصرف[٢].

قلت: يستفاد من ذلك جواز الجهر بالإنكار على من خالف السنة أمام الناس، إذا كانت المخالفة مجمعاً عليها، حيث لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ومعلوم أن الجميع يخرج لصلاة العيد حتى الحيض، وذوات الخدور.

٤ – قال الذهبي عن الحاكم:.... سمعت الفريابي: سمعت سفيان الثوري ورجل يسأله عمن شتم أبا بكر؟ فقال: كافر بالله العظيم. قال: نصلي عليه؟ قال: لا، ولا كرامة. فقيل له: هو يقول: لا إله إلا الله، ما نصنع به؟ قال: لا تمسوه بأيديكم، ارفعوه بالخشب حتى تواروه في قبره[٣].

٥ – قال عبدالله بن المبارك – رحمه الله –، وقد قيل له: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في أنفِ معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبدالعزيز[٤].

٦ – أخرج الحاكم في المستدرك وغيره: (أن معاوية صعد المنبر يوم الجمعة فقال في خطبته: أيها الناس، إن المال مالنا، والفيء فيؤنا، من شئنا أعطينا، ومن شئنا منعنا. فلم يجبه أحد. فلما كان في الجمعة الثانية قال كذلك، فلم يجبه أحد، فلما كانت الجمعة الثالثة قال كذلك، فقام إليه رجل فقال: كلا يا معاوية، ألا إن المال مالنا، والفيء فيؤنا، من حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله تعالى بسيوفنا. فنزل معاوية، وأرسل إلى الرجل، فأدخله عليه، فقال القوم: هلك الرجل، ثمَّ فتح معاوية الأبواب، فدخل عليه الناس، فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية: أيها الناس إنَّ هذا الرجل أحياني أحياه الله. سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون أئمة من بعدي يقولون، فلا يُرَد عليهم، يتفاحمون في النار كما تتفاحم القردة، وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد عليَّ أحد شيئاً، فخشيت أن أكون منهم، ثمَّ تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد عليَّ أحد شيئاً، فقلت في نفسي: أنت من القوم، فتكلمت في الجمعة الثالثة، فقام إليَّ هذا الرجل، فردَّ عليَّ فأحياني أحياه الله، فرجوت أن يخرجني الله منهم، ثمَّ أعطاه وأجازه)[٥].

٧ – قال النووي رحمه الله: (قال أبو داود: أنه لما صارت الخلافة إلى عليّ رضي الله عنه، لم يغيرها عن كونها صدقة – أي فدك ونحوها التي تركها رسول الله ﷺ –. وبنحو هذا احتج السفاح – أبو العباس الخليفة العباسي –، فإنه لما خطب أول خطبة قام بها، قام إليه رجل شيعي – خبيث، زنديق – معلق في عنقه المصحف، فقال: أنشدك الله إلا حكمت بيني وبين خصمي بهذا المصحف.

فقال: من هو خصمك؟

قال: أبو بكر في منعه فدك.

قال: أظلمك؟

قال: نعم.

قال: فمن بعده؟

قال: عمر.

قال: أظلمك؟

قال: نعم.

---

(١) (مسلم رقم [١٨٣٠]).

(٢) (متفق عليه)، البخاري رقم [٣٠٤]، ومسلم رقم [٨٨٩].

(٣) (سير أعلام النبلاء للذهبي).

(٤) (البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، جـ٨/ ١٣٩).

(٥) (رواه ابن سبع في شفاء الصدور، والطبراني في معجمه الكبير والأوسط، والحافظ أبو يَعْلى الموصلي، ورجاله ثقات. كما قال الدُّميري في حياة الحيوان الكبرى جـ٢/ ٣٣١).

وقال في عثمان كذلك.

قال – السفاح –: فعليّ ظلمك؟

فســكت الرجل – الخبيث – فأغلظ عليه السفاح، وقال: والله لولا أن هذه أول خطبة خطبتها لضربت عنقك)[1].

قلت: ليته ضرب عنقــه، فضرب عنق هذا الزنديق أفضل من خطبته.

٨ – روى أبو القاســم الزنجاني، قال: (حدثنا أبو إسحاق الشــيرازي الشــافعي – رحمه الله – عن القاضي الإمام أبي الطيب أنه قال: كنا في حلقة النظر – المناظرة – بجامع المنصور ببغداد، فجاء شاب خراساني يسأل عن مسألة المصراة – الشاة أو البقرة لا تحلب ليومين أو ثلاثة لإخداع المشــتري – ويطالب بالدليل، فاحتج المستدل بحديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنــه – الثابت في الصحيحين وغيرهما. فقال الشــاب، وكان حنفياً: أبو هريرة غير مقبول الحديث.

قال القاضي: فما اســتتم كلامه حتى ســقطت عليه حية عظيمة من ســقف الجامع، فهرب الناس وتبعت الشــاب دون غيره، فقيل له: تب، فقال: تُبتُ، فغابت الحية ولم يبق لها أثر).

قال ابن الصلاح: هذا إســناد ثابت فيه ثلاثة من صالحي أئمة المسلميــن: القاضــي أبو الطيب بن الطبري، وتلميذه أبو إسحاق، وتلميذه أبو القاسم الزنجاني[2].

٩ – روى أبو اليمن الكندي، قال: (حدثنا عبيدالله بن محمد بن حمدان، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن القاسم النحوي، قال: أخبرنا الكريمي، قال: حدثنــا يزيد بن قرة الدراع، يرفعه إلى عمر ابن حبيب، قال: حضرت مجلس الرشــيد فجرت مسألة المصراة، فتنازع الخصوم فيها، وعلت أصواتهم، فاحتج بعضهم بالحديــث الذي رواه أبو هريــرة – رضي الله تعالى عنه – عن النبي ﷺ، فــردَّ بعضهم الحديث وقال أبــو هريرة متهم فيما يرويه، ونحا نحوه الرشيد، ونصر قوله.

فقلت: أمَّا الحديث فصحيح، وأبو هريرة صحيح النقل فيما يرويه عن النبي ﷺ، فنظر إليَّ الرشيد نظر مغضب، فقمت من المجلس إلى منزلي، فلم يســتقر بي الجلوس حتى قيل: صاحب الشرطة بالباب، فدخل إليَّ فقال: أجــب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط، وتكفن، فقلت: اللهم إنك تعلم أنــي قد دافعت عن صاحب نبيك محمد ﷺ، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلمني منه.

(١) (صحيح مسلم بشرح النووي جـ٢/٧٣).
(٢) (حياة الحيوان للدميري جـ١/٣٩٥).

قال: فأدخلتُ على الرشيد، فإذا هو جالس على كرسي من ذهب، حاسر عن ذراعيه وبيده السيف، وبين يديه النطع، فلما رآني قال: يا ابن حبيب ما تلقاني أحد بالرد ودفع قولي مثل ما تلقيتنــي به؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الذي حاولت عليه فيه إزراء على رسول الله ﷺ، وعلى ما جاء به، فقال: كيف ويحك؟ قلت: لأنه إذا كان أصحابه كذَّابين، فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام من الصــلاة، والصيام، والحج، والنــكاح، والطلاق، والحدود؛ كلها مردودة غير مقبولة؛ لأنهم رواتها، ولا تُعْرَف إلا بواسطتهم. فرجع الرشيد إلى نفسه، وقال: الآن أحييتني يا ابن حبيب أحياك الله، ثمَّ أمر له بعشرة آلاف درهم)[3].

١٠ – قال أبو عثمان الصابوني رحمه الله: (سمعت الحاكم يقول: ســمعت أبا الحســن محمد بن أحمد الحنظلي ببغداد يقول: ســمعت محمد بن إســماعيل الترمــذي يقول: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند إمام الدين أبي عبدالله أحمد بــن حنبل، فقال له أحمد بن الحســن: يا أبــا عبدالله ذكروا لابن قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم ســوء!! فقام أحمد بن حنبل وهو ينفــض ثوبه، ويقول: زنديق، زنديق، زنديق حتى دخل البيت)[4].

١١ – وقال الصابوني: (وســمعت الحاكم يقول: ســمعت الشــيخ أبا بكر أحمد بن إســحاق بن أيوب الفقيه، وهو يناظر رجلاً، فقال الشيخ أبو بكر: حدثنا فلان، فقال له الرجل: دعنا من حدَّثنا، إلى متى حدَّثنا! فقال الشــيخ: قم يا كافر، فلا يحل لــك أن تدخل داري بعد هذا أبداً، ثمَّ التفت إلينا وقال: ما قلت لأحد ما تدخل داري إلا هذا)[5].

١٢ – قــال الإمام ابن الوزير اليماني فــي ذبه ودفعه عن الإمام أبي حنيفة في تضعيفه في الحديث: (اعلم أن الإمام أبا حنيفة طلب العلم بعد أن أســن، وكان الحافظ المشهور بالعناية في هذا الشأن إذا كبر وأسن تناقص حفظه، فلهذا لم يكن في الحفظ في أرفع المراتب، وكذلك غيره من الأئمة)[6].

١٣ – قــال ابن خلكان في وفيــات الأعيان جـ ٦/٣٩٩ في ترجمة أبي يوســف يعقوب بن السِّــكيت: (جلس أبو يوســف

(٣) (حياة الحيوان الكبرى للدميري جـ١/٣٩٥).
(٤) (رسالة عقيدة السلف وأصحاب الحديث، لأبي عثمان إسماعيل الصابوني، المتوفى ٤٤٩هـ، المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنبرية جـ١/١٣٢).
(٥) (المصدر السابق).
(٦) (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير اليماني جـ١/١٦٥–١٦٦).

يعقوب بن السِّـــكيت يوماً مع المتوكل، وكان يؤدب أولاده، فجاء المعتز والمؤيد ولدا المتوكل، فقال له: يا يعقوب أيما أحب إليك.. ابناي هذان أم الحسن والحســـين؟ فقال: والله إن قنبراً خادم عليّ خير منك ومن ابنيك!

فقال المتوكل للأتراك: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا به ذلك، فمات ليلة الإثنين لخمس خلون من رجب ٢٤٤هـ.

ثمَّ إن المتوكل أرسل لولده عشـــرة آلاف درهم، وقال: هذه دية والدك).. (عُرِّف أبوه بالسِّـــكيت؛ لأنه كان كثير الســـكوت، طويـــل الصمت، كان إماماً في اللغة مكثراً من نقل الغريب، وله تصانيف مفيدة).

قلت: قتله ليس خطأ، إذ لا يمكن لإنسان أن يعيش إذا قطع لسانه بهذه الطريقة الوحشـــية، فكان الواجب القصاص على الأقل لمن مارس ذلك، وإن كان مأموراً؛ حيث لا يحل للمسلم أن يفدي نفسه بأخيه المسلم.

١٤ – عن مصعب بن عبدالله قـــال: (حدثني أبي عبدالله بن مصعب الزبيري قال: قال لـــي أمير المؤمنين المهدي: يا أبا بكر، ما تقول فيمن تنقص أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: زنادقة، قال: ما ســـمعت أحداً قـــال هذا قبلك، قال: قلت: هم قوم أرادوا رســـول الله ﷺ بنقص، فلم يجدوا أحداً من الأئمة يتابعهم علـــى ذلك، فتنقصوا هؤلاء عنـــد أبناء هؤلاء، وهؤلاء عند أبناء هؤلاء، فكأنهم قالوا: رسول الله ﷺ يصحبه صحابة السوء، وما أقبح بالرجل يصحبه صحابة السوء، فقال: ما أراه إلا كما قلت)[١].

١٥ – وقـــال الإمام أحمد – رحمه الله –: (إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب رسول الله ﷺ بســـوء، فاتهمه على الإسلام).

وقـــال الإمام أبو زرعة الـــرازي – رحمه اللـــه –: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رســـول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق، وذلك أنَّ رســـول الله ﷺ حـــق، والقرآن حق، وما جاء بـــه حق، وإنما أدَّى إلينا ذلك كلّه الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شـــهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة)[٢].

١٦ – قال الإمام يحيى بن معين – رحمه الله –: (إذا رأيت الرجل يتكلم في حمَّاد بن ســـلمة، وعكرمـــة مولى ابن عباس، فاتهمه على الإسلام).

١٧ – وقـــال الإمام أحمد: (إذا رأيت الرجل يغمز حمَّاد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام؛ فإنه كان شديداً على المبتدعة).

١٨ – وقال أســـود بن سالم: (كان ابن المبارك إماماً يُقتدى بـــه، كان من أثبت الناس في الســـنة، إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك، فاتهمه على الإسلام).

١٩ – وقال سفيان بن وكيع: (أحمد عندنا محنة، من عاب أحمد فهو عندنا فاسق)، وقيل: (أحمد محنة، به يُعْرَف المسلم من الزنديق).

٢٠ – وقـــال الدورقي: (من ســـمعته يذكر أحمد بن حنبل بسوء، فاتهمه على الإسلام).

أضحى ابـن حنبل محنة مأمونة
وبـحـب أحـمـد يُـعـرف المتنسكُ
وإذا رأيـت لأحمـد متنقصـاً
فأعلـم بـأنَّ ستـوره ستهتـكُ

ومن ذلك حرص الأبواق المنافقة على الطعن في المجددين الذين بعثوا ســـنة النبي ﷺ، وذبوا عن دعوة التوحيد؛ كشـــيخ الإســـلام ابن تيمية، وشـــيخ الإســـلام محمد بن عبدالوهاب، وغيرهما من المجددين إلى يومنا هذا.

فمن وافق القـــوم في تطاولهم على رموز الإســـلام، فقد أعانهـــم من حيث يـــدري أو من حيث لا يـــدري، على تحقيق غاياتهم الخبيثة، وشمَّت بنا أعداء الدين، وصدق القائل:

وكـل المصائب قد تمر على الفتى
وتهـــون غيـر شماتـة الأعـــداء

وقال هارون لأخيه موســـى عليه الســـلام: «فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء»، (سورة الأعراف: ١٥٠)، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعوذ بالله تعالى من (شماتة الأعداء)[٣].

وعـــن أيوب قال: مرض أبو قلابة بالشـــام، فعاده عمر بن عبدالعزيز، وقال: (يا أبا قلابة، تشدَّد لا يشمت بنا المنافقون)[٤].

نكتفي بهذا القدر، ونســـأل الله أن ينفع به، وأن يكون مثالاً يُحتـــذى به للذب والدفع عن هذا الدين، وعن رســـوله الأمين، وصحبه الأكرمين، والعلماء، والصالحين.

وصلى الله وسلم وبارك على خير البرية أجمعين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

---

(١) (تاريخ بغداد، جـ١٠/ ١٧٤).
(٢) (فتح المغيث، جـ٣/ ١٠١).
(٣) (أخرجه البخاري رقم [٦٦١٦]، جـ ١١/ ٥١٣).
(٤) (تذكرة الحافظ جـ١/ ٩٤)، (من ١٤–٢٠ انظر حرمة أهل العلم للمقدم ص ٣٣٢–٣٣٤).

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

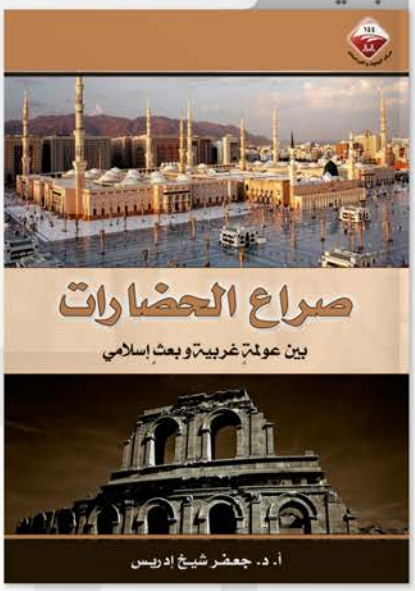

جديد ..

جديد ..

جديد ..

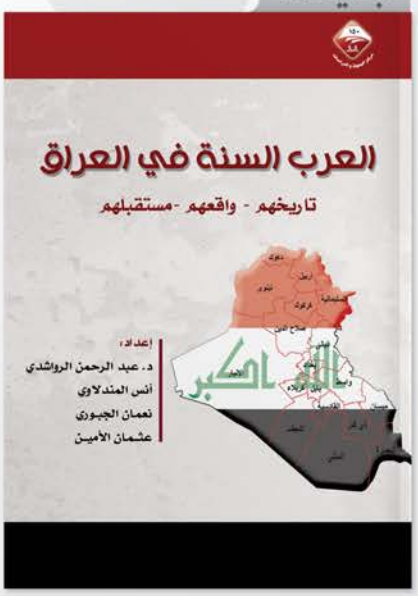

جديد ..

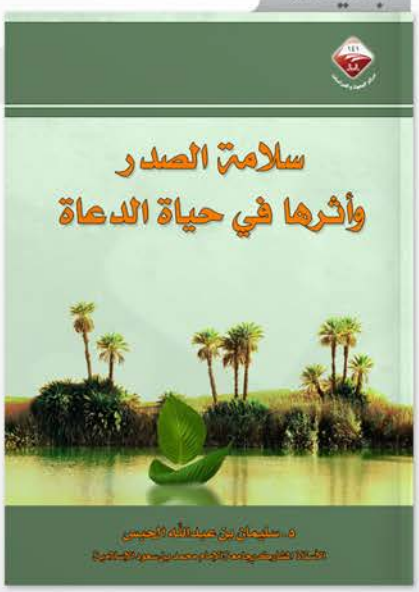

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

هل ستنتصر الأمم المتحدة لسيد المرسلين؟!

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

تردَّدت في أعقاب الهجمة الأخيرة المعهودة من أهل الكتاب على خير البشر - صلى الله عليه وسلم - دعواتٌ من جهات شتى مطالبةً الأمم المتحدة باستصدار قرار يقضي بعدم الاعتداء على المقدسات أو المساس بالأديان.

إنه لمن المؤسف حقاً أن يظن بعض المسلمين أن استصدار مثل هذا القرار سيضمن حماية لمقدساتهم وعقيدتهم دون التنازل عن ثوابتهم مقابل هذه «الحماية الدولية». فهذه الدعوة ليست نتيجة الأحداث الأخيرة التي هي سنة ربانية في حق الرسل وأتباعهم من المؤمنين، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، بل هي واحدة من محاولات بدأت على الأقل منذ عام ١٩٩٩م لوضع ضوابط كلية تهدف الأمم المتحدة من خلالها إلى توجيه عقائد العالم كما توجه سياساته، وهو ما يمكن تسميته «عولمة الدين».

لما قامت شركة الأزياء الفرنسية (Marithé François Girbaud) عام ٢٠٠٥ بتمثيل المسيح - عليه السلام - وحوارييه (وفقاً للمعتقد الكاثوليكي) بطريقة تحاكي لوحة «العشاء الأخير» التي رسمها ليوناردو دا فنشي؛ سارع القضاء الفرنسي إلى تجريم هذا الفعل ومنع نشر الإعلان، واصفاً إياه بـ «التدخل السافر غير المبرر في عقائد الناس الجوهرية»[1]، ثم أصدرت الحكومة الإيطالية قراراً مشابهاً لأن في الإعلان اعتداء على الطائفة الكاثوليكية. لقد توقفت حرية التعبير عندما جُرحت مشاعر البابوية، فسارعت الدولتان الكاثوليكيتان فرنسا وإيطاليا إلى تكميم الأفواه لما كان الأمر متعلقاً بمرجعيتهما، لكن اعتداء زعيم الصليبية على الإسلام ونبيه ﷺ لم يحرك في دول الغرب ساكناً ولم يعتذر هو عن ذلك، بل لم تتجرأ الحكومة الأمريكية على نقده لما تعدى على

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان - يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) BBC News «French Court Bans Christ Advert».

الطائفة البروتستانتية في زيارته للولايات المتحدة عام ٢٠٠٧م وعَدَّ كنائسها باطلة.

لكننا هـذه المرة أمام تجـاوز غير كاثوليكـي (بل قبطي أورثودكسـي في الظاهر) يمكن أن يستغل ليُستصدر به قانون يحفظ حقـوق الأقليات النصرانية باسـم الدفاع عن الأديان، ولهـذا أعرب الفاتيكان عن رفضه للفيلم ودعوته إلى السـلام فـي لغة مزدوجة مألوفة من معقل الصليبية الذي كان بالأمس القريب طعّاناً في الإسلام. وتبعاً لذلك سارع البطريرك الماروني بشارة الراعي بعد لقائه سيده البابا بندكت السادس عشر، إلى الدعـوة لقانون يمنع الاعتداء على الأديـان، وأعرب في ثنايا دعوته عن أن النيل من الإسـلام نيل مـن جميع الأديان. لكن بطريـرك المارون لم يخفِ غرضه من الدعوة، بل صرح - وفقاً لوكالة الأنباء (Romereports) - بأن النصرانية مسـتهدفة غالباً، وأن يسـوع (عيسـى عليه السـلام) والكنيسة والكتاب المقدس، يتعرضون للهجوم والشـتم فـي الأفلام والوثائقيات، وللحيلولـة دون ذلك يريد من الأمم المتحدة أن تتدخل بإصدار قرار[1].

وهذا مربط الفرس بالنسـبة لكبراء النصارى الداعين إلى قانون يجرّم الاعتداء على الأديان والمقدسـات، فهم سيتخذون من هذا الحدث سُـلَّماً يرتقون به إلى مـا يضمن مصالحهم، وعلى رأس هذه المصالح حماية وتسمين الأقليات النصرانية في بلاد الإسـلام بعد أن تبيّن جلياً سعي دول الغرب الاستعمارية في الأعـوام الأخيرة إلى اسـتغلال بعض الأحـداث المتعلّقة بالأقليـات في العـراق ومصر وغيرهما فـي محاولة للتدخل في شـؤون البلاد الإسـلامية، لكن هذا التدخل قد يتخذ في المستقبل مجرىً رسمياً دولياً تحت مظلة الأمم المتحدة.

لعل صيغة القرار النهائيـة لقانون مناهضة الاعتداء على الأديان، محفوظة في الأدراج لحين الحاجة إليها، بل إننا نمتلك صيغة مشـابهة صادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الخامسـة والسـتين بتاريخ ١١ أبريـل ٢٠١١م، عنوان القرار «مناهضة تشـويه صورة الأديان»، وهاك فقرات من تلك الوثيقة:

«ترحب [الجمعية] بما أعرب عنه في إعلان الأمم المتحدة للألفية الذي اعتمدته الجمعية العامة فـي ٨ أيلول/ سبتمبـر ٢٠٠٠ من تصميم على اتخـاذ تدابيـر للقضاء على الأفعال العنصرية وكراهية الأجانب المتزايدة في مجتمعات كثيرة».

«وإذ تعرب [الجمعيـة] عن بالغ القلق إزاء ازدياد العنف العنصري والأفكار الداعية إلـى كراهية الأجانب فـي أنحاء عديدة من العالـم وفـي الدوائر السياسية ولدى الرأي العام وفـي المجتمع ككل، نتيجة لأمـور عدة، منها: معاودة الأحزاب والرابطات السياسية المنشأة على أساس برامج ومواثيق عنصرية ومحـرضة على كراهية الأجانب وقائمة على فكرة التفوق الإيديولوجي... والتمادي فـي استغلال تلك البـرامج والمواثيق للترويج للإيديولوجيات العنصرية أو التحريض على اعتناقها».

«تلاحظ [الجمعيـة] مع القلق أن الحط من شأن الأديان والتحريض على الكراهية الدينية عموماً، يمكن أن يؤديا إلـى التنافر الاجتماعي وانتهاك حقوق الإنسان، وإذ يثيـر جزعها عدم اتخـاذ بعض الدول أي إجراءات لمكافحة هذا الاتجاه المتنامي وما ينجم عنه من ممارسات تمييزية ضد معتنقي أديان معينة».

خلاصة القول: إن قرار الأمم المتحدة المعَدّ سابقاً سيساوي بين الضحية والجلاد، وسيسعى إلى تسوية دين الله الحق بغيره من أديان البشـر تحت ذريعة محاربة الأحـزاب والجماعات التي تمارس العنـف لقيامها «على فكرة التفوق الإيديولوجي». وسـيترتب على هذا تمييع القضايا العقدية الجوهرية كالولاء والبراء، وسيعد اسـتعمال بعض الألفاظ الشرعية كـ «الكافر» و«المبتدع» من الدعوة إلى الكراهية والتعدي على حقوق الإنسان، وقد يمنع المسلم من نقض عقائد التثليث والصلب ونحوهما في سياق دعوته النصارى باعتباره تجاوزاً على خصوصيات الآخر، وقد يُجرَّم القائل بأن كتب اليهود والنصارى محرفة. وقد قلت قبل عامين تقريباً لأحد الإخوة مُتندِّراً: يوماً ما قد يُصادَق على الأحكام الشـرعية في بلاد الإسلام من قبل الأمم المتحدة، ولا أراه بعيداً.

إن دور الأمم المتحـدة على الصعيد الديني لن يقل خطورة ومراوغة عـن دورها على الصعيد السياسـي، وهو حلقة في مشروع العولمة (أو النظام العالمي الجديد)، الذي يسعى للقضاء على ثوابت الدين وتتبناه هذه المنظمة، بل تتولى كبره.

(1) http://www.romereports.com/palio/catholic-patriarch-un-resolution-thatoutlaws-religious-defamation-is-needed-english-7740.html#.UGaqTpjMiJo.

منهج القرآن الكريم
في التشريع والتكليف

د. أمين الدميري
amindemery51@hotmail.com

لقد رفض زعماء المشركين دعوة التوحيد لأنها تصطدم بمناصبهم ومصالحهم، فقد كانوا حريصين على حقهم في التحليل والتحريم ظناً منهم أنهم الأعلم والأجدر بجلب المصالح لقومهم ودرء المفاسد عنهم، كما ظنوا أن دخولهم في الدين الجديد سيجلب عليهم التخطف والفقر ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾، وهي مقولة كاذبة وحجة واهية ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

ولما نزل حكم منع المشركين من دخول مكة زعموا أن هذا الأمر سيضر بمعايشهم (بحالتهم الاقتصادية)؛ لأن مكة ستغلق أبوابها في وجوه الزائرين (السائحين!)، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]، ولا شك أنهم ناقضوا أنفسهم - أيضاً - في هذه الذريعة؛ لأنهم مقرّون بخصائص الربوبية ومنها الرزق، وهو الورقة التي يتاجر بها الزعماء ويزايدون بها!

أما حقيقة أمرهم فهم رافضون لخصائص الألوهية؛ وهي أن حق التشريع إنما هو لله - تعالى - وحده، لذا كان مدخل النبي ﷺ في دعوتهم هو قوله (قولوا «لا إله إلا الله» تملكوا بها العرب وتدفع لكم بها العجم الجزية)، وكان وقع كلامه عليهم شديداً، فلم يقبلوه وعادوه وعاندوه، وما مات النبي ﷺ حتى ملكوا العرب، ودفعت العجم الجزية، وأغناهم الله من فضله، ورزقهم رزقاً كريماً، ومَنَّ عليهم بالنعم والمنعة.

ومن هنا كانت أهمية البدء بترسيخ معنى «لا إله إلا الله»، والثبات عليها، وبيان مقتضياتها؛ وأولها: أن حق التشريع إنما هو لله عز وجل وحده، والحكم له لا لغيره من الأشخاص أو الهيئات أو اللجان ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهذا هو المدخل والمنهج الأساس في التشريع والتكليف، وقد استغرقت قضية التوحيد أكثر من نصف عمر دعوة النبي ﷺ، كما استغرق شرحها أكثر سور القرآن عدداً (٨٦ سورة مكية)، وعلى ذلك يمكن إلقاء الضوء على منهج القرآن في التشريع والتكليف فيما يلي:

١ - ترسيخ مفاهيم توحيد العبودية؛ فالعبادة هي الطاعة في التشريع، قال تعالى عن أهل الكتاب ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد ذكر المفسرون قصة عدي ابن حاتم لما سمعها قال يا رسول الله: نحن لا نعبدهم! قال: أليسوا يحلون لكم ما حرم الله ويحرمون عليكم ما أحل الله فتتبعوهم؟ قال: بلى. قال: فذلك عبادتكم إياهم. فكان من معاني العبادة الطاعة في التشريع، ومصدر التكليف لا يكون إلا من الله؛ فمن له الخلق له الأمر ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالإله المعبود (المشرع المطاع) ليس هو الشيطان ولا الملأ (السادة والقادة وأعضاء المجالس!!) ولا الهوى ولا علماء السوء؛ كما بيّنت سورة الأعراف وأمثالها من سور القرآن، وحق الإله المعبود أن يكون هو الحكم وفيه الولاء وله النسك؛ كما بيّنت سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقوله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، وتمام ذلك وكماله أن تكون العبادة خالصة له من دون الناس وأغراض الدنيا؛ كما في سورة الزمر، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢ - ٣]، وسورة البينة في قوله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥].

٢ - التهيئة لقبول التشريعات: وهو ما تميز به القرآن المكي، فقد كانت التهيئة للجهاد بفرض الجهاد بالقرآن ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، وجهاد النفس ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ [العنكبوت: ٦]، وتزكيتها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩]، وهي سور مكية.. كما كانت التهيئة لفرض الزكاة بالترغيب فيها وبيان فضل معطيها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤]، وهي سورة مكية.

٣ - نزول القرآن منجماً؛ أي مفرقاً سورة سورة وآية آية حسب المناسبة وظروف المرحلة، قال تعالى ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]، أي مواقع نزول القرآن، وقال تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [النجم: ١]، أي القرآن إذا نزل؛ وهذا يسهل العمل بالأحكام، لأن نزول التشريعات جملة واحدة مما لا يطيقه الناس، وهو أيضاً من الحكمة القاضية بالتدرج في فرض الأحكام والتكاليف، كما يعين ذلك على ترك المألوفات القديمة، والتخلي عن عادات الجاهلية وموروثاتها المتجذرة في العقول والقلوب، فلم تنزل تكاليف إلا بعد أن صار تأثير الإيمان وسلطانه أقوى من تأثير المألوفات وسلطان الموروثات!!.. ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

٤ - ربط التكاليف بالتقوى: فإنما تظهر التقوى وتتجلى في التعامل مع الأحكام، وإن الخضوع للأحكام دليل التقوى، كما أن التقوى هي ثمرة أداء التكاليف، ونجد هذا الربط

واضحاً في سورة البقرة، وهي تمثل أولى مراحل التشريع في المدينة المنورة بعد الهجرة. وجدير بالذكر أنه تكرر ذكر التقوى والأمر بها في السورة أكثر من ثلاثين مرة، وأضرب لذلك بعض الأمثلة في السورة الكريمة:

- العبادة والتقوى: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فالتقوى ثمرة الطاعة وأداء التكاليف وهو معنى العبادة.

- التقوى وآيات القصاص: ومنها قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، يقول القرطبي: «المراد تتقون القتل فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك؛ فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة..».

- الصيام والتقوى: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وبعد آخر آية من آيات الصيام وفي آخرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جاء قوله تعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فالصوم عبادة تثمر التقوى، وإنما تتجلى التقوى في أحكام المعاملات كالبيوع؛ وهذا ما أثبته البخاري - رحمه الله - في تبويبه، فقد ذكر كتاب البيوع بعد كتاب الصوم وصلاة التراويح والاعتكاف، للتنبيه على أن من صام وقام واعتكف فلا يأكل مال الناس بالباطل ولا يكسب حراماً.

- آيات القتال والتقوى: وهي ست آيات تأمر بالقتال ورد العدوان، كما تأمر بالتقوى في ممارسة أحكام القتال والنهي عن تجاوز الغرض منه، وأنه حال الالتزام بالتقوى فإن ثمرة ذلك معية الله وهي الجالبة للنصر، قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

- التقوى وأحكام الأسرة من زواج ومعاشرة وشقاق وطلاق، حيث تكرر ذكر التقوى والأمر بها خمس مرات لأهميتها وضرورتها في مثل هذا النوع من المعاملات، وكان الأمر الأول قوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

- التقوى وآيات أحكام الربا والتداين، فقد تكرر ذكر التقوى خمس مرات، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ويتجلى الربط في أن التقوى هي المحرك والدافع لترك التعامل بالربا، وأن ذلك هو المانع من حرب الله ورسوله (وهو العقاب الدنيوي) لمن لم يمتنع عن التعامل بالربا، كما أن الآكل للربا لم يتق العقاب يوم القيامة، وهو ما جاء في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] (وهو العقاب الأخروي).

- تبشيع أمر المحرمات وتغليظ العقوبة؛ ففي أمر الزنا ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وفي عقوبته ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢]، وفي عقوبة القاذف بغير أربعة شهود ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

- بيان أن ما شرعه الله تعالى وكلف به هو ما يحقق السعادة والفلاح والخير للمكلفين في الدنيا والآخرة، وأن الاستجابة الفورية القوية الكاملة لله عز وجل وللرسول صلى الله عليه وسلم، هي الطريق لتحقيق الحياة الكريمة؛ وهي حياة العزة في الدنيا، وحياة النعيم في الآخرة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وفي الآية التي تليها بيان أن عدم الاستجابة جلب للفتنة التي تصيب العامة والخاصة؛ وهي سيادة الشرك وتسلط الظلمة وغياب العدل وضياع الدين ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومن هنا فقد تبيَّن أن منهج الإسلام في التشريع يتفق مع فطرة الإنسان وطبائع البشر، ويسهل لهم قبول التشريعات، وييسر للناس الاستجابة للتكاليف، كما يرفع عنهم الحرج والمشقة، ويأخذ بأيديهم لما يحقق مصالحهم ويجلب لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ومما لا شك فيه أنه لا يوجد تشريع وضعي ولا قانون بشري يتسم بالعدل والرحمة واليسر والإنصاف كما في شرع الله، والدليل على ذلك أن تلك التشريعات والقوانين متغيّرة؛ فتارة توضع حلاً لوضع قائم أو لمشكلة طارئة ثم تزول بزوال المشكلة، ثم توضع تشريعات أخرى... وهكذا، فلا ثبات لتلك التشريعات! وتارة لتحقيق مصلحة لطبقة دون طبقة أو لنصرة طائفة على أخرى، ولهذا لا يتعامل معها الناس بالرضا والقبول.

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾

مستقبل الإسلام.. بين نور دائم ووعد قائم

د. عبد العزيز كامل
d.amk@hotmail.com

هناك ضمانتان باقيتان تجعلان المسلم مطمئناً على المسار المستقبلي للإسلام مهما تضاعفت حملات العداء له أو الكيد لأهله، أولاهما: الكمال الذاتي في هذا الدين بما يجعله وهاجاً بالهدى والنور على مر الدهور، بحيث يضمن هذا إقبال الخلق على الإيمان به للعيش بأمان في وارف ظلاله، والضمانة الأخرى: هي وعد الله القائم للقائمين بأمر الدين والمناصرين له، بإعلاء شأنهم بقدر قيامهم به ونصرهم له؛ ولذلك فإن الحرب المستعرة ضد هذا الدين من كل أعدائه الظاهرين والمستخفين، لا ينبغي أن تفتّ في عضد مسلم أو توهن من عزمه على التمسك به والتشبث بعراه ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٤٣].

فماذا يستطيع الكارهون المحادّون لدين الله أن يحققوا أو يقدموا من جديد، بتجديد حملات الكراهية والعدوان بين الحين والحين، مرة برسوم بذيئة، وأخرى بتصريحات بابوية أو حاخامية قميئة، وتارات بحرق المصاحف أو التبول على أجساد الشهداء أو الاعتداء الجنسي على الأسرى والسجناء، أو تلطيخ جدران المساجد أو هدمها أو تحريق الجثث أو التمثيل بها؟!.. ماذا يستطيعون فعله بحروبهم العسكرية، وحصاراتهم الاقتصادية، ومعاركهم السياسية والثقافية والإعلامية؛ أمام دين ينتصر ودعوة تنتشر رغماً عن كل تلك الحملات المتواصلة منذ عقود بل قرون؟! ماذا يمكنهم أن ينجزوا أو يحرزوا بهجمات همجية غير حضارية، في صور متنوعة من (حرب الأفكار) التي تتكرر وتتطور في أنماط شيطانية نلطفها نحن أحياناً ونخففها فنقول (إساءة)؟!.. مع أنها ليست مجرد إساءة تصدر من مخبول أو غير مسؤول – كما يقولون في كل مرة –، لكنها أعمال تصل إلى مصاف (إعلان حرب) في الأحكام الشرعية يقيناً، وفي الأعراف القانونية أحياناً، بدليل أن بعضاً من تلك (الإساءات) – كالفيلم العدائي الاستعدائي الأخير –، لو حصل مثله علانية على وجه الإهانة وبتلك الوقاحة ضد رمز قومي أو وطني

محترم، أو زعيم مزعوم يكـــرم؛ لقطعت لأجل ذلك علاقات، وأغلقت ســـفارات، وربما ثارت لذلك حـــروب ونزاعات، كما حدث ويحدث كثيراً على مر التاريخ.

المعلنون لتلك الحروب - من طرف واحد دائماً - يجهلون أو يتجاهلون أنهم لن يفلحوا فيما لم يفلح فيه أسلافهم، ولن ينتصروا في معركة خســـرها آباؤهم وأجدادهم عندما أرادوا أن يطفئـــوا نور الله بأفواههم، متصوريـــن أنهم قادرون على مواجهـــة إرادة الخالق القادر القاهر بإرادة مخلوق ذليل لكنه متمـــرد كافر أراد - لفرط كفره - أن يقـــف ضد إرادة الله: ﴿يُرِيـــدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللّـــهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّـــهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

في تلك الآية - بين آيات قبلها وآيات بعدها - يحتاج المرء المسلم إلى أن يســـتعيد توازنه النفسي، وتماسكه الوجداني، كلما أوشـــك ذلك التماســـك والتوازن أن يختـــل تحت وقع الضربات والصدمات والفتن التي يثيرها الأعداء في موجات متلاحقة، صار بعضها يُنسي بعضاً، ويرقق بعضها بعضاً.

فلنقف مع الآيـــات في تأملات توصلنا إلى بصائر جاءت فيها مما جادت بـــه قرائح المتدبرين، وفتوحات المفســـرين، قدماء ومعاصرين.

بين يدي الآية:

يبدأ ســـياق الآية التي نحن بصددهـــا بذكر قبائح أهل الكتاب وشـــنائعهم وغلظ كفرهم - وبخاصة أهل الزعامات والرئاســـات الدينية والسياســـية فيهم -؛ تعليلاً لمشـــروعية التصدي لهم، والســـعي لتصغير وتحقير شـــأنهم الرامي إلى فرض عقائد الكفر بالله على سائر عباد الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـــونَ بِاللّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَـــرَّمَ اللّهُ وَرَسُـــولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِيـــنَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقد كان معمولاً بذلـــك التوجيه القرآني في غالب عهود التاريخ الإســـلامي؛ حفظاً لمقام الوحدانية من تغول العقائد الشركية لأهل الكتاب.

وأول هذه الشنائع أنهم ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ مهما قالوا غير ذلك، لأن الإله الذي يقولون إنهم يؤمنون به ليســـت له صفات الإله الحق الذي دلت عليه الرســـل. وثاني تلك الشنائع عدم إيمانهـــم باليوم الآخر، حيـــث إن إيمانهم المدعى بذلك يرجع إلى الإيمان بمعاد روحي لا جســـدي، فهـــم بذلك لا يؤمنون باللـــه ﴿وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. وثالث شـــنائعهم أنهم مع كونهم لا يلتزمون بشـــريعتهم ﴿لا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فيما جاء به الإسلام من تحريم ما دلت التوراة والإنجيل على تحريمه، كشـــرب الخمر وأكل لحم الخنزير ونحو ذلك. ورابعها: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، فلا يعترفون إلا بدين يعرفون أن ديناً آخر غيره هو دين الحق، وهو الإســـلام الـــذي جاء به محمد ﷺ المذكور صراحة في كتبهم. وخامســـها: اعتداؤهم على جلال الذات الإلهية وإساءتهم إليها بنسبة الولد لله تعالى، وفي ذلك ما فيه من نســـبة النقص والحاجة والحـــدوث والحلول إليه ســـبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿وَقَالَـــتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِـــيحُ ابْنُ اللّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. وسادسها: وقوعهم في شرك التشـــريع، جاعلين من علمائهم وعبّادهم مشرّعين من دون الله، يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. وسابعها: سعيهم لإبطال أمر دين الحق الذي دعتهم رســـلهم إلى الإيمان برسوله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُـــوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِـــمْ﴾. وثامنها: صدهم الناس عن الحق، مع أكل أموالهـــم بالباطل، مانعين عنهم بذلك الخير ومنزلين بهم الشـــر والضر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُـــونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَـــبِيلِ اللّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. وتاسعها: اشـــتراكهم مع المشركين في العبث بالأوقات وتغيير الزمن؛ هؤلاء بالنسء والتأجيل، وأولئك بالنسخ والتغيير، وهو الحاصـــل بإلغائهم العمل بالشـــهور القمرية التي بنيت عليها أكثر أحكام الشـــرائع التعبدية في الأديان السماوية ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

إن أقواماً تصدر منهم تلك الشـــنائع والفظائع، جديرون بالتواري والخجـــل مما هم عليه من الظلم والظلام، بدلاً من سعيهم الدائم والدائب لإخراج الناس من النور إلى الظلمات.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾

وفي هذا الجزء من الآية من الحقائق والبصائر ما يلي:

● هـــم يريدون بـــكل ما ذكر أن يطفئوا نـــور الله، فيظل الجـــرم الأعظم الجامـــع لما ذكر من الجرائـــم هو اعتقادهم بأنهـــم قادرون على تحدي إرادة الله في أن يحق الحق ويبطل الباطل بإرادة معاكســـة فـــي إبطال الحق وإحقـــاق الباطل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُـــوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، فهذه إرادة موجهة منهم نحو ذلك الغرض، ولهذا لا تخرج قبائحهم وشنائعهم السابق ذكرها مصادفة أوعَرَضـــاً، وإنما تجيء على وجه من التعمد

والاستمرار والاستقرار؛ لغرض إطفاء نور الإسلام، وتشير إلى ذلك صيغة (المضارعة) في حكاية ما وراء تلك الأفاعيل، فهم ﴿يُرِيدُونَ﴾على وجه مستمر أن يطفئوا نور الله.

● النور المذكور في الآية هو الدلائل الكثيرة الدالة على صحة نبوة الرسول ﷺ، وأولها: ثبوت تلك النبوة بمعجزات خارقة لم تثبت نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء إلا بمثلها أو بأقل منها، وعلى رأس ذلك القرآن الذي يسعون لإثبات أنه ليس بمعجز، فيتكرر عجزهم في ذلك. وثاني تلك الدلائل: أنه ﷺ جاء بذلك القرآن المعجز في ألفاظه وأخباره وتشريعاته مع كونه أمياً لا يعرف الكتابة ولا القراءة ولم تحدث له طوال عمره قبل النبوة سابقة نظر في كتب أو تتلمذ على عالم، بل عُرف بأنه أمي، وهو ما نصت عليه كتبهم. وثالثها: أنه جاء بشريعة يدل العقل على أنه لا طريق إلى الله غير طريقها، لأن حاصلها تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لطاعته وحده، وصرف النفس عن التعلق بالدنيا، وترغيبها في سعادة الآخرة. ورابع تلك الدلائل: أنه ﷺ جاء بدين لا نقص فيه، فليس فيه إثبات ما لا يليق بالله، وليس فيه دعوة لتأليه غير الله. وخامسها: أن سيرة الرسول ﷺ وقصة حياته كلها تدل على نبل رجال النبوة وعلى خُلق أصحاب الرسالة، حيث لم يتغير طبعه أو يتبدل شرعه، فأصول دعوته وشريعته في مكة هي هي في المدينة؛ من حيث تجريد العبودية لله الواحد، وكذلك ظل خلقه العظيم من الصدق والعفاف والزهد في الدنيا مصاحباً له حتى مات، وهو ما يدل على أنه لم يكن طالب ملك أو سلطان أو عرض زائل.

● إرادة كفار أهل الكتاب إطفاء ذلكم النور لم تكن مجرد رغبات أو تمنيات، بل كانت وستظل سعياً بالأفعال والأقوال لإبطال أمر الرسول ﷺ، وإخفاء الدلائل الدالة على صحة شرعه ودينه، ومحاربة أتباعه في صور متعددة ومتنوعة تبدأ بإضمار الحسد الباعث على سوء القيل والقال، متدرجة في سوء الأفعال التي تنتهي إلى الحرب والقتال ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

● هناك تبادل وتوزيع للأدوار بين المعادين من الكفار في مسعاهم المستحيل لهزيمة الإسلام، فكلهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، إلا قليلاً منهم، لكن أدوار علمائهم في الكيد هي الأبرز والأقدم، وكل ضلال وقع فيه صنف من أصنافهم تقع تبعته على هؤلاء العلماء الجهال، يفسر ذلك هذا التواطؤ المذهل عبر القرون في إخفاء الدلائل الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ في كتبهم، والسعي المتواصل بلا كلل أو ملل للطعن في دينه وشريعته، وتشويه صورته وسيرته.

● مع استمرار المكر الكُبّار من هؤلاء الكفار عبر القرون، إلا أن حصيلته هزيلة، وثمراته معطبة، مع كونها قليلة، ولهذا وصفت مساعيهم لحجب هداية القرآن على أنها تجري مجرى من يريد إبطال مفعول نور الشمس بمجرد النفخ فيها.

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾

● إذا كان الكفار (يريدون) على وجه الديمومة والاستقرار (أن يطفئوا نور الله) فالله (يأبى) على وجه التجدد والاستمرار (إلا أن يتم نوره).

● الإباء يفيد زيادة على مجرد عدم الإرادة والرضى، فقد لا تريد شيئاً لكنك لا تمنعه أو تمانعه، ففرق - مثلاً - بين من لا يريد الظلم - فالكل لا يريده - وبين من يأبى الظلم ويمانعه. وإباء الله هنا هو عدم رضاه عن مرادهم، مع امتناعه ومنعه من تحقيق مسعاهم.

● إتمام النور الذي يأبى الله غيره، إشارة إلى أنه - سبحانه - يريد لنور الإسلام ألا يخفت أبداً، فهو سبحانه لا يريد له أن يلوح أو يشرق فقط، بل يريد له أن يتم، بل كثيراً ما يجعل سعي الكافرين والضالين لإطفاء نوره سبباً في زيادة انتشار ذلك النور، فهم يريدون والله يريد وراء إرادتهم، ويمكرون والله يجعل مكرهم عليهم، ويكيدون والله يكيد لهم، ويبغون فيعود بغيهم على أنفسهم.

● مع امتناعه تعالى ومنعه أن يوصل من يريدون إطفاء نور الإسلام إلى غرضهم، فقد تعهّد سبحانه ووعد بإيجاد أعظم الأسباب المؤدية إلى بزوغ ذلك النور ثم شيوعه وإتمامه، وكان أعظم ذلك بإرسال الرسول المتمم لهذا النور، والتعهد له بمزيد النصرة وعلو الرتبة وإتمام النعمة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣].

● من إتمـــام النور أنه مع كونه غيـــر قابل للإطفاء فإن وهجه يغطي على غيره مما تُدعى فيه النورانية، فهو بذلك لا يُطفأ، بل يُطفئ ويحرق ما يعارضه.

● في الآية وعد وبشارة إلهية للمؤمنين الحاملين لمشاعل هذا النور بأن نصرهم سنة ربانية تمضى بها الأحكام القدرية.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

● يمضي الله إرادته ويفرض مشـــيئته بإتمام نوره رغماً عن كراهة الكارهين من الكفار والمشـــركين، فأشد ما يغيظهم ومن على شـــاكلتهم من المنافقين وسائر المجرمين في القديم والحديث، هو السعي لنشر ما يكرهون.

● الباعـــث الأكبـــر على أعمال العـــداء التي تصدر من الشـــانئين للدين، هو تلك الكراهية، فهي العنوان الكبير الذي تندرج تحته تصرفاتهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، ولذلك يبادلهم الله عداء بعداء وكرهاً بكره، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

● يأتـــي في مقدمـــة الكارهين لانتصـــار الدين: اليهود والنصارى، فالســـياق يدل على ذلك، وبخاصة أهل الرئاسات منهم؛ لأن انتصار الإســـلام وانتشـــاره يجيء على حســـاب سياساتهم ورياســـاتهم، ولهذا يكرهونه ويحاولون إطفاء نوره بشتى الوسائل؛ سراً وعلناً، سلماً أو حرباً، هزلاً أو جداً، فهم بين مستهزئين ســـاخرين، أو محاربين معتدين مستخفين، أو مســـتعلنين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

● مهمـــا بلغت درجة الكراهية، ومهمـــا تواصلت أقوالها وأفعالهـــا، فهي ليســـت إلا في تباب، وســـعيهم لها لا يوصل إلا إلى ســـراب، ولذلك وصف القرآن حملات الكراهية بأنها مجـــرد نفخ بالأفواه لا يطفئ النور بل ينعكس عليهم زيادة في الظلام، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾

● إرسال الرسول ﷺ بالهدى ودين الحق هو أعظم نعمة امـــتن الله تعالى بها، حيث أنفذ من خلالها مشـــيئته وإرادته بإتمـــام نوره دون أن يقـــدر أحد على منازعتـــه أو معاندته، وبخاصة من أهل الكتاب الذين ظنوا أن الرسالة ستظل فيهم وحدهم إلى يوم القيامة.

● تلك المنة العظمى في إرســـال ذلك الرســـول تتجدد ببقاء الحق الذي جاء به ظاهراً جلياً، في وحي معصوم غير قابل للتحريف أو التزييـــف، كما فعل اليهود والنصارى في دينهم، وتقوم على ذلك الحق الظاهر - بعد الرســـول - أمة هـــي خير الأمم، فيها طائفة ظاهرة على الحق منصورة إلى يوم القيامة.

● الأمران اللذان أُرســـل بهما محمد ﷺ يكمل أحدهما الآخر، ويوصل أحدهما إلـــى الآخر، فأحدهما هو (الهدى)، والهدى في اللغة هو الدليل، ورســـولنا ﷺ لم يرســـل بدليل واحد، بل بدلائل متكاثرة وبراهـــين ملزمة ومعجزات قاطعة كانت بمجموعها بمنزلة قبس عظيم يشع ضياء، ينير الطريق لكل ســـالك، ولذلك جمعت تلك الدلائـــل في القرآن ووصف بأنه (هدى للناس).

● وأمـــا الأمر الثاني الذي أرســـل الله به رســـوله ﷺ، فهو ﴿دِينِ الْحَقِّ﴾، والشـــيء لا يكـــون حقاً إلا إذا كان صواباً ومطابقـــاً للحكمة ونافعاً في الدنيا والآخـــرة معاً، ودين الله الذي أرسل به محمد ﷺ تنطبق عليه دون غيره تلك الصفات التـــي لا توجد في بعضه دون بعض، بل إنها تشـــمل نواحيه كلها: عقائد وعبادات ومعاملات وســـلوك. فـ (الهدى) يتعلق بالجانـــب النظري في تلـــك الأمور، و﴿دِيـــنِ الْحَـــقِّ﴾ يتعلق بالجوانب العملية منها، ولذلك فُســـر ﴿الْهُـــدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أيضاً بأنهما: العلـــم النافع والعمل الصالح، وهذا يكمِّل هذا، وذلك يوصل إلى ذاك.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾

● إيصال الهدى إلى دين الحق، ثم اقترانهما ببعضهما، يكسبهما ظهوراً ذي شـــقين: ظهور اتضاح وتبيين، وظهور انتصـــار وتمكين، وذلك على كل دين مغايـــر ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيـــنِ كُلِّهِ﴾، وكلا الظهوريـــن يتناوبان في الزمان والمكان، وكثيـــراً ما يجتمعان، وحتى لو تخلف ظهور القوة والتمكين أو ضعف؛ فـــإن ظهور الحجة والبيان دائم البقاء إلى قيام الساعة.

● الظهور بقسميه له محل يتحقق فيه، ومحله الأول هو الإسلام أو الرسول نفسه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، أي: ليظهر الرسول ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، فقد نصر الله عبده وأنجز وعده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. ثم يُظهر الله مَنْ بعده - ﷺ - على قدر قربهم من هديه، فأولهم الصحابة ثم التابعون ثم تابعو التابعين، ثم من سار على نهجهم إلى يوم الدين.

● أظهر الله تعالى الرسول وأمته على طوائف الكفر كلها، من الكارهين والمعاندين لهذا الدين - دين الحق. فهو ﷺ أظهره الله على مشركي العرب حتى دانت له الجزيرة كلها وتخلت عن أصنامها، ثم غلب هو وأمته اليهود حتى أخرجوا صاغرين من جزيرة العرب لتضرب عليهم الذلة والمسكنة، وغلبوا النصارى في بلاد الشام وأخرجوهم منها إلى غياهب أوروبا في عصورها الوسطى المظلمة، وغلبوا الفرس وأطفأوا إلى الأبد نار مجوسيتهم، ثم طاردوا عبادة الأصنام بعيداً عن جزيرة العرب حتى غلبوهم على بلادهم في مواطن الشرك ببلاد الهند والترك.

● لم تزل أمته ﷺ تنازل أصحاب الأديان الباطلة فوق كل أرض وتحت كل سماء، إلى أن جاء عهد الاستضعاف العام بتفريط من عامة الأمة، لكن مع ذلك ظلت في الأمة بقية تنازل الكافرين والمعتدين وتسجل انتصارات تاريخية كان من بعض نتائجها المعاصرة إلجاء قوى الطغيان الأوروبي إلى الجلاء عن كثير من بلاد المسلمين، ثم إسقاط الطاغوت العسكري الأضخم في العالم - وهو الاتحاد السوفيتي السابق -، وها هي القوة العظمى الأكبر - أمريكا - يتوقع لها سقوط أعظم بعد أن تورطت باحتلال بعض بلاد المسلمين، فدخلت في حرب مفتوحة بمعادتها أولياء الله الذين آذن الله من يعاديهم بالحرب.

● إظهار الإسلام على الدين كله تضبطه ظروف زمانية وظروف مكانية، فأما الظروف الزمانية فإن الإسلام الذي بدأ غريباً لم يلبث أن زالت غربته، فازدادت قوته في صدر تاريخ الرسالة، ثم بعد أن عاد غريباً ستزول غربته وتزداد قوته حتى يبلغ ذروته في زمان المهدي المبشَّر بخروجه في الأحاديث الصحيحة، حيث سيعم سلطان الإسلام الأرض كلها، كما قال السُدِّي: «فلا يبقى أحد إلا دخل الإسلام أو أدى الخراج»، ويبلغ الأمر تمامه في زمان نزول عيسى - عليه السلام -، حيث (يهلك الله في زمانه المِلل كلها إلا الإسلام)[1].

فزمان المهدي يكون الإسلام فيه هو الأعلى، وزمان عيسى يكون الإسلام فيه هو الأوحد.

● الظهور المكاني للإسلام خص الله به في أول الأمر أفضل بقاع الأرض، فانبعث نوره في مكة، ثم ظهرت شوكته في المدينة، وينطلق الظهور بقسميه إلى بقية الجزيرة العربية، التي هي أفضل الأرض من حيث هي أرض، لما خصها الله - شرعاً - بوجوب تطهيرها من الشرك، فلا يجتمع فيها دينان. ثم انتشر ظهور الإسلام بعد ذلك في البلدان المحيطة بجزيرة العرب، فعم التوحيد بلدان الشام والعراق ومصر، وتلك البلدان - مع اليمن - هي التي ظلت عبر التاريخ وستظل إلى قيام الساعة ساحة للأحداث الدينية الكبرى، وبقدر علو شأن الإسلام فيها سيكون شأنه في بقية العالم.

● تبقى هناك علاقة تلازم بين ظهور الإسلام وانتصاره في الزمان والمكان، وبين العلم به والعمل بشريعته، ولذلك يتنقل المجددون للدين وتتنقل الطائفة الظاهرة على الحق زمناً ومكاناً في أرض الله، حتى يأتي الزمان الذي سيكون سلطانها على جميع أركانها، كما قال الرسول ﷺ (زُويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها)[2].

● أخيراً: يظهر لكل متابع أن سنن الله الكونية القدرية في إتمام نوره تتطابق مع سننه الشرعية في ترتيب الانتصار بها على الانتصار لها، ولذلك تجري الأحداث - وستظل تجري - بما يؤكد ذلك الأمر ويبرهن عليه، حتى نشهد عليه كما شهد من سبقونا إليه، ومن هؤلاء الصحابي الجليل «تميم الداري» الذي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليبلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر)، فكان تميم الداري يقول: «قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٢٤)، وصححه ابن حجر في فتح الباري (٥٦٩/ ٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٠٣/٤)، وقال الهيثمي في المجمع (١٤/٦) «رجال أحمد رجال الصحيح».

الحجُّ.. توحيدٌ وتحقيقٌ للتقوى

أ.د. ناصر بن سليمان العمر(*)
@naseralomar

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فلا أعلم ركناً من أركان الإسلام جاء مفصَّلاً في القرآن كما هو في (الحج)، علماً أنه الركن الخامس في الإسلام، ولا يجب في العمر إلا مرة واحدة، بل هو أيسرها من حيث الوجوب وسقوط التكليف[1]، فكثير من المسلمين على مرّ العصور لم يستطيعوا إليه سبيلاً، ولو تأملنا في العصر الحاضر لوجدنا أنّ أقل من ٠,٢٪ من تعداد المسلمين يؤدون الحج كل عام.

لهذا؛ نحتاج إلى وقفة تأمل لماذا هذه العناية العظمى بالحج والعمرة من حيث التفصيل الذي لا تجده في بقية أركان الإسلام سوى الشهادتين، فالصلاة والزكاة وردتا أكثر من الحج في القرآن لكن بشكل إجمالي دون تفصيل، حيث عنيت السنة بتفصيل ذلك، والصوم جاء في آيات محدودة في سورة البقرة، مع تفصيل يسير.

أما الحج فكان وروده في القرآن في عدة سور مع تفصيل ظاهر، مع ما جاء في السنة من بيان وتفصيل قولي وعملي.

كل هذا كان من أسباب الوقوف مع بعض آيات الحج سعياً إلى تحقيق هذا الركن على الوجه الأكمل، حيث إن العمل يتوقف على العلم، والتدبر من أعظم أبواب العلم ومسالكه، وقد قال ربنا: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فجعل التذكر بعد التدبر، وإن كانت الواو لا تقتضي تعقيباً ولا ترتيباً، لكن دلالة السياق والواقع تؤكد ذلك والله أعلم.

ولما كان المقام لا يتسع للحديث عن سائر آيات الحج في مثل هذا المقام، ولو مع اختصار وإخلال، رأيت أن أقتصر هنا على آيتين في مبادئ هذا الشأن، ولن أقف معهما من حيث الدلالة الفقهية والأحكام التفصيلية، وإنما سأركز على القضايا الإيمانية والعقدية والتربوية والسلوكية والأخلاقية، ومن الله أستمد العون والتوفيق.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

(*) المشرف العام على موقع المسلم.

(١) قلَّ أن تجد مسلماً إلا أدى الزكاة أو الصدقة ولو مرة في العمر.

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾

كان هـذا هو دعاء إبراهيم - عليه السلام - عندما بنى البيت وسأل ربه أن يجعل هذا البلد آمناً، ففي سورة البقرة وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يرفعان القواعد من البيت، كان من دعائهما ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ثم عقب الله على ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وهل ملة إبراهيم إلا التوحيد الخالص، حيث قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

والمتأمل للآيات الواردة في البيت يلحظ الاقتران والتلازم بين بناء البيت والتوحيد، وكذلك نجد آيات القصد للبيت العتيق تؤكد هذه الحقيقة، فانظر إلى سورة الحج، حيث أمر الله إبراهيم - عليه السلام - بأن يؤذن في الناس بالحج ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧]، ثم عقب ذلك بآية عظيمة فيها الوصية بتعظيم حرمات الله، وأن أعظمها هو التوحيد، حيث لا يليق الشرك بهذا البيت، وما بني لذلك، تأمل قوله سبحانه: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٠ - ٣٢]، فاجتناب الأوثان مقتضاه توحيد الله في عبادته، وأكد ذلك في الآية التي بعدها ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ أي موحدين، بل زاد تأكيداً وبياناً ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾، ولم يكتف بذلك، بل بيَّن عاقبة من يخالف هذا الأصل العظيم وهو التوحيد ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾، ثم عظم ذلك وجلاه بقوله ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾، وأي شعيرة أعظم من التوحيد.

إن هذا البيت والأمن والرزق والحج؛ كله لعبادة الله، وأس ذلك توحيده سبحانه، لذا لما غيَّر كفار العرب في التلبية، وأدخلوا فيها الشرك، كان عقاب الله لهم أليماً وشديداً كما في سورة النحل ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

بل إن التهديد كان واضحاً في سورة الحج ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وصرف العبادة لغير الله مضاد للتوحيد الخالص، تأمل دعاء النبي ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»، وتأمل قول الله سبحانه:

﴿ وَمَا أُمِـرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّيـنَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّـلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِيـنُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وقد فسـر النبي ﷺ كما في حديـث عدي بن حاتم، طاعة المخلوقين بالعبادة.

لذا؛ فعلى الحاج والمعتمر أن يتأمل في هذا المقصد العظيم، وهو تحقيق التوحيد والحذر من صرف أي نوع من العبادة لغير الله، فالرياء شرك أصغر، فكم من حاج حجّ ليقال: الحاج فلان؟

والتعلق بالأحجار والمشـاهد قد يدخل صاحبه في الشـرك فيحبط عمله، ولهـذا كان عمر - رضي الله عنه - يسـتحضر هذا المعنى العظيم وهو يقبّل الحجر الأسـود، فيقول محققاً للتوحيد والمتابعة، وقاطعاً لأي تعلّـق قلبي به (إني أعلم أنـك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك)[1].

إن ما نراه من بعض الحجاج والمعتمرين - أصلحهم الله - من تمسّـح ببعض المشاهد والأحجار مما لم يرد به نص من الشارع، ودعاء وتوسل بالأموات، وألفاظ في بعض المشـاعر؛ كل ذلك يتعارض مع ما شرعه الله من إقامة التوحيد وإخلاص العبادة لله، والحذر من صرف أي نوع من العبادة لغيره.

إن مقتضـى التلبية التي تصاحـب الحاج من أول نسكه إلى رمي جمرة العقبة، وتكرار تلك التلبية؛ يوجب الحـذر من الوقوع فيمـا يضاد هـذه التلبية، ويذكره باسـتصحاب هذا الأصل العظيم في كل مراحل حجه وعمرته؛ لتكون خالصة من الشوائب منسجمة مع آيات الحج وبناء البيـت ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِـيّ أَن نَّعْبُـدَ الأَصْنَامَ ﴾، ﴿ حُنَفَاءَ لِلّهِ غَيْرَ مُشْـرِكِينَ بِهِ ﴾، ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُـوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾.. إن استصحاب هذه الآيات وتدبر معانيهـا، والوقوف عند حدود الله في كل مناسـكنا؛ يجعل عملنا أحرى للقبـول من الله لخلوصه وصفائه، فالله غني عن الشرك مهما صغر في عين صاحبه كما في الحديث القدسي الصحيح: «أنا أغنى الشركاء عن الشـرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

والحديـث عن التوحيـد وآية إبراهيم السـابقة يقودونا للحديث عن آية أخرى متعلقة بها هي من تمام التوحيد الواجب أو المستحب وهي قوله:

(١) متفق عليه، البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الذي يطيل النظر في آيات الحج ويتدبر تلك المعاني والمقاصد التي وردت فيها، لا يخالجه شـك بأن من أبرز مقاصد الحج تحقيق التقوى، حيث جاء الأمر بها والحث عليهـا وربط قبول العمل على تحقيقهـا بصور متنوعة وأساليب متعددة، ما يؤكد منزلتها وأثرها في حياة المسلم عموماً، والحاج خصوصاً.

لنقف مع بعض المواضع والآيات التي ورد فيها الأمر بالتقوى أو الحثّ عليها أو الإشارة إليها:

ففـي آية الأمر بإتمام الحج والعمـرة ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ ﴾ ختـم الله الآية بقوله ﴿ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَـدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقـرة: ١٩٦]، وفي الآية التي بعدها ﴿ الْحَـجُّ أَشْـهُرٌ مَّعْلُومَـاتٌ ﴾ ختمت الآية بقوله سـبحانه ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وَاتَّقُونِ يَـا أُوْلِـي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ثـم ختم آيات الحج في سورة البقرة بقوله: ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].. فتأمل تكرار التقوى في كل آية.

وفي المائدة ختم أحكام الصيد بقوله: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَـرُونَ ﴾ [المائدة: ٩٦]، وافتتح سورة الحج بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١]، ولما بدأ بالحديث عن الحج تكرر ذكر التقوى ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَـعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، ﴿ لَن يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

ومن هنا سنقف أمام هذا التركيز على تحقيق التقوى لنستخرج منه بعض الدروس والعبر، ومنها:

١ - التقوى عمـل قلبي (تظهر آثاره على الجوارح)، ونظراً لكثرة المشـاهد المحسوسة في الحج فقد ينشغل الحاج عن إصلاح باطنه وقلبه بتلك الأعمال والمشـاهد التي لا بد أن يقوم بها حتى يتم نسكه، فجاء التركيز على التقوى ليعلم أن هذه المشـاهد ليست مرادة لذاتها، كما صرح بآية الحج ﴿ لَن يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ [الحـج: ٣٧]. وعندما ذكر التعجل والتأخر في الحج أيام منى ذكر التقوى ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللّـهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَـرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، حيث ينشغل الناس عادة بالاستعداد للرحيل، ما يضعف

عند بعضهم تحقيق التقـــوى ومراعاة هذه المقاصد عند اتخاذ قرار التعجيل أو التأجيل.

٢ – أركان الإســـلام ارتبطت بالتقوى والتزكية، فهي وسيلة لا غاية ﴿ وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْـوَى مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِـن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿ قَدْ أَفْلَـحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِـعُونَ ﴾ [المؤمنـون: ١ – ٢]، ولذلك قال في الحج ﴿ الْحَجُّ أَشْـهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَـرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُـوقَ وَلا جِدَالَ فِـي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّـهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ومن دون التقوى لن تتحقق هذه الأعمال على وجهها الصحيح، فجاء التركيز على التقوى ليتربى المسلم على ذلك في الحج وبعده، تدبر قوله سبحانه: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، وتعظيم شعائر الله ليس خاصاً بالحج والعمرة.

٣ – أخي الحاج.. طالما قرأنا كلمة التقوى في القرآن، حيث وردت مئات المرات، وكذلك في الســـنة، وعلى ألســـنة العلماء والدعاة، فما حقيقة التقوى؟

اختلفـــت عبارات العلماء في بيان معناها[١]، لكن تكاد تتفق على حقيقتها ومآلاتها؟ فهناك من جعل التقوى الوصول لدرجة الإحســـان كما في حديث جبريل: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢]. وقيل: هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقايـــة. وقيل: هي الخوف من الجليـــل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وسأل عمرُ أُبَيّ بن كعب – رضي الله عنهما – عن التقوى، فقال: يا أمير المؤمنين: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟

قال: بلى.

قال أُبَيّ: فماذا صنعت؟

قال عمر: شمرت واجتهدت.

قال أُبَيّ: فذلك التقوى.

فجاء ابن المعتز وترجم هذا المعنى بقوله:

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

***

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

***

لا تحقرنّ صغيرة إن الجبال من الحصى

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص١١٢.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، صحيح البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

والمهم أخي الحاج أن تستشـــعر هـــذه المعاني وأنت تؤدي مناسك حجك وعمرتك، وذلك بمراقبة الله في سرك وعلانيتك:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل

خلـــوت ولـــكـــن قـــل عـــلـــيّ رقـيـب

فـــلا تحســـبن الـــلـــه يـغـفـل ساعة

ولا أن مـــا تخفي عليه يغيب

٤ – هناك من يفهم قول النبي ﷺ: «التقوى ههنا»[٣] ويشير إلى صدره، أن التقوى في القلب فحســـب، ولا علاقة للأعمال الظاهـــرة بها، وهذا فهم خاطئ، فالتقـــوى محلها القلب، لكن ثمرتها في الظاهر والباطن، فإذا لم تتوافق أعمال الظاهر مع الباطن لم تتحقق التقوى وإن زعم صاحبها ذلك.

وعند التأمل في آيات الحج ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُـوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهذه أعمال ظاهرة بيّنة؛ نجده ختمها بقوله ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وسبقها ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ما يؤكد أنه دون التقوى لن يسلم الحاج من الجدل والرفث والفســـوق، بل إن الآية التـــي ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْـرَةَ لِلَّهِ ﴾ تبيّن حكم من اضطـــر إلى الإخلال بهذا الإتمام كالإحصـــار، وحلق الرأس بســـبب الأذى وهو محرم، حيث بيّن جزاء ذلك من الهدي والفديـــة، والبديل لذلك، وحيث إن هذه الأعمـــال الظاهرة لا يمكن تحقيـــق أدائها إلا إذا كان صاحبها مراقباً لله في سره وعلانيته، وختم الآية بالأمر بالتقوى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾، ثم هدد من لم يراعِ جانب التقوى بقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

بل إن التعجل في الحج والتأجل عمل ظاهر، ومع ذلك قيد ذلك بقوله ﴿ لِمَنِ اتَّقَـى ﴾، ثم أمر بالتقوى في ختام هذه الآية ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَـرُونَ ﴾ [البقـرة: ٢٠٣]. ونجد أن نحر الهدي عمل ظاهر بـــارز، ومع ذلك جعل مدار قبول الدماء على تحقق التقوى ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

ولـــو تأملنا فـــي كثير من الآيات التـــي وردت فيها التقوى لاتضـــح لنا أنها تعقب أعمالاً ظاهرة، ما يؤكد التلازم بين عمل الظاهر والباطن، وأي تقصير في أحدهما هو قصور في الآخر.

وبهذا يتضح لنا خطأ فهم كثير من المسلمين عندما تنصحه بمخالفة السنة في هديه الظاهر وتقول له اتقِ الله، فيرد عليك بقوله «التقوى ههنا» ويشـــير إلى قلبـــه؟ لو صدق مع الله لعلم أن تحقق التقوى في القلب كما يزعم يســـتلزم ظهور ذلك على جوارحه كما كان ﷺ الذي أشار إلى صدره[٤].

(٣) كما في حديث مسلم (٢٥٦٤).

(٤) كما في حديث مسلم (٢٥٦٤).

تدافع القيم في التعليم

محمد بن عبدالله الدويش
dweesh@dweesh.com

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله.. أما بعد:

فقد يبيّن لنا النبي ﷺ أن من مقاصد بعثته العظيمة بناء القيم والأخلاق في المجتمع، فيقول: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(١).

ويبيّن ﷺ الارتباط الوثيق بين القيم الخلقية والإيمان باليوم الآخر، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٢).

لذا؛ فقد عُنيت التربية الإسلامية ببناء القيم الفاضلة لدى المتعلم، وأصبحت تتبوّأ مكانة عليا في سلم الأولويات التربوية، ومما يؤكد أهمية الاعتناء بالقيم ما يعانيه الواقع المعاصر اليوم من أزمات حادة يرجعها العديد من التربويين إلى أزمة القيم.

(١) أخرجه أحمد ٨٧٢٩.
(٢) أخرجه البخاري ٦١٣٦، ومسلم ٤٧.

تعريف القيم:

كأي مصطلح من المصطلحات العلمية تختلف التعريفات للقيم باختلاف المعرّفين.

وإضافة إلى ما يتصل بأي مفهوم من عوامل اختلاف تعود إلى طبيعة المعرّفين ومداخل تناولهم، يشير عقل (١٤٢٧هـ) إلى عوامل ثلاثة تتصل بمفهوم القيم أدت إلى مزيد من التباين في تعريفه وتحديده، وتشمل ما يلي:

- **تعدد العلوم التي تناولت موضوع القيم.**
- **تناول هذا الموضوع مدة طويلة في إطار غير منهجي.**
- **التداخل بين هذا المفهوم ومفاهيم أخرى، مثل: الاتجاهات، والميول، والمعتقدات.**

ويصفه أحد الباحثين بأنه موضوع هلامي الملامح، عالي التجريد، يخضع للعوامل الذاتية (فهمي ١٩٨٨م).

ورغم الاختلاف الواسع في تعريف القيم، فإن الفلسفات - كما يرى الشعوان ١٤١٧هـ - تتفق على أن القيم عبارة عن المعايير التي تُوجِّه سلوك الفرد لما هو مرغوب في مجتمعه.

ويمكن أن نخلص من تعريفات القيم إلى عدد من خصائص القيم، وتتمثل فيما يلي:

- **عبارة عن معايير وموجِّهات.**
- **تُوجِّه الفرد في أحكامه على الأعمال والممارسات.**
- **تؤثر تأثيراً واضحاً في سلوك الفرد وحياته.**
- **تحدّد للفرد السلوك المقبول وغير المقبول.**
- **تتسم بقدر من الثبات والاستقرار.**
- **يتعلمها الفرد من خلال عدد من المواقف المختلفة.**

والنظرة للقيم تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن اتجاه إلى آخر، لذا سنجد تبايناً بين هذه القوى في رؤيتها للقيم، وسعياً من كل قوة لترسيخ رؤيتها.

ويمكن أن نعرّف تدافع القيم بأنه: التفاعل الثقافي بين القوى المؤثرة في تشكيل القيم، وسعي كل قوة إلى أن تأخذ موقعاً مؤثراً، وتستثمر جوانب اتفاقها واشتراكها مع الآخرين في تعزيز ما تؤمن به من قيم.

مجالات التدافع القيمي في التعليم:

يمثل التعليم أحد المجالات المهمة في ترسيخ القيم؛ فهو يتعامل مع الناشئة في مراحل تشكل شخصياتهم وتكوّنها، لذا أصبح محط اهتمام كل من يسعى لترسيخ قيمه في المجتمع، وأصبحت القوى المتصارعة والمتدافعة ترى أنه ميدان سباق وتنافس لتحقيق رؤيتها للقيم.

ويمكن أن نصنف مجالات التدافع القيمي في التعليم إلى المجالات التالية:

المجال الأول: القوانين والأنظمة:

يعدُّ المدخل التشريعي المتمثل في الدساتير والقوانين والأنظمة، من أهم مفاتيح ومداخل التغيير في المجتمعات، وهو من مجالات الصراع بين حملة الأفكار والتوجهات المختلفة.

لذا؛ فقد سعت القوى الخارجية إلى استخدام هذا المدخل أداةً لحرب القيم الإسلامية، وتسويق القيم الغربية، ونصت عدد من الاتفاقيات الدولية على التغيير في التشريعات المحلية بما يتسق مع منظومة القيم الغربية.

وبالرجوع إلى الدساتير والأنظمة في الدول العربية نجد حضوراً للقيم، وتأكيداً على صلتها بالتعليم، وأنها أحد أهدافه وغاياته.

ودراسة واقع القيم في التنظيمات والقوانين التعليمية في الدول العربية، أوسع من أن تستوعبها مثل هذه الورقة الموجزة.

وفيما يلي نشير إشارات موجزة إلى حضور القيم في بعض أنظمة الدول العربية وقوانينها.

أ - المملكة العربية السعودية:

حدّدت المادة الثالثة عشرة من النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية، غاية التعليم، وتضمّنت ما يلي: «يهدف التعليم إلى غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء، وإكسابهم المعارف والمهارات، وتهيئتهم ليكونوا أعضاء نافعين في بناء مجتمعهم، محبين لوطنهم، معتزين بتاريخه» (النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية ١٤١٢هـ).

ونصت الوثيقة على أن: «غاية التعليم فهم الإسلام فهماً صحيحاً متكاملاً، وغرس العقيدة الإسلامية ونشرها، وتزويد الطالب بالقيم والتعاليم الإسلامية وبالمثل العليا، وإكسابه المعارف والمهارات المختلفة، وتنمية الاتجاهات السلوكية البنّاءة، وتطوير المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وتهيئة الفرد ليكون عضواً نافعاً في بناء مجتمعه» (ص١٠).

ب - المملكة الأردنية:

تضمّـــن قانون التعليم الأردني التأكيـــد على أهمية القيم، وحضورها في التعليم، فتضمّنت المـــادة الثالثة من القانون ما يلي: «تنبثق فلســـفة التربية في المملكة من الدســـتور الأردني والحضارة العربية الإســـلامية ومبادئ الثـــورة العربية الكبرى والتجربة الوطنية الأردنية، وتتمثل هذه الفلســـفة في الأسس التالية:

أ - الأسس الفكرية:

١ - الإيمان بالله تعالى.

٢ - الإيمان بالمثل العليا للأمة العربية.

٣ - الإسلام نظام فكري سلوكي يحترم الإنسان ويعلي من مكانة العقل ويحض على العلم والعمل والخلق.

٤ - الإســـلام نظام قيمـــي متكامل يوفر القيـــم والمبادئ الصالحة التي تشكّل ضمير الفرد والجماعة.

٥ - العلاقة بين الإسلام والعروبة علاقة عضوية».

كما نصت المادة الرابعة من القانون نفســـه على الأهداف العامة للتعليم، وفيها: «تنبثق الأهداف العامة للتربية في المملكة من فلسفة التربية، وتتمثل في تكوين المواطن المؤمن بالله تعالى المنتمي لوطنه وأمته، المتحلي بالفضائل والكمالات الإنســـانية، النامي فـــي مختلف جوانب الشـــخصية الجســـمية والعقلية والروحية والوجدانية والاجتماعية».

كما نص قانـــون التعليم العالي والبحـــث العلمي الأردني في مادته الثالثـــة على أن ضمن أهداف التعلم العالي: «تعميق العقيدة الإسلامية وقيمها الروحية والأخلاقية وتعزيز الانتماء الوطني والقومي».

ج - المملكة المغربية:

اعتنى الميثاق الوطنـــي للتربية والتكوين في المغرب بالقيم، فجاء ضمن المرتكزات الثابتة:

«١ - يهتدي نظام التربية والتكوين للمملكة المغربية بمبادئ العقيدة الإســـلامية وقيمها الرامية لتكويـــن المواطن المتصف بالاســـتقامة والصلاح، المتســـم بالاعتدال والتسامح، الشغوف بطلب العلم والمعرفـــة في أرحب آفاقهمـــا، والمتوقد للاطلاع والإبـــداع، والمطبوع بـــروح المبادرة الإيجابيـــة والإنتاج النافع» (الميثاق الوطني للتربية والتكوين).

واســـتعراض القوانين والأنظمة في الدول العربية يتطلب جهداً كبيراً لا يمكن استيعابه في هذه الورقة.

والخلاصة: أن القيم حاضرة في القوانين والأنظمة العربية، في أهداف التعليم وغاياته وعملياته، وأن هذا الحضور يتفاوت ويختلف من دولة إلى أخرى، ومن مرحلة إلى أخرى في الدولة الواحدة.

وتدرك الأطـــراف الأخرى أثر هذا الحضور وانعكاســـه على عناصر التعليم كافة من منهج ومعلم ونظم تفصيلية ومناهج... إلخ.

لذا؛ ســـعت تلك الأطراف إلـــى نقل الصـــراع إلى دائرة التشريعات والأنظمة، واتخذت لغة لا تسلم من الحدة والتطرف في الهجوم عليها ونقدها.

وأكتفي هنا بمثال واحد لكاتب ســـعودي يهاجم فيه سياسة التعليم في السعودية، فيقول:

«ويبـــيّن هذا أن هذه الوثيقة من أهم العوامل التي أدت إلى نشوء الظواهر التي نشـــكو منها الآن، وأن المشكلات الخطيرة التي نعاني منها ليســـت مستوردة، بل الغريب ألا تحدث. فهذه الوثيقة ملأى بالنصوص المنسوخة من الأدبيات الحزبية لبعض الجماعات «الإســـلامية» التي وجدت في المملكة ملاذاً لها منذ خمسين ســـنة.. ومن أبرز ما فيها أنها تشرِّع لتحويل مجتمعنا المســـلم إلى «مجتمع إســـلامي» بما يعنيه هـــذا المصطلح من إيديولوجيا حزبية معروفة، وتشـــرع للتمييز بين المواطنين إلى «إســـلاميين» وغيرهم، وتشـــيع بعض المصطلحات المستحدثة مثل: «الفكر الإسلامي».. وإذا كنا نعاني الآن ممن يطلقون على أنفسهم مصطلح «الجهاديين»، فإن تلك الوثيقة قد أسهمت في رواج هذا المصطلح. فقد جعلت من أهداف التعليم في المملكة: «إيقـــاظ روح الجهاد الإســـلامي لمقاومة أعدائنا، واســـترداد حقوقنا، واســـتعادة أمجادنا، والقيام بواجب رســـالة الإسلام» (الفقرة ٦٠).

أمـــا الغاية من تدريـــس العلوم فقد دُفنـــت في طيات كمّ هائل من الخطابة التي تبيِّن فضل المســـلمين على العلوم، وأن القصد من دراسة العلوم هو التأمل في عظيم خلق الله و«بيان الانسجام التام بين العلم والدين في شريعة الإسلام».

وهناك كثير مما يمكن أن يضاف هنا عن الحشد والتجييش في هذه الوثيقة. وأنا لســـت ضد هذه الأهـــداف بذاتها، لكن الطريقـــة التي صيغت بها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تحويل هذه الوثيقة إلى برنامج إيديولوجي حزبي.

وخطورة هـــذه الوثيقة أنها تشـــرِّع للتعليـــم وتوجّه عمل المعلمـــين وتحكم تأليف المناهج. وهي بالحـــال التي هي عليها تفتح الباب واسعاً لأن يقولبها ذوو الميول الإيديولوجية ويؤولونها كما يشاؤون»[1].

(١) أ. هـ (جريدة الوطن ١٧ شوال ١٤٢٤هـ العدد ١١٦٨).

ولما تمثله الأنظمة والقوانين من تأثير مركزي في التعليم، فإنها تستحق من الغيورين على قيم الأمة أن يبذلوا جهداً فاعلاً فيما يتصل بها، ومن معالم هذا الجهد ما يلي:

١ - الوعي الجيد بواقع هذه الأنظمة، وإشاعة الجوانب الإيجابية فيها؛ فالجهل بها مما يسهل عمليات التغيير.

٢ - توظيف الجوانب الإيجابية فيها، واستثمارها في مجال المناهج وبيئة التعليم وأنظمته التفصيلية.

٣ - تطوير الأنظمة والقوانين، وتقديم بدائل جيدة وإيجابية؛ فإن مرور الوقت وطوله أحد مبررات المطالبة بالتغيير، وما لم يملك الغيورون على القيم بدائل ملائمة فسيكون التغيير بيد القوى الأخرى.

المجال الثاني: فلسفة التعليم وغاياته:

تدعو الاتجاهات التغريبية في عالمنا الإسلامي إلى عَلمنة التعليم، وتفريغ محتواه، وأن فلسفته وغاياته يجب أن تتمحور حول إعداد الفرد للحياة الدنيوية، وحول النهضة الحضارية المادية، ومن ثم فلا مجال لديهم في أن تحوي غايات التعليم وفلسفته جانباً قيمياً رسالياً.

ويوضح الكيلاني (٢٠٠٨م) أثر العولمة في نشر القيم الغربية في التعليم، فيقول: «المناهج التي يجري تنظيمها من الإدارة التربوية للعولمة لا تمدّ الدارسين بالمعارف والمهارات والاتجاهات التي ترتقي بالإنسان وتؤهله للمشاركة في صنع مستقبله، وهي تتجاهل العلوم التي تعرّف الدارسين بهوية الإنسان وحقوقه التي أقرّتها وجاءت بها الشرائع السماوية والفلسفات الإنسانية، وتتجاهل الأعمال والمؤلفات الرفيعة، وتقلل من قيمة علمائها والمختصين بها، وتقوم الآن بصياغة هذه العلوم على أسس اقتصادية نابعة من نظريات رأس المال البشري»[1].

المجال الثالث: المناهج:

تمثل المناهج ترجمة لرؤية التعليم وفلسفته، وتتجلى فيها غايات التعليم وأهدافه، وفيها يتلقى المتعلم المعرفة والاتجاهات والمهارات التي تبني شخصيته وتشكّلها.

وباعتبار المناهج تمثل المخرج النهائي لفلسفة التعليم ومعبّرة عنه، أصبحت من أكثر مجالات الصراع والتدافع، ومتابعةُ ما يكتب حولها وما يثار من القوى الداخلية والخارجية من أكبر المؤشرات على عمق التدافع والصراع في هذا المجال.

(١) الكيلاني ٢٠٠٨م، ص ١٥٠.

المجال الرابع: المعلم:

المعلم هو من يتعامل مع الطالب وهو من يُتوقع منه أن يسهم في تعزيز القيم وبناء شخصية الطالب.

والمتأمل في الواقع التربوي يرى أن هناك قصوراً واضحاً في أداء المعلمين في غرس القيم وتنميتها، فقد توصّلت سماح حسن (٢٠١٠م) في دراسة حول تفعيل بعض القيم التربوية لدى طفل الروضة في مصر؛ إلى أن المعلمات تنشغل في إعداد الخطط الأسبوعية والشهرية والسنوية والسجلات أكثر من اهتمامها بتفعيل القيم التربوية في الروضة ولدى الطفل.

ويشتكي أسيداه من وضع المعلم في المغرب فيقول عن المدرسة المغربية إنها: «تعيش وضعاً مضاداً لرسالتها ومهمتها ووظيفتها، بدءاً من غياب النموذج بسبب فقدان رجل التعليم وضعه الاعتباري ومنزلته القيمية في المجتمع (يعبّر عن ذلك مجتمعياً ما يتداول من نكت حول شريحة من رجال التعليم)؛ فيتلازم مع ضعف التقدير المعنوي يقف المجتمع موقف تبخيس فعل المدرس ونزع الثقة منه وتحميله مسؤولية أوضاع شريحة من المتخرجين في مجتمع ينحو نحو الأمية وإن كان يسعى في محوها».

وقد سعى عدد من القيادات العَلمانية في العالم العربي إلى الضرب على وتر المعلم، وتوظيف هذا الجانب في نشر القيم العَلمانية والحماية من اختراقها - كما يرون -، ففي سورية بدأت وزارة التربية السورية بإبعاد نحو ١٢٠٠ معلّمة من السلك التربوي؛ بسبب ارتدائهن النقاب، في خطوة وصفها وزير التربية السوري «علي سعد» بـ «الحفاظ على هوية العمل العلماني المنهج».

وبحسب ما نقلته الصحيفة فإن الوزير أكد أن عدداً من الوزارات ستقوم بخطوات مماثلة، مضيفاً قوله: «إن العملية التعليمية تسير نحو العمل العلماني المنهج والموضوعي، وهذا الأمر لا يتوافق مع متطلبات الواقع التربوي؛ لتتكامل الإيماءات والحركات وتعابير الوجه وإيصال المعلومة للطلبة».

قوى التدافع:

التدافع بين الحق والباطل سنة ربانية، وعلى مدى التاريخ كان هذا الصراع قائماً بين دعاة الفضيلة ومن يضيقون بها ذرعاً ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد أدت العولمة إلى ارتفاع وتيرة التدافع، وزيادة حدته؛ فقد أزالت الحواجز والجسور، واستثمرها الغرب والمبشرون بحاضرته وثقافته في نشر القيم الغربية والترويج لها.

ويعبّر الكيلاني عن دور العولمة في إعادة بناء معايير الحكم على الناس وتفاضلهم، فيقول: «فالمجتمع المقبول في الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي، هو المجتمع الذي تنظمه الشهادات والوثائق، والتفاوت في التعليم والتدريب يقرّر المكانة الاجتماعية والدخل المادي؛ فأكرم الناس في مجتمعات العولمة ليس أتقاهم، وإنما أعلاهم شهادة، وأعلاهم دخلاً مادياً»[1].

ويمكن أن نشير فيما يلي إلى أبرز قوى التدافع:

أ - الحكومات الغربية:

بعد سقوط الشيوعية وتفرّد الغرب بالقوة والقرار، زاد نفوذ الحكومات الغربية، ونما تغولها، واستشرت في التبشير بقيمها، ونشرها، ووظفت المال والمساعدات، وأحياناً الضغوط؛ لفرض التغيير القيمي من وجهة نظرها، متجاهلة أهم قيمها التي تدعو إليها، ألا وهي الحرية والعلمانية.

فقد طلب الرئيس جورج دبليو بوش تخصيص ١٤٥ مليون دولار في ميزانية ٢٠٠٤م لتحويل التعليم في المدارس الإسلامية في العالم العربي إلى تعليم عَلماني.

ويأتي هذا التمويل في إطار ما يسمى مبادرة الشراكة الشرق الأوسطية التي تدعو أمريكا فيها إلى تحديث العالم الإسلامي ونشر الديمقراطية. ويقول تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية: «إن أحد أهداف المبادرة هو تشجيع التحسينات في التعليم العلماني عبر أنحاء العالم العربي، كما أن مسودة استراتيجيات المبادرة قد سجلت قلقاً متزايداً حيال التزايد في أعداد المنضمين للمدارس الدينية»، خصوصاً في دول مثل: إندونيسيا، والبوسنة، وبنجلاديش.

وانتقد وزير الدفاع الأمريكي رونالد رمسفلد المدارس الإسلامية بشدة، وقال: إن على أمريكا تشجيع نظام تعليمي غير متشدد في العالم الإسلامي، وهو ما كرره نائبه بول وولفويتز في الأسبوع نفسه.

ويمدح التقرير دولة قطر لقرارها تغيير مناهجها وبرامج تعليمها الابتدائية والإعدادية لتشمل أجزاء أقل من الدراسات الدينية وأقل من اللغة العربية، مع التركيز على العلوم الحديثة، وذلك بالتعاون مع مؤسسة راند الأمريكية المحافظة (موقع باب).

وفي الأردن تمت الموافقة على إدخال تعديلات على مناهج التعليم من ٩٠ صفحة تطول كل المفاهيم التي ارتأت أمريكا إلى أن لها علاقة بنبذ العنف تدخل ضمن خمسة مساقات، هي: اللغتان العربية والإنجليزية، والتربية الوطنية، والتربية الإسلامية، والتاريخ؛ باعتبار أن هذه المناهج تحض على كراهية الغرب ونشر ثقافة العنف، وفقاً للرؤية الأمريكية[2].

وجاء في تصريح لباول: «لكن إذا أرادت دول أن تكون لها علاقات حسنة معنا، فعليها أن تعرف أنه مهما كانت الطروحات الدينية التي تدرّسها لأبنائها في مدارسها العامة، فإننا ننتظر منها أن تلقن الطريقة السلمية التي تحقق بها تلك الطروحات. وعلى كل سفراء أمريكا أن يحققوا هذا الجزء من القضية، لأنه إذا لم يكن التسامح عالمياً فإن التعايش مستحيل».

وقد دعا كلينتون – في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي بجدة – الدول الإسلامية إلى تغيير مناهجها المدرسية لمنع ترسيخ العقائد في النظام التربوي.

ب - المنظمات الدولية:

يفترض في المنظمات الدولية أن تكون أكثر حيادية، وأن تسعى إلى خدمة الآخرين، معترفة بخصوصياتهم ومقدّرة للتنوع الفكري، إلا أن الواقع يختلف عن ذلك، فثمة تدخلات من هذه المنظمات في شؤون المجتمعات الأخرى وخصوصياتها.

نصّ إطار عمل لتعليم القيم في مرحلة الطفولة المبكرة الذي نظمته اليونسكو وشاركت فيه وزارة الصحة الإسرائيلية ورابطة القيم الحية في إسرائيل، وبعض المنظمات والمؤسسات الغربية؛ على: أهمية إحاطة الطفل منذ نعومة أظفاره بمناخ تسوده القيم الإنسانية الأساسية.

وفي عام ١٩٧٩م أنشئ ما يسمى «منظمة الإسلام والغرب»، تحت رعاية اليونسكو، وكان من أول أهداف هذه المنظمة، كما نص دستورها، «عَلمنة التعليم»، حيث جاء فيه: «إن واضعي الكتب المدرسية لا ينبغي لهم أن يصدروا أحكاماً على القيم، سواء صراحة أو ضمناً، كما لا يصح أن يقدموا الدين على أنه معيار أو هدف»[3].

(١) الكيلاني ٢٠٠٨م، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) http://www.assabeel.net/studies-and-essays/assabeel-essayists/279258-55-13-28-04-2010-html.

(٣) http://www.assabeel.net/studies-and-essays/assabeel-essayists/279258-55-13-28-04-2010-html.

الحكومات العربية:

تتفاوت مواقف الحكومات العربية في موقعها من معركة تدافع القيم، ويزداد هذا التفاوت من دولة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر داخل الدولة الواحدة، باعتبار أن الحكومات العربية في معظمها حكومات أفراد لا مؤسسات.

ويصعب تحديد هذه القوة في إطار واحد، وفهم مواقفها من خلال أداة واحدة، ويمكن تحديد المؤثرات على مواقفها وأدوارها فيما يلي:

- الخلفية الفكرية للقيادات السياسية؛ فعالمنا العربي دول أفراد لا مؤسسات - كما سبق -.
- الضغط الدولي الموجه لهذه الحكومات، ودرجة استجابتها له أو مناورتها؛ فمن أبرز أجندة القوى الدولية تغيير القيم الإسلامية، وتسويق القيم الغربية.
- حجم القوى المحلية المؤثرة والضاغطة على الحكومات، وطبيعة سياسة هذه الحكومات في إدارة الصراع والتوازنات بين القوى المحلية.

ومن المهم الوعي بدوافع القيادات السياسية؛ فالخطأ في التصنيف سيقود إلى ممارسات غير صائبة؛ فحين نفترض - على سبيل المثال - في السياسي الذي يتصرف بدافع إدارة صراع بين النخب المحلية أنه ينطلق من دافع فكري، فسنستخدم أدوات لا تلائم الموقف.. وهكذا.

القوى الإسلامية:

تمثل القوى الإسلامية القوة الأبرز في الحفاظ على قيم الإسلام، وفي مدافعة الباطل ومواجهة تغريب قيم الأمة؛ في مجال التعليم وغيره من المجالات.

ولئن كانت القوى الإسلامية تجمعها وحدة الهدف واتفاق الدافع، إلا أنها ليست على نسق واحد؛ فثمة اختلافات واسعة بين هذه القوى، وهذه الاختلافات لها أثرها في الدور المتوقع منها.

تختلف هذه القوى في تأثيرها وحجمها، وفي حضورها في الميدان التعليمي والتربوي - باعتباره موضع الحديث -، وتختلف في أولوياتها وموقع القيم ضمن دائرة اهتمامها، وتختلف في أدواتها ومنهجياتها في التدافع القيمي، سواء في العمل الإيجابي أو مواجهة تيار التغريب القيمي.

ويمكن تصنيف هذه القوى في مجموعات ثلاث:

الأولى: العلماء وطلبة العلم والوعاظ ونحوهم، ودور هؤلاء في الأغلب يتركز في بيان الحق، والاحتساب على الانحراف في هذا الميدان، ويمتازون بوجود قاعدة من الأتباع والتلاميذ، كما أن لعدد منهم تأثيراً حين يقفون مواقف قوية.

الثانية: المؤسسات العلمية والجمعيات، وتسهم هذه المؤسسات في بيان الموقف الشرعي، والرد على الانحرافات، وتكتسب مواقفها قوة فكرية وعلمية باعتبارها تمثل مؤسسات لا أفراداً.

الثالثة: الحركات الإسلامية، وتمتاز بانتشار قواعدها في الميدان التربوي، وقدرتها على حشد القواعد وتفعيلها في مشروعاتها الدعوية.

وقد كان للقوى الإسلامية مواقف محمودة في مجال التدافع القيمي، وترسيخ الهوية في التعليم في بلاد المسلمين، ومواجهة اختراق القيم من قبل القوى الأجنبية.

موقعنا في المدافعة:

إن الحديث عن المدافعة وواقعها لا قيمة له ما لم يقد إلى تحسين أدائنا والارتقاء بدورنا في هذه المدافعة، وفيما يلي مقاربات حول موقعنا في ساحة المدافعة:

١ - المدافعة سنة ربانية:

المدافعة بين الحق والباطل سنّة من سنن الله في الخلق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وسيبقى هذا التدافع ما بقي الحق والباطل على وجه الأرض.

والوعي بهذه السنة يقتضي منا أن نكون واقعيين، وألا نطمح إلى إلغاء المدافعة والقضاء عليها، أو أن نتصور أننا سنكون يوماً ما وحدنا في الميدان، إنما المطلوب منا إقامة الحجة، وتجلية الحقيقة، والإسهام في ترسيخ القيم الشرعية وتعزيز موقعها ووجودها.

٢ - بذل الجهد والحراك الفاعل:

كثير هم الذين لا يرضيهم الواقع السيئ، وكثير هم الذين يتفاعلون مع الحديث الإيجابي عن القيم والتدافع القيمي، لكن هذه المشاعر لا تكفي وحدها، والتدافع والصراع القيمي يتطلب تفاعلاً أكبر، وجهداً يتناسب مع حجم الصراع، ومع ضخامة أدوات اختراق قيم الأمة وحضارتها ودينها، ويتناسب مع خطورة هذا التدافع وأثره في تغيير هوية الأمة.

٣ - الاعتناء بالطرح الإيجابي:

إن أكثر ما يثير قلق الغيورين على المجتمعات، ويشعرهم بالتحدي؛ هو رؤية الواقع السيئ المتمثل في الخلل والتجاوزات في المجال القيمي.

والواقع اليوم في مجتمعات المسلمين مليء بالصور التي تستفز كل مصلح وغيور، وهذا الواقع يترك أثره في الخطاب الإصلاحي الدعوي لبعض الغيورين والمصلحين؛ فيركز خطابهم على نقد الواقع السيئ، وعلى الحديث عن الانحراف والخلل.

ومما لا شك فيه أن إنكار المنكر فريضة شرعية، وأن نقد الواقع المنحرف مطلب إصلاحي مهم، لكن هذا ينبغي أن يتوازى مع الطرح الإيجابي الذي يستهدف بناء القيم الإيجابية وتعزيزها.

ويدعو ملكاوي وعودة إلى «تحويل جذري في طبيعة الاهتمام بالبُعد القيمي والأخلاقي من الاتجاه السلبي الذي يركز على معالجة المخالفات عند وقوعها، إلى اتجاه إيجابي يركز على تعليم القيم بطريقة تمنع وقوعها».

والقيم بطبيعتها ذات اتجاهين متقابلين؛ فيمكن للداعية أن ينتقد قيم التفسخ والانحلال السلوكي، ويمكنه بدلاً من ذلك أن يدعو إلى ترسيخ قيم العفة والمحافظة، هكذا في سائر القيم.

٤ - مراجعة الواقع في ضوء المرجعية الشرعية لا الإملاءات:

واقع المجتمعات الإسلامية اليوم ليس بالضرورة ممثلاً للواقع الشرعي؛ فثمة ثغرات ومواطن خلل عديدة، فهناك اختلال على المستوى النظري والمعرفي يتمثل في وجود مناطق التباس وإشكالات وتداخل بين الواقع الاجتماعي والشرعي، وهناك اختلال على المستوى العملي والتطبيقي.

وهذا الواقع يتطلب مراجعة وتقويماً، ويتطلب تجلية بما يميز بين الواقع الشرعي والاجتماعي.

وكثيراً ما يستغل الآخرون هذا الأمر في الطعن في مرجعية القيم الشرعية والنظر إليها على أنها مجرد عادات اجتماعية، ومن ثم يجب السعي إلى تحرير الموقف الشرعي وتجليته للناس، وإبراز مرجعية الشريعة في ميدان القيم والأخلاق، وتأكيد هيمنتها على واقع الحياة.

ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من مراجعة واقعنا، بل هو مطلوب، لكن مع مراعاة أمرين مهمين: أولهما الدافع للمراجعة بحيث يكون الإصلاح والتسديد. وثانيهما مرجعيتها بحيث تكون الشريعة لا المعايير المستوردة.

ويؤكد الصمدي هذا المعنى فيقول: «وفرق بين أن تمارس هذه البلدان نقداً ذاتياً تحاول من خلاله إعادة النظر في منظومة التربية والتعليم بالاستناد إلى منظومة القيم التي تؤمن بها؛ وبين أن تكون تحت ضغوط سياسية واقتصادية تدفعها إلى إعادة النظر في منظومة القيم ذاتها، وتحاول أن تقنع نفسها ومحيطها بضرورة إعادة صياغة سؤال القيم، فتقول: ما هي القيم التي ينبغي أن تحكم نظامنا التربوي؟ ومن ثَمَّ ما هي القيم التي ينبغي أن تحكم المجتمع؟»[1].

٥ - الارتقاء بأداء المعلمين والمعلمات:

مع أهمية المنهج المدرسي وخطورة تأثيره، يبقى للمعلمين والمعلمات أثر قد يؤدي إلى تهميش تأثير المنهج أو تطوير أثره، والمعلمون هم قناة التواصل مع الطلاب، وأداة ترجمة القيم إلى واقع عملي، ومن هنا لا بد من الاعتناء بدور المعلمين والمعلمات والارتقاء بأدائهم، وبخاصة أننا نملك في مدارسنا فئة غير قليلة من المعلمين والمعلمات يحملون الغيرة على مجتمعات المسلمين ولديهم الرغبة في الإسهام والإصلاح.

ومما يتطلبه ذلك ما يلي:

- تفعيل دور المعلمين بتخصصاتهم كافة؛ فالقيم الإسلامية حاكمة لسلوك الجميع، وليست قاصرة على معلمي العلوم الشرعية، وإن كان الواجب في حقهم آكد وأولى، «فلكي تترسخ القيم في نفس المتعلم، يحتاج إلى أن يتردد ذكرها على مسامعه،

(١) http://www.almostshar.com/web/SubjectDesc.php?SubjectId=803&CatSubjectId=36&CatId=3.

وتتوارد معانيها على قلبه وفكره، ويتكرر إحساسه بها في وجدانه، بل تتعدد مناسبات ممارستها انطلاقاً من الفصل باتجاه الحياة، داخل الأسرة والمجتمع، في جل المواد الدراسية وموضوعاتها المختلفة، إذا لم يمكن تحقيق ذلك في جميعها» (الأحمر ٢٠٠٥م).

تعزيز القدوة الحسنة لدى المعلمين، والارتقاء بتدينهم والتزامهم القيمي؛ فالقيم ليست مجرد معرفة، والتأثير الأبلغ فيها إنما هو في النموذج والقدوة، وحين يحصل الاختلال القيمي في سلوك المعلمين فسنتوقع أثراً سلبياً على واقع المتعلمين، وشعوراً بأن ما يقوله هؤلاء إنما هو لأداء المهنة فحسب، أو لأجل لقمة العيش، ونعيد هنا ما نقلناه عن وزير التربية السوري من قوله: «إن العملية التعليمية تسير نحو العمل العلماني المنهج والموضوعي، وهذا الأمر لا يتوافق مع متطلبات الواقع التربوي؛ لتتكامل الإيماءات والحركات وتعابير الوجه وإيصال المعلومة للطلبة».

الارتقاء بخبراتهم وأدائهم، وتنمية مهاراتهم في التأثير؛ فتعقّد الواقع وتزايد المؤثرات السلبية، يزيد من تعقّد فرص التأثير والتغيير، ويتطلب مستوى أعلى من الأداء، والمعلم والمعلمة الذين ننتظرهم ليسوا هم أولئك الذين يملكون العاطفة فحسب، أو يكثرون الحديث والوعظ، فكل ذلك مع أهميته وضرورته ليس إلا جزءاً مما ينبغي أن نتطلع إليه، ومع إيماننا بخطورة دور المعلم وأهميته، إلا أن كثيراً من حديثنا لهم يقف عند مجرد التذكير بأهمية دورهم، وضرورة شعورهم بالمسؤولية، لذا فقد أوصت الندوة الدولية المنعقدة في تطوان بعنوان: القيم الإسلامية ومناهج التربية والتعليم (٢٠٠٥م)، بالرفع من كفاءة المدرسين لتنفيذ المناهج الدراسية المتضمنة للقيم الإسلامية من خلال تطوير قدراتهم على إبداع الطرق والوسائل والأنشطة التعليمية المعززة للقيم الإسلامية لدى المتعلمين.

٦ - التعاون وتنسيق الجهود:

تتنوّع القوى الإسلامية في تعاملها مع التدافع القيمي، وتختلف قوتها وحجم تأثيرها، وهذا التنوع أصبح في كثير من الحالات ميدان صراع واختلاف أكثر منه ميدان تنسيق وتعاون، ومما يتطلبه الأمر في ذلك ما يلي:

تفهم الخلاف، وحُسن التعامل معه؛ فالجوانب العملية في ميدان القيم تكثر فيها مسائل الخلاف، ما يتطلب تفهم هذا الخلاف، والتعامل معه بمنهجية شرعية، والحذر من تحوله إلى صراع وتناحر.

توزيع الأدوار وتركيز كل قوة على المجال الذي تحسنه، وترك ما لا تحسنه لمن هو أولى.

تنسيق الجهود؛ فتفهّم الخلاف وتوزيع الأدوار لا يكفي، فحين تريد قوة إسلامية إحياء مشروع قيمي فلا غنى لها عن التعاون مع القوى الأخرى.

الخاتمة:

التدافع - كما سبق - سنة كونية، وامتلاك الدعاة المنهج الرباني، واستنادهم إلى مرجعية الوحي؛ لا يعفيهم من بذل الجهد في ميدان التدافع، والجهد المأمول منهم ليس مجرد الجهد البدني، بل الأمر يتطلب التفكير الجاد والواعي في آلية إدارة التدافع، ويتطلب دراسة الواقع، ودراسة أدائهم، واستشراف المستقبل؛ كل ذلك يسهم في تحسين الأداء وملاءمته مع حجم التحدي.

ومع ذلك وقبله وبعده لا بد من الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، واستحضار الإخلاص له عز وجل، وطلب المدد والتوفيق منه وحده.

نسأل الله أن يهيئ لأمة الإسلام أمراً رشداً، وأن يوفق الدعاة إلى دينه، ويسددهم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع:

- الأحمر، عبدالسلام (٢٠٠٥م). آليات إدماج القيم في منهاج التعليم. مداخلة في ندوة: القيم الإسلامية ومناهج التربية والتعليم من ٢١ إلى ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٥م.
- أسيداه، محمد. المدرسة والمجتمع وأزمة القيم.
- الصمدي، خالد. مستقبل التربية على القيم في ظل التحولات العالمية المعاصرة.
- سفيان، بوعطيط. واقع القيم الشخصية لدى الأستاذ الجامعي الجزائري. عن دراسة ميدانية على عيّنة بجامعات ثلاث بالشرق الجزائري. قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا. كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥ - سكيكدة.
- عودة، أحمد سليمان. وملكاوي، فتحي. موقع القيم في التعليم الجامعي.

سؤال السيادة.. والإجابات المتعثِّرة

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@gmail.com
@alajlan_f

عرضنا في مقالة: (سؤال السيادة في الفكر الإسلامي المعاصر) لاتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في الجواب عن سؤال السيادة، وتبيّن من خلالها أن ثم رؤية واضحة في إجابة هذا السؤال لدى عامة الباحثين في الفكر الإسلامي المعاصر، مضمون هذا الجواب أن (السيادة للشرع والسلطان للأمة)، فسيادة الأمة سيادة تنفيذ لأحكام الشريعة ولها صلاحية اختيار من يحكمها ومراقبته، ولا يجوز اغتصاب هذا الحق منها بلا رضا ومشورة منها، وهو معنى تتفق عليه جميع الاتجاهات وإن اختلفت في اختيار الصياغة المناسبة.

هذا الوضوح لدى عامة الباحثين يقابله حالة من التناقض والارتباك أحدثه (سؤال السيادة) مع عددٍ من الإسلاميين لم يتمكنوا من الجزم بوضوح بأن سيادة الأمة لا يمكن أن تتجاوز سيادة الشريعة، وأن صلاحيات الأمة مفتوحة الفضاء ما لم تخالف الشريعة، بل جعلوا لهذه السيادة مشروعية وقبولاً ولو رفضت الشريعة وتجاوزتها.

فيقرّر أحدهم أن الشريعة ليست قيداً على السيادة، وإنما هي محل للسيادة!

فـ (لا تمثل الشريعة الإسلامية قيداً على سيادة الأمة، وإنما هي محل لإعمال هذه السيادة أفاء بها الله لمخلوقاته، فسيادة الأمة مطلقة مستنيرة لا قيود عليها)[1].

وشرعية القوانين إنما تحدّد بحسب قناعات الناس لا بحسب اعتبار الشريعة لها:

فـ (شرعية الأحكام والقوانين لا تتوقف على اعتقاد فئة من الناس اتفاقها مع مبادئ الحق أو مخالفتها له، بل تتوقف على قدرة هذه الفئة على إقناع الجمهور بمصداقية رأيها وفاعلية اجتهادها)[2].

فالأمر بالمعروف بالإلزام يكون بحسب ما هو معروف ومتّبع لدى الأمة، وليس بحسب ما هو معروف في الشريعة:

(الائتمار بين الناس ينحصر فقط فيما أصبح معروفاً بينهم عرفاً متّبعاً عندهم، أما ما خرج عن العرف من الحق والخير فتتحدّد مسؤولية الأمة في الدعوة إليه وتبليغه إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة)[3].

ولأن المشروعية بيد الأمة بشكل مطلق فلا تفرض الشريعة إلا عبر إرادة الأكثرية:

فـ (لا يحق لأي أقلية إسلامية في مجتمع ما أن تطالب بتطبيق الشريعة وفرضها على الناس بقوة الحديد، بل يلزمها العمل لجعل مبادئ الإسلام وقيمه عرفاً مقبولاً بين الناس)[4].

حتى إن كان الحكم شرعياً مقطوعاً به:

(فإن إيمان المؤمن بوجوب أمر ديني عليه لا يعطيه الحق بفرضه على الآخرين، فهو مكلف به ديناً، وذلك لا يكفي لجعله قانوناً عاماً في المجتمع، بل عليه أن يحاول إقناع الآخرين به حتى يتبناه المجتمع بالطرق الديمقراطية)[5].

فلا نقول إن الشريعة قيد على سلطة الأمة، بل إن الأمة لها مطلق التشريع وهي لن تخالف الشريعة!

(لا حرج علينا لو قلنا إن الإسلام ديمقراطي وإن الشعب المسلم هو مصدر السلطات جميعاً وهو يغير القوانين ويسنها حسب ما يوحي إليه عقله، وكل ما لم يسوغه عقله يضرب به عرض الحائط ويخرجه من الدستور إخراجاً؛ لأن العقل المسلم لا يمكن أن يحيد عن شرع الله، ومن حاد عقله عن ذلك فهو ليس بمسلم وليس بداخل في الشعب)[6].

فالحكم بالشريعة هو من حكم الشعب لأنها دين الشعب!

(إن الحكم الذي يكون قولاً وفعلاً متجسد العدل هو حكم الشعب، والشرع الذي يكون قولاً وفعلاً شرع العدل هو شرع الشعب، وتتجلى سيادة الشعب أول ما تتجلى في حقه في اختيار نظام حكمه، وحقه في التشريع لهذا النظام، وحقه في اختيار حكامه، وحقه في المشاركة في الحكم)[7].

(فهي التي تؤمن بأن ما يصدر عن الله هو الحق وما هو عن غير الله فبالشورى التي هي الحق أيضاً)[8].

فالمشروعية في النهاية بيد الأكثرية، سواءً اختارت الشريعة أو غير الشريعة:

(فإن اختارت الأمة منظومة القيم والمبادئ الإسلامية مرجعية عليا وإطاراً للتشريع والقوانين، فلا يحق لأحد أن يفتئت عليها أو يفرض ما يناقض ويعارض مرجعيتها الدستورية، وإن اختارت تعطيل الشريعة فسيكون الموقف إعلان الإنكار والاعتراض الواضح لهذا الاختيار، مع القبول والإقرار السياسي به نتيجة للمسار التعاقدي الدائم)[9].

حقيقة الخلاف مع هذا الاتجاه:

إن كان الفكر الإسلامي قد شاعت فيه مقولات (السيادة لله، السيادة للأمة، السيادة المزدوجة)، فهذه الاتجاهات لا تختلف في المضمون، أما الخلاف هنا فهو خلاف حقيقي، فالإشكال هنا ليس في الصياغة ولا في تحديد مفهوم السيادة، إنما الخلاف هنا في الموقف من حاكمية الشريعة، فهي هنا تابعة لإرادة الأكثرية حتى تكون منسجمة مع مفهومها في الفكر السياسي الغربي.

ولا يغب عن بالك أن الخلاف في كل ما سبق ليس في موقف من حزب إسلامي أو شخصية إسلامية أو قضية اجتهادية، الحديث عن أصل الحكم بالشريعة بقطعياتها المجمع عليها.

وحين تجعل سيادة الشريعة تابعة لسيادة الأكثرية فعدا ما فيه من إشكالات – سنتحدث عنها بعد قليل – فإن الشريعة نفسها ستكون محكومة بما لا يخالف المفاهيم المعاصرة التي جاءت بهذه السيادة.

(١) سيادة الأمة وموقف الإسلام منها، د. عبد الكريم العواملة ٤٨٩.
(٢) العقيدة والسياسة، لؤي صافي ٢٨٤.
(٣) العقيدة والسياسة، لؤي صافي ٢٧٨.
(٤) العقيدة والسياسة، لؤي صافي ٢٧٧.
(٥) الدين والسياسة تمييز لا فضل، د. سعد الدين العثماني ٤٠-٤١.
(٦) معالم الدستور الإسلامي، أحمد صفي الدين عوض ٦١.
(٧) إسلام الحرية لا إسلام العبودية، حسن صعب ٧٨.
(٨) سيادة الأمة وموقف الإسلام منها، د. عبد الكريم العواملة ٥٣٦.
(٩) سيادة الأمة قبل تطبيق الشريعة، عبد الله المالكي ١٤٣-١٤٤.

وهو معنى ظاهر، يقول د. رضوان السيد: (إصرار الإسلاميين على مرجعية الشـــريعة وليس الشـــعب له دلالته، فهناك أحكام قطعية في الشـــريعة في مســـائل الحدود والقصاص والحقوق والواجبات لفئـــات المواطنين تعتبرها نخـــب اجتماعية وثقافية واسعة منافية لحقوق الإنسان وضرورات المساواة بين المواطنين، وهي كذلك بمقاييس العصر التي تسود العالم اليوم)[1].

ولهذا ذهب أحد الباحثين إلى أن: (الإمبراطورية الإسلامية – شأنها شأن كل إمبراطورية – لم تتأسّس على عقد اجتماعي يسوي بين مواطنيها، وما كان فيها من تسامح ديني وسياسي – يستحق الفخر والإشادة في سياقه التاريخي – ليس قريباً مما نطمح إليه من تحقيق مفهوم المواطنة المعاصر)[2].

فالنظـــام السياســـي الإســـلامي يجب أن (يعـــدل) وفق المواصفات الشائعة في الثقافة الغربية.

لأن بناء الدولة الإسلامية الذي كان قائماً (على قانون الفتح وأخـــوة العقيدة كما كان حال الإمبراطورية الإســـلامية، لم يعد مناســـباً أخلاقياً ولا ممكناً عملياً، فالدول المعاصرة لا تتأسّس على الاشتراك في الدين أو العرق، بل على أساس الجغرافيا)[3].

(وليـــس يعني هذا أن العلمانيـــة الغربية هي الحل لعقدنا السياســـية الحالية، الحل هـــو الدولة المدنيـــة ذات المرجعية الإسلامية)[4].

(١) سياسيات الإسلام المعاصر، د. رضوان السيد ٢٢٠.
(٢) الناس على دين دساتيرهم، د. محمد المختار الشنقيطي، موقع الجزيرة نت.
(٣) الناس على دين دساتيرهم، د. محمد المختار الشنقيطي، موقع الجزيرة نت.
(٤) الناس على دين دساتيرهم، د. محمد المختار الشنقيطي، موقع الجزيرة نت.

فحين تنزع عن الدولـــة رابطتها، وتجعل لها رابطة عقدية جديدة تتغير بســـببها الأحكام الشرعية، فأي فرق بين (الدولة العلمانية) وهذه الدولة ذات المرجعية الإسلامية!

ظاهرة (التلفيق) بين المفهوم الإسلامي والغربي:

هـــذه الآراء المتعثرة تتفاوت فيما بينهـــا، لكنها تنطلق من إشـــكالية موحدة، هي ظاهرة التلفيق بين المفهوم الإســـلامي والغربي، فهي تريد تحقيق سيادة الأمة بمفهومها الغربي، وتريد في الوقت نفســـه أن لا تتعارض مع الشريعة، وهذا التلفيق لا يمكن أن يستقيم إلا عبر الوقوع في عدد من المحاذير الشرعية.

وليس هذا جديداً على الفكر الإسلامي، ففي ذاكرته عدد من النمـــاذج التلفيقية وقعت في أوقـــات متباعدة وفي أبوابٍ مختلفة، إلا أن دافعها المحرك لها ثابت لم يتغير.

أصول التلفيق في مفهوم السيادة:

هنا عدد من الأصول التي تستند إليها فكرة التلفيق لتقريب مفهوم السيادة الغربي وتخريجه في صورةٍ يتوهم أنها لا تعارض الإسلام:

الأصل الأول: أن حكم الشريعة إنما يكون من خلال تصويت الأكثرية، لأن أي حكم بخلاف ذلك فهو إكراه، والله تعالى يقول ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

الأصل الثاني: أن المشـــروعية الدينية لا تستلزم المشروعية السياسية، فالسيادة للشريعة ديناً لا يجعلها مشروعة سياسياً، فالمشروعية السياسية تستند إلى رأي الأكثرية.

الأصـل الثالـث: أن ســـيادة الأمة هي الطريق الأمثل لحكم الشـــريعة في عصرنـــا الحاضر، وليس بيد الناس اســـتطاعة شرعية لتطبيقها من دون هذا الطريق.

الأصل الرابع: أن ســـيادة الشـــريعة لا تطبق إلا عبر الناس أنفسهم، فإن لم تجعل السيادة بيد الناس فستجعلها بيد المتغلب، وكونها بيد الناس أضمن، كما أنهم هم المكلفون بتطبيق الشريعة.

وعامة ما يقال في هذا الســـياق لا يخرج عن هذه الأصول الأربعة.

مناقشة الأصل التلفيقي الأول:

يقول هذا الأصل أنه لا بد من رضا الأكثرية وإلا كان إكراهاً.

وهذا التلفيق يخالف المنهج الإسلامي في أساسين:

الأساس الأول: أن تســـمية حكم الإسلام هنا (إكراهاً) هي تســـمية منطلقة بحســـب الرؤية الديمقراطية، وليست بحسب

الرؤية الإسلامية، فالاختيار حسب المفهوم الديمقراطي الليبرالي يتحدد من خلال التصويت الانتخابي، وأي حرمان منه فهو إكراه، وأما الاختيار في التصور الإسلامي فهو تابع للإسلام، فالمسلم حين يدخل في الإسلام فقد اختار أن يحكم بالإسلام، فليس هناك درجة أخرى من الاختيار ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]، فالرضا بحكم الإسلام هو من لوازم إيمان المسلم، فكما أن المسلم لا يختار بعد إسلامه أن يصلي أو يصوم أو يبر والديه، فكذلك لا يختار حكم الإسلام.

إذن، فحين تحكم المسلمين بالإسلام فهذا من اختيارهم، وليس فيه أي إكراه، فالاختيار يعرف بدخولهم في الإسلام، وليس بإجراء انتخابي معين، فقبل أن نستدل بآية الإكراه يجب أن نستوعب أن هذا الإكراه هو (إكراه ديمقراطي ليبرالي)، وليس هو (الإكراه الشرعي).

الأساس الثاني: أن تحكيم الإسلام وخضوع الناس لحكمه وقوانينه ليس من الإكراه في شيء، ولا علاقة له بقوله تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فجعل هذه الآية ذريعة لتعطيل الشريعة غلط وفهم منحرف عنها، ويظهر هذا من وجوه:

١ – أن علماء التفسير قد اختلفوا في تفسير هذه الآية إلى ما يزيد على ستة أقوال ليس فيها أي إشارة إلى أنها تشمل المسلمين، بل كل الأقوال ترجع إلى الكفار بعدم إكراههم على ترك دينهم والدخول في الإسلام قسراً أو التعرض لهم إن دفعوا الجزية، ولم يقل أحد بتاتاً إنها تشمل المسلمين[١].

٢ – أن تحكيم الشريعة ليس من الإكراه في الدين، فهو خضوع لقوانينها وأحكامها، وليس فيه إكراه أحد على مخالفة دينه.

وعلى افتراض أن ذلك إكراه، فالعموم في الآية (عموم في نفي إكراه الباطل، فأما الإكراه بالحق فإنه من الدين، وهل يقتل الكافر إلا على الدين)[٢].

٣ – أن أحكام الإسلام كانت تطبق في الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، تطبق على المسلم والكافر، وما كان يؤخذ آراء الناس لمعرفة رضاهم أو سخطهم، بل إن الفتوحات الإسلامية أخضعت بلداناً كثيرة ولم تخيرهم في حكم الإسلام وهم غير مسلمين، فكيف تخير المسلمين في حكمهم بالإسلام؟

٤ – والقول بأن تحكيم الشريعة من الإكراه في الدين يلزم منه نفي وجود أي إكراه في الدين، منافٍ لحقيقة الإسلام، ففيه واجبات ومحرمات وحدود وعقوبات، فلازم هذا القول أن يجعل الإسلام رسالة روحية محضة ليس فيها أي إلزام سياسي – كما هي الرؤية العلمانية –، وأما القول بأن الإسلام فيه إلزامات مع القول بعموم (لا إكراه في الدين) لكل إكراه، فظاهر التناقض!

لهذا؛ لا تجد هذا الفهم عند أحدٍ من المتقدمين، فتفسيرهم للآية ينسجم مع فهمهم لأصول الشريعة وقطعياتها، فلا يمكن أن يقول بأن الآية مطلقة العموم في كل إكراه، لأن هذا ينقض أحكام الإسلام بوضوح، لهذا (لم يختلف أحد من الأمة كلها في أن هذه الآية ليست على ظاهرها، لأن الأمة مجمعة على إكراه المرتد على دينه)[٣].

٥ – لا إشكال لدى أصحاب هذه الدعوى من تطبيق الشريعة إن جاءت بتصويت الأكثرية، إذن كيف تكره الأقلية على ذلك ما دام أنه لا إكراه في الدين حسب تصوركم؟ ثم لو أراد بعض من صوت مع الأكثرية أن يتراجع فهل يكره على الدين لمجرد أنه شارك في التصويت؟

فإذا كان تحكيم الشريعة إكراهاً، فلا يجوز تطبيقه على الأقلية ولو أرادت الأكثرية، فعجيب أمر هذا التطبيق، يكون إكراهاً ثم يزول الإكراه بمجرد تصويت الأكثرية! وكأن الآية تقول ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إلا إن اختارت الأكثرية فأكرهوا الأقلية عليه!

والظريف – والمؤسف – أن الأكثرية هذه متعلقة بنسبة غير محددة، فيمكن أن تكون ٧٠٪ أو ٦٠٪ أو أقل أو أكثر، فأي جرأة على الله فوق أن تحدد نسبة معينة تقول هي التي أعرف من خلالها أن هذا إكراه داخل في مراد الله في قوله تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

فقاعدة (لا إكراه في الدين) أرادوا بها أن تكون (عذراً) في ترك تطبيق الشريعة إن رفضت الأكثرية، وهي في الحقيقة تلغي تطبيق الشريعة بالكلية ولو أرادت الأكثرية!

أرأيتم كيف ظهرت إشكالية التلفيق؟

يريد يحكم بالشريعة، ويريد حكم الأكثرية، فيأتي بمفهوم (لا إكراه في الدين) فيتورط معه لأنه يؤدي به إلى تعطيل الشريعة وعدم الحكم بها أبداً!

---

(١) فصلتُ هذه الأقوال في كتاب (التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفكرية المعاصرة) ص ١٨٣– ١٨٥.

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي ١/ ٢٣٣؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٤/ ٢٨٠–٢٨٣.

(٣) المحلى ٢١٠٤.

ويجعل (لا إكراه في الدين) عاماً يشمل الحكم بالشريعة فيتورط لأنه يؤدي لإلغاء كل الإلزامات في الشريعة حتى تكون رسالة روحية علمانية!

مناقشة الأصل التلفيقي الثاني:

يقول هذا الأصل: إن سيادة الشريعة جانب ديني، وحتى يحمل صفة (المشروعية السياسية) لا بد له من الرجوع إلى رأي الأكثرية!

من طبيعة أي تلفيق أنه يحتاج لحذف شيء من أحد الطرفين حتى يستطيع أن يلفق بينهما.

والذي حصل هنا أنه حصل حذف في أحكام الإسلام فجُعلت دينية وليست سياسية، وهذا مفهوم لا تعرفه الشريعة.. لماذا؟

لأن الشريعة نظام حياة ونظام دولة وليست رسالة روحية منزوية عن الواقع، فالأحكام الدينية حسب تصور الإسلام، هي أحكام سياسية.

فأي حكم في الواقع يخالف الشريعة فالمسلم مأمور بتغييره (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)[1]، وأحكام الإسلام يجب أن تكون هي الحاكمة والفيصل بين الناس في حقوقهم ومنازعاتهم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأي قرار سياسي يجب ألا يخالف الشريعة وإلا فلا اعتبار له (إنما الطاعة في المعروف)[2]، (ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[3]، وأي نظام فمشروعيته مقيدة بالشريعة (إلا أن تروا كفراً بواحاً)[4].

فحين تستحضر هذه الأحكام يتضح لك صورة الأحكام في الإسلام، فالأحكام الدينية هي أحكام سياسية، والأحكام السياسية لا مشروعية لها إن خالفت الأحكام الدينية، فتصور الحكم الديني منعزلاً عن الحكم السياسي هي رؤية علمانية لا علاقة لها بالشريعة[5].

فحين يقول إن تطبيق الشريعة واجب ديناً، لكنه يحتاج لمشروعية سياسية، فهو يتحدث عبر منطق مختلف عن الشريعة، فوجوب تطبيق الشريعة هو تطبيقها سياسياً وتغيير أي مخالفة لها ورفض أي قرار ينافيها، وهذه كلها أحكام سياسية، أما مجرد الاعتقاد بوجوب التطبيق من دون تطبيق أي شيء، فهذا ليس هو الواجب ديانة، بل إن الخلاف مع الفكر العلماني إنما هو في تطبيق الشريعة وليس في اعتقاد تطبيقها، والأمر القرآني جاء في تطبيق الشريعة وليس في مجرد الاعتقاد ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

مناقشة الأصل التلفيقي الثالث:

يقول هذا الأصل: إن سيادة الأمة هي الوسيلة الممكنة لتطبيق الشريعة في العصر الحاضر.

والخلل هنا أنه يقرر أن السيادة وسيلة إلى تطبيق الشريعة، وهذا يعني أنه مراعاة لظرف زمني معين، بينما حقيقة الرأي تقوم على تأصيل كلي لا يرتبط بضرورة أو حالة معينة.

فهم يتحدثون أن الشريعة لا إكراه فيها، وأن المشروعية السياسية بحاجة لمشروعية دينية، ثم يرجعون فيفسرون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه بما يتفق مع هذه الرؤية، فتقريرهم قائم على اعتبار (سيادة الأمة) أصلاً كلياً، والاستدلال هنا قائم على اعتبار أنها ظرف زمني معين!

فليس محل الخلاف أن يشارك الإسلاميون في النظم التي لا تتخذ الشريعة مرجعية لها في سبيل أن يصلوا من خلال هذا إلى جعل السيادة للشريعة، إنما الخلاف في الأصل الكلي القائم على جعل المشروعية للأمة ولا حكم للشريعة إلا من خلالها مطلقاً، وليس لأجل ظرف زمني معين.

فهو يعتذر بأنه مضطر لأجل واقع، بينما كلامه تأصيل كلي دائم، تماماً لو أن شخصاً شارك في بنك ربوي لأجل مصلحة راجحة ثم صار بعد ذلك يقول إن الربا حلال لأن لا فرق بينه وبين البيع والله تعالى يقول ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٣]!

فكما أن بعض الإسلاميين يشارك في بعض النظم العلمانية لأجل الإصلاح، فهذا لا يجيز له أن يقول بأن الشريعة جاءت بفصل الدين عن الدولة؛ لأنه هو الممكن في تلك المرحلة! ولا يمكن أن يقال إن الخلاف بين (الإسلامي) الذي يشارك في نظام علماني و(العلماني) الذي يرى فصل الدين عن الدولة؛ خلاف لفظي!

مناقشة الأصل التلفيقي الرابع:

أن أحكام الشريعة لا تطبق إلا عبر الناس، وهم أضمن للشريعة.

وهنا حديث في البدهيات، فلا شك أن كل الأفكار

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٦).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٧١٤٤) ومسلم (٤٧٦٣).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٧٠٥٦) ومسلم (٤٧٧١).
(٥) بيانٌ محكمٌ ومتين عن هذه الجزئية تجده في مقال: (المضمون العلماني في الاتجاه التنويري، المشروعية السياسية) للشيخ الفاضل أحمد سالم، مجلة البيان، عدد ٣٠٣، ذو القعدة ١٤٣٣هـ.

والاتجاهات لا تطبق إلا من خلال الناس، هذه بدهية لا معنى للنقاش حولها، بل حتى الاستبداد والظلم يطبق من خلال الناس، فالخلاف هنا خلاف في (المشروعية) وليس في (التنفيذ) أو (الوجود).

فعامة الباحثين في الفكر الإسلامي يقول إن سيادة الأمة سيادة تنفيذ، ولا إشكال، الخلل هنا أنهم جعلوها سيادة تشريع يمكن أن تشرع ما يخالف الشريعة، ولا تكون الشريعة نافذة إلا بعد رضاهم.

وكونهم أضمن للشريعة، يعني أنهم يتحدثون عن (تنفيذ)، بينما الخلاف في (التشريع).

حكم الفرد أم حكم الأكثرية؟

ويأتي هنا عادة المقارنة بين حكم الفرد وحكم الأكثرية، فيقول كما أنكم تقبلون بحكم الفرد ولو خالف الشريعة، فكذلك نحن هنا نقبل بحكم الأكثرية إن خالفت الشريعة.

وحقيقة هذا السؤال يكشف لك الإشكال بدقة.

فالمتغلب الفرد إن خالف الشريعة فلا مشروعية لمخالفته ولا يجوز طاعته، وأي قرار يصدر منه مخالف للشرع فلا اعتبار له.

بينما هم هنا يقولون إن الأكثرية حين تخالف الشريعة فهذا من حقها، ولها مشروعيتها، ولا مشروعية إلا من خلالها.

وهنا يظهر أن إرادة الأكثرية حسب هذا المفهوم تأتي في معارضة الشريعة وليس في معارضة الفرد، لأنها تعطي الأكثرية صلاحية مخالفة الشريعة.. نعم، لو قالوا إن الأكثرية مقيدة بالشريعة – كما هو قول عامة الباحثين – لما كان ثم نزاع، ولأصبحت الأكثرية في مقابل الفرد، أما إن أعطيتها صلاحية تجاوز الشريعة فالأكثرية هنا صارت مرجعية في مقابل مرجعية.

السؤال المركزي:

من الأسئلة المركزية هنا: ماذا لو اختار الناس غير الإسلام؟

وفائدة هذا السؤال أنه يكشف المرجعية العليا لمن؟ هل هي للأكثرية أم للشريعة؟ تماماً كبقية الأسئلة التي تورد على الأفكار والاتجاهات لكشف مضامينها وحقائقها.

يتحاشى كثير منهم الجواب عنه ويقول الناس سيختارون الإسلام فلا معنى للخوف من اختيار غير الإسلام، وهذه صورة افتراضية جدلية.

حسناً، ولماذا الخوف من التصريح بأنه لا اعتبار لهم إن خالفوا الإسلام؟

لماذا التهرب من الإجابة عن هذا السؤال ما دام أنه غير متصور ومجرد فرضية؟

بكل وضوح، لأن هذا السؤال يكشف حقيقة التشريع، هل هو للشعب أم للإسلام؟

فلو قال سيحكم بالإسلام – ولو كانت مسألة افتراضية – فهو قد أسقط مرجعية سيادة الأمة، ونموذج التلفيق يقتضي أن يحافظ على هذه السيادة كما هي.

فالقول بأن المشروعية للشريعة، ليس مثل القول بأن المشروعية للناس وهم سيختارون الشريعة، فأنت حين تجعلها للناس تجعل أحكام الشريعة غير ملزمة إلا بعد اختيار الأكثرية، كما أن اختيار الأكثرية لو خالف الإسلام فله مشروعيته، وكل هذا ينافي قطعيات الشريعة.

والقول بأن هذا لا يمكن مغالطة واضحة بعيدة تماماً عن فهم واقع النظم المعاصرة.

فالتصويت لن يجري على طريقة أن يدخل شخص على مجلس فيقول: (هل تريدون الإسلام)؟ بل هو مواد قانونية دقيقة في دستور عام، وتعتمد على النشاط الإعلامي والقدرات التأثيرية على الناس، فمن الممكن جداً أن يتم تجاوز الشريعة من خلالها، فلماذا الهرب عن الجواب؟

ثم إن من يقول إن الناس لن يختاروا إلا الإسلام، لا يتفطن إلى أنه يفكر من حيث لا يشعر في واقع نظام سياسي غير إسلامي، لأن هذا معناه أن النظام يكفل للناس المطالبة بتغيير الشريعة، ولهم حق التعبير عن الرأي ضد الإسلام، وتكوين الأحزاب وتأليب الرأي العام والحشد الإعلامي الذي يشكك في الإسلام ويطالب بتغيير أحكامه، ثم بعد هذا كله يكفل لهم إمكانية تغيره، ثم يكفل التصويت من أجله، ثم بعد هذا ينظر في النتيجة.

فصاحب هذا الكلام قفز على كل هذه المقدمات التي تناقض الإسلام مناقضة قطعية، وظن أنه قد أنهى الإشكال لما جزم أن الناس لا يختارون غير الإسلام.

والقصة أن هذه الصورة يوردها رافضو الديمقراطية الليبرالية لإثبات منافاتها للنظام السياسي الإسلامي، والجواب الصحيح أن يقول من يدافع عن الديمقراطية بأنها لن تكون بهذه الصورة ما دامت ديمقراطية إسلامية كما يرون، لا أن يتعامل معها وكأنها من المسلمات، ويجعل الإشكالية فقط في كفة الأصوات الأكثر.

الغفلة عن هذه المقدمات المهمة تجعل الشخص يتوهم أن الإشكال فقط في التعامل مع نتيجة الانتخابات! بل ما عاد هذا إشكالاً عليها، بل هو من محاسنها وفضائلها!

(لنفرض فرضاً أن شـيئاً من هذه المخاوف قد وقع وظهر بديمقراطية حقيقية أن غالبية المسـلمين في قطر من الأقطار قد اختاروا ما يتنافى مع الإسلام وما يعد خروجاً عن الإسلام، فهل العيب في الديمقراطية أم العيب في الواقع القائم؟ فليست الديمقراطيـة هي التي أتتنا بهذا العيـب، وإنما الديمقراطية كشفت لنا هذا العيب، فهذا سبب لشكر الديمقراطية والتمسك بها وليس سبباً لرفضها والقدح فيها واتهامها)[1].

سيادة الشريعة أم سيادة الليبرالية؟

من البدهيات في النظم السياسية المعاصرة أنه ليس هناك إرادة مطلقة للأكثرية، فلها صلاحية واسـعة لكنها في النهاية محـددة بقائمة من الحقوق لا يمكـن أن تتجاوزها، فلا يمكن للأكثريـة أن تنتهك أي حق من الحقوق المتفق عليها دولياً، ولا يمكنها أن تعتدي على أي حق من حقوق الأقلية أو تضيق عليها فيه، فهذه الحقوق هي من المبادئ فوق الدستورية التي لا يمكن التعرض لها وليست هي محلاً للتصويت.

محـل الخلاف مع أصحـاب هذا الاتجاه أنـه يقبل بهذه الحقوق والحدود ويرفض أن تكون (حاكمية الشـريعة) ضمن هذه الحدود، فالشـريعة لا بد لها مـن التصويت ولا يمكن أن تحكم من دون تصويت، ولا يمكن أن تكون مبدأ فوق دسـتوري، وأمـا الحدود التي وضعتها (الليبراليـة المعاصرة) فهي حدود فوق دستورية ولا يمكن للأكثرية أن تتعرض لها.

أرأيتم؟ فالحقيقة أن الخلاف ليس بين (سـيادة الشريعة) و(سـيادة الأمة)؛ لأن الأمة في النهاية سـيادتها مقيدة وتعمل في إطار معين.. الخلاف هو بين (سيادة الليبرالية) على الأمة أو (سيادة الشـريعة) على الأمة، فلا إشكال في القبول بقيود الليبرالية، وأما قيود الإسلام فيقف دونها ألف إشكال؟

فحين يتحدثون عن (مسـار تعاقدي) للأمة لا يمكن فرض أي شـيء عليها، وإلا فهو تغلب واعتداء عليها؛ لا يتحدثون عن مسـار مفتوح تفعل الأمة ما تشاء، بل هو مسار محكوم بإطار وحقوق وأعراف شـائعة لا يمكـن أن تتجاوزها، ومع هذا هو راضٍ خاضع مقر بكل مـا فيها من حدود، وإنما تتحرك فقط في وجه حكم الشـريعة، ثم يظن أن الخلاف ربما يكون لفظياً أو من مساغات الاجتهاد!

سـتعرف فداحة هذا الخلاف بأن تقارن الحكم بقطعيات الشريعة مع الحكم بحالة هامشية من الحقوق التي تقرها النظم المعاصرة، فالشريعة لا بد لها من تصويت واختيار ولا مشروعية لها إلا من خلاله وتسـقط من خلاله، وأما هذا الحق الهامشي فلا يصوت عليـه ولا يتعرض له لأنه من الحقـوق الطبيعية، وجرب بنفسك فاسـأل أصحاب هذا الاتجاه عن أقل حد من التضييق لأي حق هامشي وانتظر جوابهم!

لهذا حين يقال: لا أحد يفرض شـيئاً على (سـيادة الأمة) و(حرياتها) و(قرارها)... إلخ، فهو لا يتحدث عن حرية وسيادة مطلقة، بـل يتحدث عنها وهو مدرك أنهـا محكومة بـ (إطار ليبرالـي) لا يمكن أن تتجاوزه، ولا يريدك أن تدخل فيه المكون الأساسي والتاريخي للأمة الإسلامية (الشريعة)، فالنزاع حينها ليس مع سـيادة الأمة وحرياتها وقرارهـا، بل مع مفهوم هذه السيادة.

مصدر الخلل:

ماذا لو قالوا: السيادة للشريعة ولا مشروعية لما يخالفها.

ما الذي يدفعهم لكل هذه الإشـكالات؟ خاصة مع قناعتهم بوجوب تطبيق الشـريعة، ومخالفتهم للتيار العلماني في لزوم أحكام الإسلام.

التفسـير الأقرب لها هـو **(إشكالية التلفيق والخضوع للمفاهيم الحداثية المعاصرة)**.

فحين يأتي الشـخص لمفهـوم حداثي معين له فلسـفته وسـياقاته، ويريد إعماله كما هو، فإنه سـيقع في إشـكالات كثيـرة، وكل ما ورد في هذه المقالة هو نمـوذج تطبيقي لأحد هذه المفاهيم.

سطوة هذه المفاهيم على بعض العقول هي التي دعت أهل البصيرة من باحثي الفكر الإسلامي المعاصر إلى ضرورة الحذر في تقبل هذه المفاهيم، يقول محمد أسـد ناصحاً: (إننا عندما نتحدث عن إرادة الشعب في حدود مفهوم الفكر السياسي في الإسلام، لا بد لنا من أن نفكر بحذر شديد كيلا نقع في الخطأ فنكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، أي أننا يجب أن نحرص على ألا نحل محل الاستبداد الغريب عن الإسلام الذي حكمنا خلال القرون الماضية نظاماً لا صلة له هو الآخر بالإسلام، لأنه يدعو لسيادة مطلقة للشعب)[2].

فخلل هذه المفاهيم لا يزول بمجرد تغيير المصطلحات:

فـ (لا يكفي إذن لإصلاح الديمقراطية أن نغير اسـمها ونصفها بأنها شورى، بل لا بد من أن تقوم على الأسس الشرعية

(١) الشورى في معركة البناء، د. أحمد الريسوني ١٧٠.

(٢) منهاج الإسلام في الحكم ٧٩-٨١.

للشورى الإسلامية، وأول هذه الأسس التزامها بمبادئ الشريعة الإسلامية وعدم فصلها عنها)[1].

فالمطلوب من الباحث أن يفهم الإسلام كما هو لا أن يسعى لتجميله وتحسين صورته:

(وما درى هؤلاء أنهم يشوهون الإسلام لأنه لا بد لهم في محاولتهم هذه أن يميلوا إلى التصنع والتأويل حتى تتم لهم تلك المحاولات.

ومن هنا يأتي التحريف والتزييف والوقوع في الزلل والأخطاء في الإسلام ونظمه، وتغليف جوهره الصافي بسحابات الضباب والأفكار الغربية.

ولما كانت النظريات ليست في غالبها إلا مجرد انعكاسات للفلسفة التي يقوم عليها النظام السياسي الذي ظهرت في ظله أو انعكاساً لواقع هذه النظم ذاتها، فإن محاولة الباحثين في الإسلام لتفسير النظم السياسية الإسلامية على هدى تلك النظريات لن يجرنا إلى أخطاء في التطبيق، وإنما إلى أخطاء فادحة في منهج البحث والدراسة.

فإن لكل نظام فلسفته وتاريخه ونظمه، والإسلام يستقل استقلالاً تاماً عن كل النظم وإن تشابه من وجه أو آخر مع بعضها أو في أجزاء منها، لكنه يظل متفرداً من حيث ذاتيته وأساسه الاعتقادي على وجه الخصوص، ولا يصح أن نفسر أي نظام من نظمه إلا على ضوء أسسه الفكرية الخاصة)[2].

والتلفيق حالة من الوهن تحتاج لمثل هذه العزة والثقة:

(دفعهم حماسهم للإسلام إلى أن يثبتوا فيه بغير دراسة متعمقة كل ما يرونه قد راج في أسواق العالم المتحضر، متوهمين أن في ذلك خدمة جليلة للإسلام، فكأنه في أعينهم طفل يتيم ذليل لا يعيش إلا إذا جعل تحت رعاية رجل ذي جاه ونفوذ، أو هم يخافون أن لا تكون لهم عزة من حيث كونهم مسلمين ولا ينالون من الشرف شيئاً إلا إذا أخرجوا للناس مبادئ وأصولاً من دينهم مثل مبادئ النظم السائدة في عصرهم.

فإذا راجت الديمقراطية كان الإسلام ديمقراطياً، وإذا راجت الاشتراكية كان الإسلام اشتراكياً، وإذا راجت نظرية سيادة الأمة كانت هذه النظرية من نظريات الإسلام)[3].

حينها لن يقع في مرض الخوف من: (أن يعاب على التفكير الفقهي الإسلامي أنه لا يوجد به مكان لكل نظرية سياسية أو دستورية قديمة أو حديثة)[4].

هي جاذبية إعلامية.. ولكن؟

حين تتحدث في الإعلام بلغة: إن الشعوب قد تحررت ونالت سيادتها كاملة، فلا يمكن فرض أي شيء عليها، فمن حقها اختيار أي منظومة تريدها، وإن اختارت الإسلام فهذا من حقها، وإن رفضته فهذا من حقها، والإسلام يكفل الحريات كاملة... إلخ.

هو حديث له جاذبية، ويثير مكامن الرضا والاستحسان في وجوه فئات مختلفة لا تزال تحمل عداءً للمشروع الإسلامي، وسيريح المتحدث مزاجه من مسائل وإشكالات كثيرة تحاصر الإسلاميين، كما أنه هو الممكن في عددٍ من البلاد الإسلامية.

لكنه في الحقيقة قلمٌ يجري على أحكام الشريعة بالتعديل والتغيير، ويجترئ على الله، فيجعل مراد الله تابعاً لما هو ممكن في الواقع، ويوجه الأحكام بحسب المتاح، ويكون السياق الإعلامي المناسب هو المعيار الذي يحدد تفاصيل الأحكام الشرعية!

(١) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوي ٥٨٣.
(٢) رقابة الأمة على الحكام، د. علي محمد حسنين ١٨٤-١٨٥.
(٣) الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، د. فتحي عبد الكريم ١٨-١٩.
(٤) مبدأ الشورى مع المقارنة بمبادئ الديمقراطيات الغربية والنظام الماركسي، د. يعقوب المليجي ١٨١.

الناشط السياسي خالد أبو صلاح لـ البيان:

يرسم ملامحَ وشكلَ دولة سورية.. مَنْ قاوم وضحَّى

حـــاوره: مجلـة البيان

البيان: كيـف تصـف لنـا بداية الثـورة السـورية وتصاعد الحراك الشعبي فيها؟

ثـــورة كان لا بد من قيامها.. كانت نارها تحت رماد ٤٠ عاماً من القهر والظلم والفساد.. بدأت بأطفال خطّوا ما كان يجول في فكر آبائهم على جدران أضحت اليوم مضمّخة بدمائهم ومدمّرة بآلة قتل النظام.

حمل رايتها شـــباب آمنـــوا بربهم وبعدالـــة قضيتهم فضحـــوا بكل ما يمكن أن يضحي به شـــاب مؤمن في سبيل تحقيق هدفه المنشود.

تدرّجت الثورة والعمل الثوري من النضال الســـلمي إلى المقاومة الشعبية بعد أن خذلها القاصي والداني.. فبعد أكثر من ثمانية أشـــهر من النضال الســـلمي باعتراف رأس النظام، لم ينتصر أحد لدماء الســـوريين، فقرروا الدفاع عن أنفســـهم وتحرير بلادهم من طاغية مجرم ومدلل عند نظام عالمـــي يدّعي أنه نظام عادل ينتصر لحقوق الإنسان.

البيان: ما الرابط المشترك الذي جعل الشارع السوري يخرج للمطالبة بإسقاط النظام؟ وهل استئثار الطائفة النصيرية بالسلطة كان له دور في ذلك؟

الظلم والقهر والاستعباد والإذلال لنصف قرن؛ كل هذه كافية لدفع السوريين ليوحدوا صرختهم ومطلبهم ضد هذا النظام.. وبالطبع حكم العلويين لسورية وسيطرتهم على مقدرات البلاد واستئثارهم بكل مفاصل الدولة؛ دافع إضافي لقيام ثورة في سورية.

البيان: كيف تصف أوضاع اللاجئين في تركيا، وكذلك الوضع الميداني للثوار داخل المدن السورية، وما مصادر دعمهم، وما حاجاتهم؟

لم نتوقع في يوم من الأيام أن يُذلَّ أهل الشام في البلدان التي لجؤوا إليها.. «الزعتري» في الأردن.. آه.. عندما تنظر إلى أهلك فتجدهم لاجئين وضاقت الدنيا على سعتها ليُتركوا في صحراء قاحلة في بلد شقيق.

أما عن الوضع الميداني، فرغم التضحيات الجسام لكن تقدم الثوار ملحوظ وانحسار النظام وتهافته كذلك.

ومصادر دعمهم متعدّدة، منها ما يحصلون عليه من غنائم بعد المعارك التي يخوضونها ضد نقاط وثكنات عسكرية تابعة للنظام، وإما بعض الأسلحة التي يتم تهريبها من هنا ومن هناك عبر الحدود.

يحتاج اليوم الثوار إلى دعم حقيقي ودولي، فدعم الأفراد ما عاد كافياً لردع ولجم شهوة الإجرام لدى النظام الذي بات يستخدم الطيران الحربي والمروحي بقصف الأحياء المدنية.

نحتاج إلى ذخيرة وسلاح نوعي مضاد للدروع والطائرات، وأذكر هنا بعض ما نحتاج إليه على سبيل المثال لا الحصر: «ستنجر، سام، كورنيت، وميلان».. هذه الأنواع وغيرها أصبحت حاجة ملحة لا سيما في هذا الوقت.

البيان: شهدنا تحولاً كبيراً في الفترة الأخيرة على مسار الثورة، حيث لوحظ غلبة النشطاء الإسلاميين على الواجهة العسكرية في الثورة، هل هذا الاعتقاد صحيح؟

إسلاميون غير مؤدلجين..

سورية بطبعها بلد ذو غالبية مسلمة، وهذا بالطبع لا ينفي مشاركة غير الإسلاميين ونشطاء كثر من طوائف متعددة..

ولكن بسبب احتدام المواجهة وكثرة المعارك والشهداء، ترتفع وتيرة الإيمان لدى شبابنا المؤمن بطبعه.. وهذا ما جعل الإسلام السمة الظاهرة في معظم الفصائل المقاتلة إن لم نقل كلها.

البيان: ما الذي دفعك لتخرج للشارع وتطالب الشعب السوري بالخروج للثورة؟

الذي دفعني للخروج هو ما دفع كل هذا الشعب العظيم لأن يخرج ويضحي ويصرخ في وجه الجلاد ويصبر أمام آلة قتله ويتحمل كل ما نشاهده ونراه من شهوة إجرامية لدى نظام الأسد.

البيان: تركيا تقدم دعماً للاجئين السوريين، ولديها موقف سياسي واضح، لكن لم يلبِ طموحات السوريين الثوار.. هل ترى أن ذلك بسبب العجز التركي، أم أنها تعمل وفق خطة متدرجة لتمكين الثوار من استنزاف النظام؟

لا بد بداية من شكر تركيا، حكومة وشعباً، على ما تقدمه من دعم للاجئين السوريين والمعارضة السورية التي ما زالت مشتتة إلى يومنا هذا، لكن في الوقت نفسه لم تقدم تركيا كل ما يجب إزاء إخوانها في سورية الذين يذبحون في كل يوم بالعشرات، لا بل في الآونة الأخيرة بالمئات.

لكن لا بد من ذكر أمر مهم، تركيا دولة مؤسسات، والمؤسسة العسكرية التركية لا تريد أن تدخل حرباً لا تستطيع ضمان نتائجها، لا سيما أنها في حرب استنزاف مع مقاتلي حزب العمال الكردستاني، إضافة إلى وجود أحزاب تركية عديدة معارضة للتدخل في سورية ودعم الثورة، كحزب الشعب المؤيد لبشار الأسد ونظامه..

وهناك حتى في حزب العدالة والتنمية الحاكم أيضاً من يعارض تقديم الدعم العسكري الصريح للشعب السوري، ويبرّرون هذا بأن أطرافاً عديدة تريد أن تقحم تركيا بمواجهة مباشرة مع إيران.. كذلك ضغط الروس عليها بواسطة الغاز الذي تعد روسيا أحد أهم مصدريه لتركيا، إن لم نقل الوحيدة. وبالطبع لا ننسى الشبح الأكثر خطورة بالنسبة للأتراك الذي يجعلهم يفكرون ملياً قبل اتخاذ أي موقف سياسي وعسكري حقيقي، ألا وهو حزب العمال الكردستاني الذي شن عدداً من الهجمات منذ بدء الثورة السورية بإشارة من نظام الأسد ليصبح دافعاً إضافياً للأتراك حتى يتمهلوا ويفكروا ملياً قبل الإقدام على أي خطوة حاسمة في الشأن السوري..

بالطبع نحن هنا لا نريد تبرير موقف تركيا، وإنما هي قراءة بسيطة للواقع التركي ولما يجول ببال أصحاب القرار فيها..

وفي الوقت نفسه قابلت عدداً كبيراً من المسؤولين الأتراك من مختلف الوظائف الحكومية – دبلوماسية وأمنية – ومنهم وزير الخارجية السيد أحمد داود أوغلو، وتكلمت معه ملياً حول الثورة وتحدياتها ومصالح تركيا بقيام دولة قوية في سورية بدلاً من دولة مهلهلة، وأخبرته بأن طول مدة الصراع سيجعل من سورية أفغانستان جديدة على تخوم تركيا، لا سيما أن هناك ٨٥٠ كم شريطاً حدودياً بين البلدين.. وشعرت بصراحة أن تركيا تجهز لأمور مهمة في دعم الثورة لكن بعيداً عن الأصداء الإعلامية والسجالات السياسية التي ستكون عبئاً عليهم أمام خصومهم في الداخل والخارج.

البيان: هل لك علاقة بالمجلس الوطني أو الجيش السوري الحر أو أي إطار آخر من أطر الثورة؟

ليس لي أي علاقة بالمجلس الوطني السوري مؤطرة ضمن هذه المؤسسة، ولي علاقات طيبة ببعض أفراده المخلصين وعلاقات سيئة في نفس الوقت مع بعض أعضائه المتسلقين..

أما الجيش الحر، ففي حمص هم إخواني جميعاً تربطني بهم أواصر المحبة والأخوة، وأعرف معظم قادته الميدانيين إن لم أقل كلهم، فقد كنا جميعاً على الطريق ذاته منذ أن كانوا جميعاً ثواراً سلميين إلى أن انخرطوا بالمقاومة الشعبية للدفاع عن أهلهم وذويهم..

كذلك الأمر في بقية محافظات سورية.. لي أصدقاء كثر من قادة الكتائب من مختلف المناطق من أجل التشاور ببعض الأمور الميدانية والسياسية ومن أجل التنسيق مع أبطالنا في حمص وغيرها.

البيان: تحت ذريعة الدفاع عن حقوق الأقليات، والمشاركة السياسية؛ هل يمكن أن يعود العلويون إلى السلطة في إطار تصالح سوري داخلي؟

إن صاحب القرار في هذا الأمر هو الشعب السوري الذي سينتخب عبر صناديق الاقتراع من يريد أن يحكمه.

البيان: كيف يمكن أن نرسم مستقبل سورية بعد ما حدث؟

بالطبع من قاوم أعتى نظام قمعي في هذا القرن بصدره العاري وقوة إيمانه – ووقف العالم بأسره مع هذا النظام إما بصمته أو دعمه الصريح أو المخفي له – يستطيع أن يصنع مستقبلاً مزهراً لسورية، وبإذن الله هو من سيحدد

ملامحه وشكل دولته ونظام حكمه، لأنه هو من ضحى وهو من تكبّد ثمن حريته.. فضل الله على هذه الثورة المباركة كبير، ومن أهمه: زيادة القناعة لدى الشعب بعدالة قضيتهم وأن الناصر الحقيقي هو الله عز وجل لذا صدحوا بها عالية (ما لنا غيرك يا الله)، ومنه الانتصارات التي تتحقق على أرض الواقع مع قلة العدد والعتاد.

البيان: هل تأثّر البناء الاجتماعي والفكري داخل المجتمع السوري بأحداث الثورة، وما ملامح هذا التأثير؟

نعم، تأثر كثيراً، لا سيما أن المجازر ما زالت مستمرة والقاتل معروف الهوية..

وهنا أتحدث عن البناء الاجتماعي، ففي حمص مثلاً وفي بعض قرى ريف حماه الغربي وريف اللاذقية، ما عاد هناك من عقد اجتماعي بين المسلمين والعلويين بعد كل هذه المجازر، وتكلمنا ملياً كما تكلم غيرنا في هذا الباب حتى أمام وسائل الإعلام لا لتأجيج الفتنة والصراع بل لمعرفة المرض حتى نتمكن من علاجه إن كنا بالفعل حريصين على ذلك.

أما البناء الفكري، فنحن اليوم في سورية في ثورة فكرية حقيقية على كل ما هو قديم ومستهلَك، فهذا الشعب سئم الخطابات والشعارات وأصبح اليوم أكثر قدرة على مجابهة أي مشاريع لا تخدم مصلحته العليا وقضيته.

البيان: كيف تقيّم موقف كلٍّ من الدروز والمسيحيين والأكراد من الثورة؟

أريد أن أبدأ من عند الإخوة الأكراد الذين ومن دون مزاودة كانوا من أول الثائرين على النظام، إن لم نقل أنهم بدؤوا بالثورة من ٢٠٠٤ ولاقوا أثناءها ما يلاقيه الشعب السوري اليوم من بطش وقتل وسجن وتعذيب وتهجير... إلخ، لكن الأصوات القبيحة لا بد لها أن تخرج من أفواه الحاقدين من هنا وهناك.. الأكراد ليسوا انفصاليين، بل هم سوريون بامتياز وجزء عريق وأصيل من مكونات الشعب السوري، ولديهم مطالب محقة كغيرهم من السوريين تحت سقف الوطن..

أما موقف الإخوة الدروز والمسيحيين، فوقف معظمهم على الحياد خوفاً من بطش النظام، وفيهم نشطاء كثر كانوا من أول المنخرطين في الحراك الثوري، وانشق عدد لا بأس به من ضباطهم الذين كانوا في جيش النظام.

البيان: ألا تخشى أن تدخل البلاد في أتون حرب طائفية بعد سقوط النظام، لا سيما بعد الجرائم التي ارتكبت باسم الطائفية خلال الثورة؟ وكيف سيتم القضاء على أي مطالبات بانفصال سياسي مثل الأكراد مثلاً؟

لسنا مع تمزيق البلاد ودخولها في أتون حرب طائفية لا تبقي ولا تذر، لكننا في الوقت نفسه سنحاسب كل من تلطخت يداه بدماء أهلنا وكل من انتهك حرماتنا ومقدساتنا، وسنقدمهم جميعاً أمام المحاكم العادلة، والضامن لهذا الأمر هم السوريون أنفسهم الذين ضحوا ليصنعوا وطناً حراً قوياً وأبياً.. فالحرب الطائفية تضعف البلاد ونحن نريد بناءها..

أما عن الأكراد، فلا أظن أنهم سيطالبون بالانفصال، لقد قابلت الكثير من سياسييهم ونشطائهم، هم سوريون قبل أن يكونوا أكراداً، هذا ما قالوه لي، وهذا ما لمسته لدى شارعهم الثائر..

ما يجري هو تضخيم إعلامي واضح للقضية الكردية لتأجيج الصراع وحرف الانتباه عن القضية الأساسية، ألا وهي الثورة وجلادها.

البيان: كيف ترى الموقف العربي من الثورة؟

موقف مخزٍ وهزيل كعادة المواقف العربية من مختلف القضايا المهمة والجوهرية للأمة.. مع الأسف الشارع العربي لا يزال أسير هذه الحكومات التي حكمت البلاد والعباد بالحديد والنار.

البيان: كلمة توجّهها للشباب العربي والإسلامي مستخلصاً فيها العبر من تجربتك كناشط منذ بدايات الحراك في سورية، ماذا تقول فيها؟

إن لم تكن صاحب قضية وتؤمن بها أيها الشاب المسلم، فلم تدرك بعدُ رسالتك في هذه الحياة العابرة..

لكل أجل كتاب، هذه حقيقة لمستها من خلال تجربتي البسيطة.. فيا أيها الشباب المسلم.. يا عصب هذه الأمة وعمودها الفقري.. دعونا نعود ونأخذ زمام المبادرة من جديد لنبني صرح الأمة بهمة جديدة وروح جديدة ليسود السلام في الأرض ونعيد للأمة مجدها وأيام عزها، وهذا لن يكون إلا من خلال استرداد كامل حقوقنا المسلوبة التي ضيعها هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون أذناباً للاستعمار.

حجاج بيت الله

هائل سعيد الصرمي

حنت لروض محمد صلواتي ... واستبشرت بلقائه نبضاتي
وسرت بي الأشواق قبل مسيرتي ... فغدوت والأشواق في عرفات
حجاج بيت الله من أوزارهم ... غسلوا القلوب بأنهر العبرات
نادوا إلاهاً واحداً وجميعهم ... حطوا الرحال بساحة البركات
عرفات يحضنهم على عرصاته ... وعلى المحيا بسمة الوجنات
صلى وسلم للملايين التي ... لبت، وصلت سائر الفلواتِ
يوم مهيب باركته يد السماء ... وتجلت الأنوار في العرصات
عرفات يغشاه الجلال لأنه ... حضن الوفود ومورد الرحمات
لله ما أحلى الوقوف بساحه ... والقلب يشرق من ضيا النفحات
وترى الدموع على الخدود كأنها ... سيل تفجر من لظى الزفرات
تضفي على العبد المؤمل راحة ... ليذوق صفو حلاوة العبرات
تتزاحم الرحمات بين ضلوعه ... وتفيض بالخطرات والآيات
رغم الحشود فكل قلب ناظر ... لله مجموع بغير شتات
متبتلاً متوجهاً لله منـ ... ـكسراً يروم المحو للسوءات
فيعيش معنى القرب في لحظاته ... لله ما أحلاك من لحظات
وإذا أفاض الناس بعد وقوفهم ... نزلوا (بمزدلفٍ) على الساحات
ناموا على فرش الحصى فكأنها ... من سندس الفردوس والجنات
وتوجهوا بعد المبيت إلى منى ... زمراً على الأقدام والصهوات
نثروا دموع الشوق في محرابها ... رفعوا الأكف بأطيب الدعوات
ذبحوا أطايب هديهم وتحللوا ... من بعد رمي كبيرة الجمرات
لله ما أحلى لياليها منى ... ووددت فيها لو أعيش حياتي
سأكون كالأملاك فوق ربوعها ... وأذوق طعم الأنس في سجداتي
قلبي هناك معلق بربوعها ... يا ليت حول ربوعها سنواتي
طافوا الإفاضة والوداع وغادروا ... البيت الحرام بموكب الحسنات
ليعود عبد الله بعد وقوفه ... كالطفل مولوداً بلا زلات
حسناته قد أثقلت ميزانه ... وعلت به في أرفع الدرجات
ملأت ببهجتها سماء فؤاده ... فإذا به متوثب العزمات
في همة موصولة بالله ... لا يلوي على الأوزار والشهوات
ما عاد مثل الأمس ليس يهمه ... سير الليالي وانقضا اللحظات
بل همه الأيام يعمرها التقى ... والذكر عبر دقائق الأوقات
يا رب بلغنا بفضلك دائماً ... برد الوقوف بساحة الرحمات

[المسلمون.. والعالم]

الإسلاميون المغاربة وتحديات الربيع العربي
أبو حفص محمد رفيقي

الكنيسة المصرية ودماء الإساءة للنبي الكريم
عصام زيدان

«إرهاب العصابة الأسدية»
محمود ثروت أبو الفضل

السلفيون والسياسة
أحمد عمرو

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

الإسلاميون المغاربة وتحديات الربيع العربي

أبو حفص محمد عبد الوهاب رفيقي(*)
abousafwann@gmail.com

كما لا يخفى على الجميع فإن رياح الخير والبركة التي هبّت على الدول العربية فأسقطت بعض رؤوس الطغيان، وأزالت بعض أنظمة الفساد والاستبداد، وأعادت للأمة دورها الأصيل في التعبير عن همومها والتضحية من أجل كرامتها وعزتها؛ كانت لها امتداداتها إلى بلاد المغرب الأقصى، وإن لم يصل الحد لما في البلاد الأخرى، لكنها مع ذلك حركت كثيراً من المياه الآسنة، وغيّرت كثيراً من الأوضاع القائمة، مهما قيل عن محدودية هذه التغييرات وسطحيتها، ومهما تحدث الكثير عن قلة فاعليتها وجدواها.

ويمكن إجمال هذه التغييرات فيما يلي:

– تحرك الشارع، واستيقاظه من سباته، ورفعه لمطالب اجتماعية، بعد أن تعوّد ألا يتحرك إلا للقضايا الخارجية.

– الجرأة على كثير من الأبواب التي كانت مغلقة، بل محرّمة، والمطالبة بإسقاط رؤوس كان مجرد الحديث عنها يقود إلى المتاعب والمصاعب.

– تهافت كل الفصائل الاجتماعية على التنظم والتوحد في إطار تنسيقيات وجمعيات، واستعمال وسائل الإعلام في التعبير عن المطالب والمبتغيات، حتى إن أئمة المساجد والخطباء الذين عُرفوا دوماً بالاستكانة والاستضعاف وعدم التنظم، أحدثوا لهم إطاراً يدافع عن حقوقهم ويرفع مطالبهم.

– تغيير الدستور، والحد فيه من صلاحيات الملك لصالح الحكومة والبرلمان، رغم أن هذه التغييرات لم ترقِ ظمأ كثير من المحتجين في الشوارع.

– حدوث انفراج سياسي محدود وإطلاق سراح بعض المعتقلين السياسيين، منهم عدد من الإسلاميين.

– إجراء انتخابات هي الأقل تزويراً في تاريخ المغرب.

– وصول الإسلاميين للحكم لأول مرة، وإن كان ذلك في ظل حكومة ائتلافية.

ولا شك أن هذه التغييرات قد أفرزت واقعاً جديداً أحدث اضطراباً داخل المجتمع عموماً، وعند الحركات المؤثرة في الشارع خصوصاً، خاصة الحركات الإسلامية التي فاجأها الربيع، وأخذها على حين غرة، فوجدت نفسها مطالبة بمجاراته ومسايرته، والتأصيل الشرعي والسياسي للمواقف المرافقة له، ما أحدث تضارباً وتنازعاً أحياناً حتى بين فصائل التيار الإسلامي بسبب هذه المواقف والاختيارات.

(*) داعية إسلامي مغربي وباحث في العلوم الشرعية.

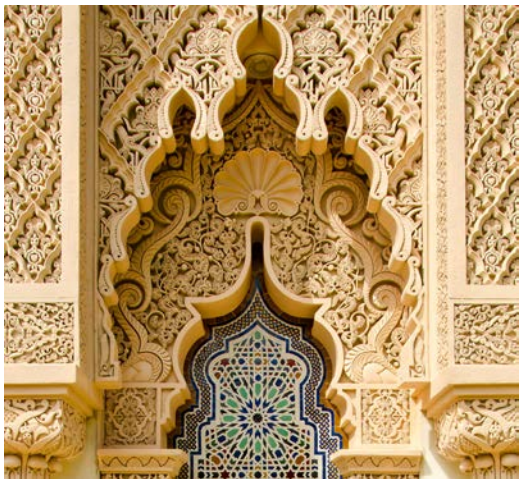

ويمكن إجمال هذه المواقف فيما يلي:

- عدم مجاراة الحراك، ورفض النزول إلى الشارع، ثم التعامل بإيجابية مع الإصلاحات الدستورية، والمشاركة في الانتخابات.

وهو الموقف الذي سلكته حركة التوحيد والإصلاح، وحزبها السياسي العدالة والتنمية، وكذلك مجمل التيار السلفي، إلا بعض الحركات الحديثة الولادة، والتي كانت هي أيضاً من بركات الربيع العربي.

- المشاركة بفاعلية في الحراك، والنزول بقوة إلى الشارع، بل السيطرة عليه، والتحكم في مساره، ثم عدم الالتفات إلى كل الإصلاحات، والتهوين من شأنها، ومقاطعة الاستفتاء حولها، ومقاطعة الانتخابات المترتبة عليها.

وهذا موقف جماعة العدل والإحسان ذي الامتداد الشعبي، ومعها الحركة من أجل الأمة وبعض التيارات السلفية.

ولكل موقف من هذه المواقف تأصيلاته الشرعية والواقعية، ولكل اجتهاده الذي يتعبّد به ربه سبحانه وتعالى، وهو مستعد للمحاسبة والمساءلة حوله أمام رب العالمين أولاً، ثم أمام جماهير الأمة التي وضعت ثقتها بهذه الحركات، واعتبرتها صمام الأمان والملجأ عند الفتن والأزمات، ولست هنا في مجال مناقشة هذه الاختيارات ولا التعليق عليها، بقدر ما أحب الإشارة باختصار إلى بعض التحديات التي تواجه هذه الحركات، بعد كل هذه المتغيرات، مهما كان موقفها واختيارها، ولذلك سأقسم هذه الحركات إلى ثلاثة أقسام:

- الإسلاميون المشاركون في الحكومة.
- الإسلاميون المساندون للحكومة.
- الإسلاميون المعارضون لخيار المشاركة.

المشاركون في الحكومة وتحديات ما بعد الربيع العربي:

لا شك أن وصول الإسلاميين للحكم بعد عقود من التضييق والمعاناة والمدافعة، وبعد تاريخ طويل من محطات المراجعة والترشيد وتحويل المسار؛ أمر جلل له منافعه ومصالحه، وله بالمقابل مساوئه ومفاسده التي لا ينبغي إغفالها، ويجب الاجتهاد في دفعها وتخفيفها. والذي يظهر لي أن الإسلاميين المشاركين اليوم في الحكم تواجههم تحديات عديدة:

- **البرهنة على سلامة الاختيار:** ذلك أن حزب العدالة والتنمية أدرك ذلك أو لم يدرك، فقد غيّر مسار الحراك، وأنقذ المغرب من ثورة مشابهة لما حصل في البلدان الأخرى؛ برفضه النزول إلى الشارع، واختياره لما سماه هو (ثورة الصناديق)، وهو اختيار تاريخي يجب تحمّل مسؤوليته ونتائجه عبر إدراك مقتضيات اللحظة والمرحلة، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الرخاء الاجتماعي والاقتصادي، وبناء أكبر قدر من الثقة مع مختلف الأطياف، وتبني مواقف قوية وجريئة تزرع هذه الثقة بالنفوس.

- **الحفاظ على أصالة الانتماء:** وأعني به الانتماء للحركة الإسلامية ومشروعها، والولاء الدائم لروحها ومرجعيتها، فلا ينبغي للسياسة ولوازمها أن تجعل الإسلاميين الخائضين لهذا الباب يغفلون عن أصولهم ويتنكرون للمحاضن التي تربوا فيها، ويتناسوا الأدبيات التي نشؤوا عليها. ما أحوج أبناء الحركة الإسلامية وهم يخوضون السياسة بأوحالها وأوساخها، لأن يستحضروا مجالس التربية التي غرست فيهم مبادئ الصدق والإخلاص والأمانة والتضحية والبذل والمسؤولية، ما أحوجهم وهم يدبرون أمر الأمة ويسيّرون شأنها لأن يستعيدوا تلك الروح التي كانت تغشاهم وهم قيام ليلاً وصيام نهاراً، فتمنع عنهم إغراء السلطة وشهواتها، وزيف الدنيا وحقارتها.

قال الشاطبي - رحمه الله -: (آخر الأشياء نزولاً من قلوب الصالحين: حب السلطة والتصدر).

إن مما آسف له كثيراً أن بعض الإسلاميين الذين خاضوا غمار السياسة، تنكروا في أشكالهم وخطابهم وأساليب عملهم لكل ما يدل على أصلهم، ولا تكاد تجد في خطابهم أثراً لمرجعيتهم، حتى لا تكاد تفرق بين الواحد منهم وبين غيره من الساسة العَلمانيين، اعتقاداً منه أنه بذلك المسلك ينال الرضا والمباركة من الخصوم، وما أراه إلا استكافاً من الأصل الشريف والمحتد النقي.

- **الوفاء للأصل والانتماء:** فكما أن هؤلاء الإسلاميين لا ينبغي لهم التنكر لأصلهم عند الممارسة، فكذلك لا ينبغي لهم التنكر له في علاقاتهم، فهم جزء من الحركة الإسلامية، ما يجعل تواصلهم مع باقي الأجزاء أولى وأحرى من تواصلهم مع المكونات الأخرى، خاصة

عند اتخاذ القرارات الكبرى، والاختيارات الحاسمة، فما المانع من التشـــاور مع هذه الحركات وتوضيح الرؤية لها قبل خروج ذلـــك للعلن، حتى لو بقي الخلاف، وهـــو أمر طبيعي، لكن من شـــأن هذا التشاور أن يمنع كثيراً من التهارج والتنابز الذي يقع عند انعدام التواصل؟

ومما ينبغي أن يعيه إخواننا هؤلاء، هو أن العامة لا يفرقون بين فصائل العمل الإســـلامي، وبين مشارك ومقاطع، بل يرون في نجاحهم نجاحاً لكل الإســـلاميين، وفشـــلهم فشـــلاً لكل الإســـلاميين، ما يحمّلهم مســـؤولية أكبر، خاصة على مستوى إقناع العامة بإخلاص وصدق وأمانة أبناء هذا المشروع.

- **وحـدة الصف الداخلـي:** وذلك مما يعزز الثقة، ويطمئن المتابعين لسلامة المواقف والقرارات، أما حين تظهر الخلافات والنزاعات، وتكثر المناوشات والمعارضات داخل الصف الواحد، فذلك مما يعطـــي انطباعاً بعدم الارتكان إلى سياســـة وثيقة ومحكمـــة، (انظر مثـــلاً ما وقع داخل حـــزب العدالة والتنمية من اختلاف فـــي الموقف بخصوص النزول للشـــارع، بل تمرد القطاع الطلابي على قرار الحزب، ومشـــاركة بعض القياديين في الحراك). وقد يرى البعض في ذلك ظاهرة صحية تدل على وجود مساحات من الحرية داخل الجماعة تمكّن الهياكل التابعة مـــن اتخاذ قرارات مســـتقلة، لكن خروج ذلـــك للعلن، واطلاع العامة عليه، يشوش على أذهان المتابعين والمتعاطفين.

- **المحافظة على نقـاء الصورة:** ذلك أن الإسلاميين عُرفوا دومـــاً عند العامة بطهارة اليد، وبـــراءة الذمم، وصدق القول، وسعة البذل، بل هم الممثلون لقيم الإسلام وأخلاقه وآدابه، فلا ينبغي للسياســـة وإكراهاتهـــا أن تدفعهم بأي حال من الأحوال للتخلي عن بعض هذه المبادئ؛ فذلك ســـيدع انطباعاً بأنه ليس فـــي القنافذ أملس، وأن كل من تســـلم زمام الســـلطة أعرض بوجهه عن خطابه القديم، وتنكر لكل وعوده السابقة، فلا فرق إذن بين الأحزاب الإسلامية وغيرها من الأحزاب، بل عليهم أن يحافظوا على تميزهـــم، وأن يبرهنوا على صدقهم في القول، وإخلاصهم في العمل.

- **التخلـص مـن التركـة الاجتماعيـة والاقتصادية التي خلفتهـا العهود السـابقة:** وهي مهمـــة ثقيلة لا يمكن إنجازها في شهور أو حتى ســـنوات قليلة، لكن على الأقل ينبغي إرسال الإشـــارات المطمئنة، والتدليـــل على صدق النوايا، وســـلامة المقصد، وإقناع العامة بأن عهود الفساد والاستبداد في طريقها للزوال والفناء.

- **التخلـص مـن التركـة الحقوقية الـتي خلفتهـا العهود السابقة:** وهذا من أهم مهمات حكومة الإسلاميين، لتعلق ذلك بالعـــدل الذي به تقوم الدول، وتتقوى وتصمد، فمع اســـتمرار الظلـــم والتضييق والمنع والتدخل فـــي حريات الناس، لا يمكن الحديـــث عن أي تغيير ولا أي اختيـــار أو تجربة، وأهم الملفات التي ينبغي على الحكومة المبادرة لحلها، لما تشـــكل من احتقان وتوتر، ولما في معالجتها من مصلحة عائدة على الإســـلاميين أنفسهم؛ ملفان اثنان:

أولهمـــا: ملف المعتقلين الإســـلاميين، وأغلبهم ممن أدينوا في محاكمات ظالمة، وتعرّضوا لأحكام غير عادلة، وإســـلاميو الحكومة مـــن أعرف الناس بملفاتهم، كيـــف لا وقد كانوا من أشـــد المدافعين عن مظلوميتهم، والمطالبين بإطلاق سراحهم، أما وقد اســـتلموا زمام الأمر اليوم، فلا بد لهم من المبادرة إلى حل هذا الملف، واعتباره من أولى الأولويات، وتقديمه على غيره مـــن الملفات، إذ لا أهلك للـــدول والحكومات من الظلم وبقائه، ولا أقوم لها من العدل وتثبيته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (الحســـبة): «الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل الأرض، فإن الناس لـــم يتنازعوا في أن عاقبة الظلـــم وخيمة، وعاقبة العـــدل كريمة، ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة».

نعم، قد يفهم أن الملف في حقيقته ليس بيد الحكومة، وأن هناك أطرافاً أقوى تمسك الملف وتتحكم في مساره، لكن الذي لا يقبل، هو تغير الخطـــاب وكيفية التعامل مع الملف، وإصدار تصريحات يفهم منها التنكر للمواقف السابقة، وترسل إشارات يـــأس وإحباط للمظلومـــين الذين تعلقت آمالهـــم في الإفراج بالحكومة الجديدة بعد الله عز وجل.

ثانيهما: توســـيع مجال الحرية، فالإسلاميون الذين كانوا لعقود طويلة ضحية القمع والتضييق، وعانوا في ذلك وتجرعوا مرارتـــه؛ هم أولى من يجب أن يســـعى لحماية هذه الحريات، وتوســـيع مجالاتها، واســـتغلال ســـياق الربيـــع العربي، ربيع الحريات؛ لتحقيق أكبر قدر من المكاسب في هذا الباب، فذلك مما ستعرفه لهم الأمة، وسيذكره لهم التاريخ.

ثم مـــن غير المقبول، فـــي عهد حكومة الإســـلاميين، أن تُقمـــع الحريات، ويكون الاعتداء علـــى المتظاهرين والمحتجين والمعتصمين، ممن ســـلكوا السبل السلمية، ولم يعطلوا المصالح العامة، فســـيكون ذلك وصمة عار في تاريخ توليهم لتسيير أمر البلاد.

المساندون للحكومة:

وغالبهم من أبناء التيار السلفي، ولهم في هذا الاختيار اجتهادات واعتبارات لها نصيبها من النظر والتوجيه، لكن موقفهم هذا يطرح عليهم جملة من التحديات، أهمها في نظري:

- **بناء خطاب شرعي متماسك:** ذلك أن القوم عُرفوا بالدعوة إلى التأصيل الشرعي، والحرص على المنهج العلمي، وهو أمر يحمد لهم ويعرف، أما والحال كذلك، فلا يقبل منهم الاضطراب في التأصيل للمستجدات والنوازل، ولا بناء المواقف الجديدة على أسس غير متينة، ولا ضعف التنسيق بين الفكر والعمل.

نعم، قد يُفهم أن الربيع العربي أخذ الجميع على حين غرة، وتغيرت الأحوال وتبدلت بين عشية وضحاها، فكان طبيعياً أن يقع الارتباك على مستوى التأصيل، ومجاراة الأحداث والمستجدات، خاصة مع القطيعة السابقة مع كل ما يمت للسياسة بصلة، لكن هذا لا يعفي من تأسيس فقه مناسب للمرحلة مبني على أساس علمي رصين ومتين.

- **توضيح الرؤية:** ذلك أن الربيع العربي خلط كثيراً من الأوراق، وأحدث بسبب فجائيته وسرعته اضطراباً في المتابعة والمسايرة، فلذلك لا بد من تبني رؤية واضحة المرامي والأهداف، نيرة الوسائل والمسالك، خاصة من بعض القضايا المثيرة للجدل، فلا يمكن بعد عقود من معارضة الاشتغال بالسياسة، خوض غمارها، ودخول مضمارها، (عبر تأييد الدستور، ومساندة العدالة والتنمية)، إلا بمنهجية علمية واضحة المعالم والمرتكزات، ما يجعل الموقف مقنعاً، ويدرأ كثيراً من التمزق والتشرذم داخل الصف.

- **بناء علاقات قوية مع مختلف أطراف العمل الإسلامي،** وإحداث قطيعة مع ماضي التبديع والتفسيق والتضليل لكل الفصائل الأخرى، ومد جسور الأخوة والمودة لها، وفتح أبواب التعاون معها، والإيمان بضرورة الإعذار والتغافر، وتقدير اجتهاد الآخر وتعبده، مع التناصح والتشاور والتواصل. قال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢ – ١٠٣].

وما أحب الإشارة إليه في هذا الباب، هو أن هذا المسلك لا ينبغي أن يكون مرحلياً أو تكتيكياً أملته ظروف وصول الإسلاميين إلى الحكم، ولكن عن تفكير واعٍ وعميق بضرورة التحام الصفوف، وجمع الكلمة، وتوحيد الجهود، ودرء التنازع والتهارج، واعتبار الجميع يركب مركباً واحداً هو مركب النجاة، ولكل فيه وظيفته التي يسد ثغرها، ويكفي غيره حملها.

قال القرطبي – رحمه الله –: (مَنْ تَأَمَّلَ مَا دَار بَيْنَ أَبِي بَكْر وَعَلِيٍّ مِنْ الْمُعَاتَبَة وَمِنْ الاعْتِذَار وَمَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ مِنْ الإِنْصَاف عَرَفَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَعْتَرِفُ بِفَضْلِ الآخَر، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ مُتَّفِقَة عَلَى الاحْتِرَام وَالْمَحَبَّة، وَإِنْ كَانَ الطَّبْع الْبَشَرِيّ قَدْ يَغْلِب أَحْيَانًا لَكِنَّ الدِّيَانَة تَرُدُّ ذَلِكَ وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: (والخير كل الخير في اتباع السلف الصالح والاستكثار من معرفة حديث رسول الله ﷺ، والتفقه فيه، والاعتصام بحبل الله، وملازمة ما يدعو إلى الجماعة والألفة، ومجانبة ما يدعو إلى الخلاف والفرقة).

وأنا لا أقول هذا الكلام اتهاماً لإخواني – حاشا لله –، لكن تنبيهاً مني لهم ليسدوا أفواه بعض من يرى أن علاقتهم لم تتغيّر إلا بالإسلاميين المشاركين في الحكومة، وفي هذا من الغمز ما يجب دفعه بتكوين علاقات طيبة مع كل المكونات الإسلامية المنتسبة للسنة.

- **الموازنة بين المساندة والمراقبة، وهذا ما يعطي مصداقية للاختيار،** فهذا الاختيار ليس مساراً قطعياً يجب الوفاء له مهما كانت الأحوال، وليس ثابتاً غير قابل للتغير مهما تبدلت الأزمان، بل للمشاركين في الحكم علينا حق التقويم والنصح والترشيد، وألا نكون أسرى لمواقف التطبيل والتزمير، بل لا بد أحياناً من سلوك مسالك النقد البنّاء، والنصيحة الموجهة، والمعارضة المخلصة، ولا بد أن تعرف الأمة منا عند الحاجة مواقف صدق تعبّر عن أصالة الانتماء للسلف ومناهجهم في قول الحق وعدم المحاباة فيه، في إطار واضح من الموازنة بين المصالح والمفاسد.

- **المحافظة على لحمة الصف،** إذ من شأن الأحداث الكبرى كالتي نعيشها اليوم، وما يترتب عليها من اختيارات ومواقف؛ تنوع الآراء واختلافها، بل تضادها أحياناً وتناقضها، ما يهدد بحدوث انقسامات وانشقاقات داخل الصف الواحد، وهذا أمر اعتيادي وطبيعي، وإنما المطلوب تخفيف ذلك ما أمكن، عبر الحوار الداخلي، وإشراك أكثر ما يمكن من الفاعلين في القرار، مع قوة التأصيل ووضوح الرؤية.

المعارضون لخيار المشاركة:

وهم يشكلون قطاعاً واسعاً أيضاً من الإسلاميين، خاصة مع تبني حركة العدل والإحسان ذات الشعبية الواسعة هذا الخيار، ومعها بعض التيارات الصغيرة أو الحديثة النشـــأة، ولمســـلكهم هذا أيضاً دوافعه وتقديراته وأسبابه، منها ما هو مفهوم، ومنها مـــا هو غير مفهـــوم، لكن يبقى اجتهاداً لـــه نصيبه الوافر من النظر، وإنمـــا الذي ينبغي التنبه إليه هـــو أن هذا الخيار في نظري يفرض على مختاريه عدة تحديات، من أهمها:

- **تجليـة الصـورة وتوضيـح الرؤيـة:** وهذا في نظري أهم تحدٍّ أمـــام أهم فصيل في هذا المعســـكر، لأن حالة كبيرة من الغموض تتلبس مشـــروعه وأهدافه، حيث يصعب على المتتبع فهم ذلك واســـتيعابه، فماذا يريدون بالضبـــط؟ أيريدون ثورة تســـقط النظام كما حصـــل في البلدان الأخـــرى؟ وكما يفهم المتتبّع لبياناتهم ومقارناتهم للحالة المغربية بالحالتين التونسية والمصريـــة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يحجمون عن إعلانه وقد خرجوا للشـــارع وملكوا ناصيته وتحكموا في سيره وتدبيره؟ ثم ما معنى انســـحابهم من الحراك في وقت شـــديد الحساسية، ومساهمتهم في إنهاء الحراك، أو على الأقل تعطيله؟

وإذا كانـــوا لا يطمحون لإســـقاط النظام، ويســـعون إلى المحافظـــة عليه، مع القيـــام بإصلاحات؛ فلِـــمَ هذه الحروب الشـــعواء على من اختار الإصلاح من داخل النظام، جلباً لأكبر قدر من المصالح، ودفعاً لما يمكن من المفاسد؟

الحركة الإســـلامية مطالبة بأن تكون واضحة في برامجها وأهدافها ووســـائلها، لتحقق أكبر قدر ممكن من الاستقطاب، وتكون أكثر إقناعاً بمشروعها، أما المساحات الضبابية فتشكك في حقيقة هذا المشروع وأهدافه.

- **الخروج مـن التقوقع على الذات:** وهذا ملحظ أغلب من التقيتهم مـــن الفاعلين في الميدان، فحركة العدل والإحســـان تتقصـــد الانزواء على ذاتها، وتقليل ســـبل التواصل بينها وبين غيرها من المكونـــات، وهذا لا أرى فيه مصلحة للأمة بقدر ما يكون فيه من المصلحة الخاصة، والحركة الإسلامية مشروعها ليس إلا جـــزءاً من عمل متنوع مختلف المآخـــذ والهدف، ولن تتمكّن أي حركة لوحدها وبانفراديتها وانعزاليتها من أن تحقق الهدف المنشود.

بـــل أحياناً إن المرء ليحزن حين يجد تواصل بعض العاملين في الحقل الإســـلامي مع التنظيمات العَلمانية واليسارية أقوى منه مـــع أبناء الحركة الإســـلامية، بحجة البحـــث عن موقع

ضمن الخريطة السياســـية، وإقناع الآخر بمـــدى (الاعتدال) و(الوســـطية)، وهذا في نظري خلل في التصور لا بد لإخواننا من معالجته وإعادة النظر في أولوياته وعلاقاته.

- **عـدم التفـرد بالقرار:** فقد اتخذت قـــرارات عديدة من طرف مكونات هذا التيار، دون تنســـيق سابق أو حتى تشاور أو حتـــى إخبار أدبي، ولا يقع التواصل غالباً إلا بعد إعلان القرار من باب التفسير ليس إلا، وما أخشاه على إخواننا هو أن يكون ذلك نابعاً عن نوع من الغرور من حيث لا يشـــعرون، فما يكون أثره على المشـــروع الإســـلامي ككل ينبغي أن يستشار فيه كل الفاعلين في الباب والعاملين فيه.

- **الموازنـة بين الشـرع والواقـع:** وتجنّبت عبارة الموازنة بين الشرع والسياســـة، لأن السياسة من الشرع، والقصد أن كثيراً من المواقف والاختيـــارات عند بعض هذه الحـــركات، متأثرة بالواقع أكثر من اعتمادها على أسس علمية شرعية رصينة، ما يعرضها للزلل في كثير من الأحوال، ويجعل من العسير التفريق بين الحركة ذات المرجعية الإسلامية وغيرها من الحركات التي لها مرجعية مختلفة.

هذا ما يظهر لي مـــن التحديات التي رفعها الربيع العربي في وجه الحركات الإسلامية، أطرحها أملاً مني في أن تتمكّن هذه الحركات، على اختـــلاف توجهاتها واختياراتها ومواقعها، من ريادة هذه الأمة، والسعي بها إلى ما يصلح دنياها وأخراها، وأعظـــم هذه التحديات وأولاها وأرفعهـــا، هو تحقيق العبودية للـــه، وإخلاص القصد له، وإصلاح النيات، وتعليق القلوب بالله تعالـــى، وتطهير النفوس من كل الدواخل الرديئة.. نســـأل الله التوفيق في القول والعمل.

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

جديد ..

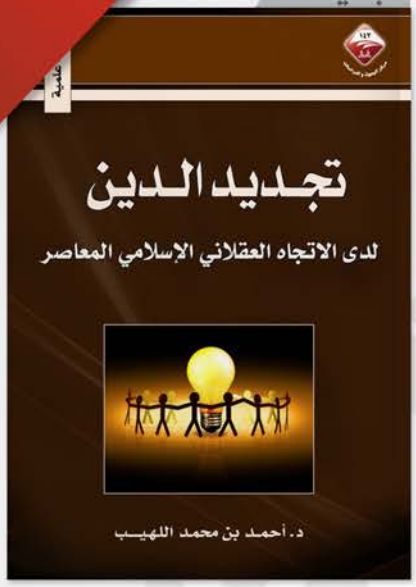

جديد ..

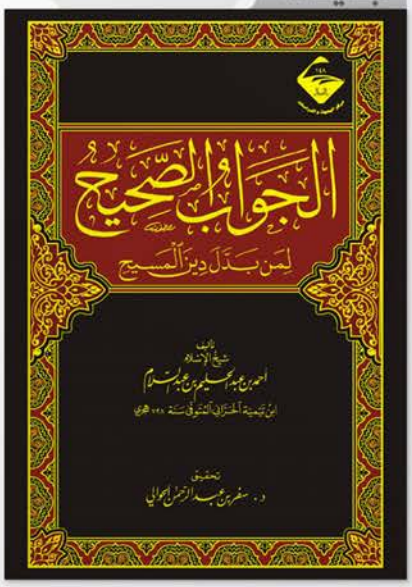

جديد ..

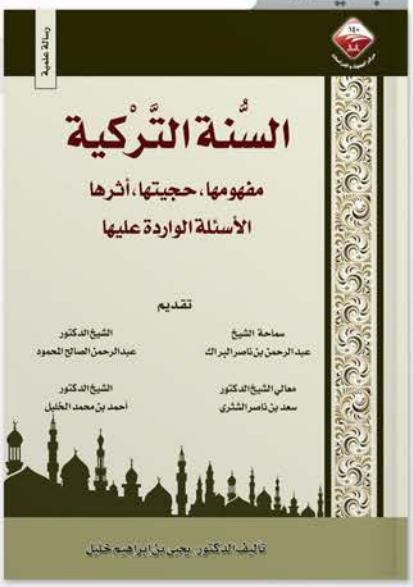

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

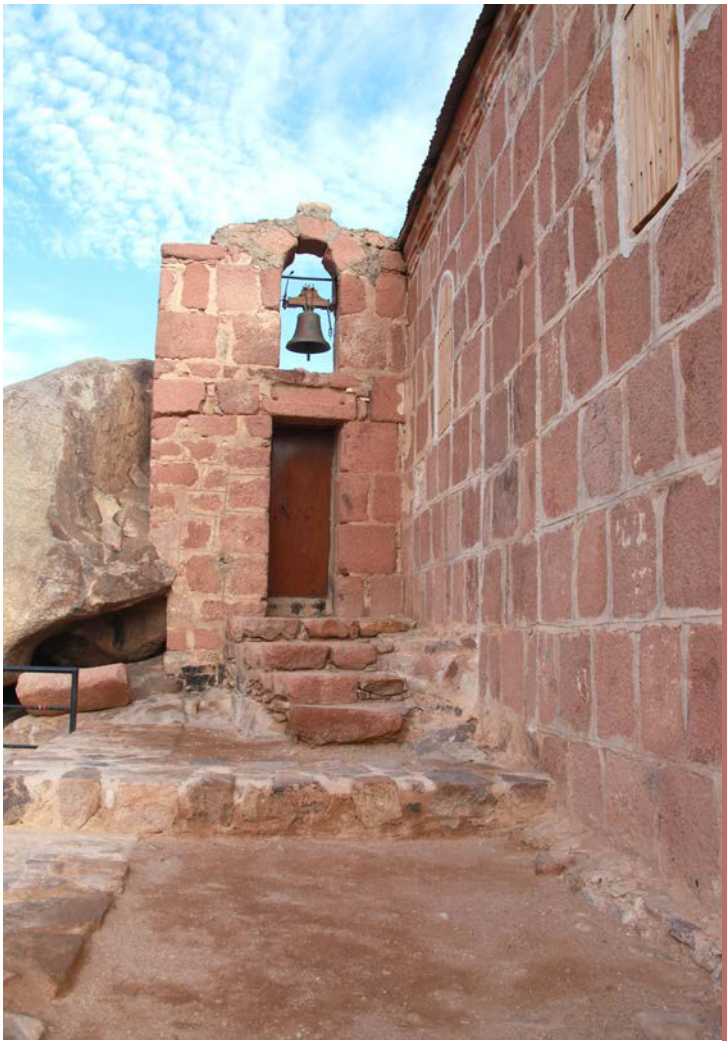

الكنيسة المصرية

ودماء الإساءة للنبي الكريم

عصام زيدان(*)

بعدما تولى شنودة الثالث منصبه كرأس للكنيسة في بداية السبعينيات من القرن الماضي خلفاً للبابا كيرلس، اختلف حال الكنيسة الأرثوذكسية في مصر اختلافاً جذرياً، حيث خطّ شنودة للأقباط خطاً مغايراً لكل من سبقه، وقاد الكنيسة إلى ما يمكن أن نسميه «المسيحيّة السياسية».

فكانت الكنيسة، حتى قبيل تولي شنودة منصبه، تكتفي بدورها الكهنوتي الديني، ولم يكن يعرف لها بعد سياسي، وحينما تولى شنودة سدة البابوية راح يتخذ من الأدوات والآليات التي تسمح بتمدّد نفوذ الكنيسة من الرهبنة والنشاط الديني إلى المعترك والمسرح السياسي، معتقداً أن هذا التمدد يمكن أن يحقق للأقباط امتيازات ومكاسب ضخمة على الأصعدة كافة، وفي مقدمتها السياسة.

وهكذا انتقلت مهمات الكنيسة المصرية من مجرد الإشراف والتوجيه الديني إلى تحديد الخيارات السياسية للأقباط والتفاوض نيابة عنهم مع النظام الموجود حينذاك.

واللافت في تلك الحقبة التي كان فيها شنودة على رأس الكنيسة، أيضاً، تزايد الاستفزاز لمشاعر المسلمين الذي مارسته الكنيسة والذي لا يمكن وصفه بالعفوي أو غير المقصود، وقد تجلى ذلك على سبيل المثال في حادثة كنيسة محرم بك في الإسكندرية عام ٢٠٠٥، وإخراج مسرحية تسخر

(*) باحث في الشؤون السياسية.

من بعض الشعائر والمقدسات الإسلامية، ومن قبلها كان الإصرار على تسليم «وفاء قسطنطين» إلى الكنيسة واعتقالها في أحد الأديرة بوادي النطرون، حيث مقر اعتكاف البابا شنودة عام ٢٠٠٤.

ولذا؛ فإن ما جاء في الفيلم المسيء للنبي الكريم، الذي ظهر مؤخراً، هو على وجه الحقيقة يتردّد منذ زمن في الكنيسة الأرثوذكسية، وفي القنوات الفضائية المسيحية، والغرف الصوتية، والمنتديات التنصيرية، ومن شخصيات رسمية كنسية.

وقد عكس تصريح خطير للأنبا ماكس ميشيل، المعروف باسم ماكسيموس الأول، «راعي كنيسة المقطم»؛ هذه الحالة في عهد شنودة بقوله: «لم تشهد مصر أي أحداث طائفية إلا في عهد البابا شنودة؛ نظراً لتعامله مع هذه الأحداث بشكل تسبّب في تأجيج الوضع الطائفي، فكانت سياساته بمنزلة الذي يسكب الزيت على النار، فقد كان يحرض الأقباط على الثأر من المسلمين وحمل السلاح، وقد شاهدت إحدى هذه الوقائع بعيني عندما كنت في الكنيسة وسمعته يطالب مجموعة من المسيحيين برفع راية الاستشهاد وعدم العودة إلى الكنيسة إلا وهم أموات». (المصري اليوم ٢٠٠٦/٧/٢).

وفي إطار تسييس الكنيسة الأرثوذكسية، كذلك، لا يخفى الدور الذي لعبه شنودة في دعم وتكوين ما عُرف بمنظمات أقباط المهجر، فعندما تولى شنودة منصب البابوية لم يتجاوز عدد الكنائس القبطية في المهجر سبع كنائس فقط، أما الآن فقد قاربت المائتي كنيسة؛ منها ٨٠ كنيسة تقريباً في الولايات المتحدة، و٥٠ في أوروبا، وقد اعتبرت هذه المنظمات بمنزلة قنطرة التأثير السياسي من الخارج على صانع القرار المصري.

وفي مرحلة ما بعد شنودة وجدت الكنيسة المصرية نفسها في مأزق كبير تمثل في ثلاثة متغيرات:

الأول: غياب شنودة، العقل المدبّر لهذا التوجه.

الثاني: تغيير نظام الحكم في مصر بتغييب السلطة التي طالما خضعت لضغوط الأقباط.

الثالث: صعود تيار الإسلام السياسي على منصة الحكم.

والظاهر أن الكنيسة أرادت أن تستمر في أداء دورها والاستمرار على النهج الذي تركها عليه شنودة، والذي يتمثل في ثلاث ركائز أساسية:

الركيزة الأولى: التأثير في القرار السياسي بما يخدم مصالح الأقباط كطائفة داخل المجتمع المصري ولو على حساب المجتمع بأسره.

الركيزة الثانية: الاعتماد على الذراع الخارجية المثلة في أقباط المهجر للضغط على النظام السياسي الداخلي، وتحقيق مكاسب قبطية، فالكنيسة، بدلاً من أن تمارس أدوارها السياسية بذاتها وتدخل في مواجهة ربما لا تكون محسوبة مع تغير البيئة السياسية في الداخل المصري وذهاب الظهير المساند الممثل في النظام المخلوع الذي صاحبه، كذلك، غياب الموجه والمؤسس لهذا التوجه؛ اتخذت من أقباط المهجر رافعة للوصول إلى مآربها وأهدافها.

الركيزة الثالثة: إيجاد مناعة لدى جمهور النصارى في مصر من التأثر بالإسلام؛ من خلال الإساءات المستمرة للمقدسات الإسلامية، واستنفار حاستهم الدينية في مواجهة المسلمين.

ومن هنا، نستطيع أن نفهم دور الكنيسة المصرية في الفيلم المسيء للنبي الكريم، والمسمى «براءة المسلمين»، فمن البداية سنجد الخيوط كلها تقودنا إلى مسؤولية الكنيسة في مصر عن هذا الفيلم، كونها الراعية الرسمية لأقباط المهجر الذين يأتمرون بأمر تلك الكنيسة التي كان لها اليد الطولى في إنشاء وتمكين أقباط المهجر، خاصة في الولايات المتحدة، على نحو ما عرضنا سابقاً.

كما أن أقباط المهجر التسعة المشاركين في إنتاج الفيلم المسيء، أنتجوه باللغة العامية المصرية، وليس باللغة العربية الفصحى، وهو ما يحمل دلالة على السوق الذي أراد منتجو الفيلم أن يتوجه إليه، فهل يمكن أن يغزو هؤلاء التسعة بلادنا بهذه الإساءة دون علم ومعرفة وموافقة الكنيسة الأم في مصر؟!

وللتأكيد على الدور الذي لعبته الكنيسة المصرية في إنتاج هذا الفيلم، سنجد أن كاتبه المسيء، نيقولا باسيلي، اعتمد على مصدرين اثنين في الكتابة: الأول: رواية مسيئة للرسول الكريم كتبها القمص مرقس عزيز، وهو كاهن كنيسة من مصر مقيم في الولايات المتحدة. والمصدر الثاني: مجلة رسوم ساخرة من الرسول الكريم طبعها القمص ذاته في الولايات المتحدة عام ٢٠١٠.

وكمـــا تقول صحيفة لـــوس أنجلوس تايمـــز، فإن القس المصري المتطرف زكريا بطرس هو الآخر من المســـؤولين عن الفيلم المســـيء للرســـول، مؤكدة أن كل صنّاع الفيلم، وعلى رأســـهم عصمت زقلمـــة، الداعي إلى تقســـيم مصر ورئيس الدولـــة القبطية المزعومـــة، وموريس صـــادق، الذي يهاجم مصر في كل المحافـــل الدولية؛ من أتباع القس زكريا بطرس والمؤمنين بأفكاره.

وبطرس، هذا، يتحدث دائماً وهو يرتدي الزي الرســـمي للكنيســـة المصرية، وكتبه تحمل صورة شـــنودة، وكان يلتقي شـــنودة في الولايات المتحدة كلما ذهب إليها هذا الأخير، بل حين ســـئل شنودة عما يردّده بطرس لم ينكر عليه، بل تحدث بما يشير إلى تأييده.

ثم إننا نجد أن باســـيلي اعتمد فـــي التمويل على أموال أرسلتها زوجته المصرية.. فهل تركته زوجته يدخل السجن في قضية مالية وأشـــفقت عليه وأغدقت عليه مالاً لينتج الفيلم المسيء، أم أن أموال الكنيســـة المصرية الخارجة عن الرقابة كانت هي المصدر الرئيس لإنتاج وتمويل الفيلم؟!

فكل هذه الشـــواهد والدلالات تؤكد أن للكنيسة المصرية ســـهماً وافراً في هذا الفيلم المســـيء، وتلوثـــت يدها بدماء الإساءة للنبي الكريم.

وهذا مـــا يقودنا إلى الســـؤال الأهم، وهـــو عن ماهية الأهداف التي تســـعى إليها الكنيسة في مصر من نشر هذا الفيلم في هذا التوقيت؟

ونحن نرى أن هناك عدة أسباب كانت من وراء نشر هذا الفيلم في هذا التوقيت، منها:

أولاً: إعطاء رسالة واضحة لصنّاع السياسة في مصر، ولكاتبي الدستور المصري الجديد، أنه حتى مع غياب نظام الرئيس المخلوع، وهلاك رأس الكنيسة شنودة؛ فإن الكنيسة ما زال لها مخالب قوية تستطيع أن تؤثر بها على مسار الحياة الاجتماعية في مصر، ومن ثـــم لا بد من مراعاتها في بنية النظام السياســـي الجديد، وعند كتابة الدســـتور، وإلا فإن موجات الإساءة وما تستتبعه من موجات غضب وافتعال مواقف حادة بين المسلمين والنصارى في مصر؛ لن تهدأ أبداً حتى ينال نصارى مصر ما يريدون.

ثانيـــاً: التأثير في عصب العلاقـــة المصرية – الأمريكية، والاســـتحواذ على عصا التحويلة في هـــذه العلاقات، ومما لا شـــك فيه أن موجات الغضب التي تلت نشـــر هذا الفيلم، ومهاجمة ســـفارات الدول الغربية، وفـــي مقدمتها الولايات المتحـــدة، وهي كلها أمور محســـوبة ومعلومة؛ تركت بصمات سياسية في مسار تلك العلاقة بعد أن كانت في نقطة انطلاق صحيحة، حيث منعت الولايات المتحدة معونات اقتصادية عن مصر، وأغلق باب اللقاء المرتقب بين الرئيس المصري ونظيره الأمريكي، وتعالت الأصوات الأمريكية مجدداً مطالبة بضرورة إعادة النظر في سياستها مع مصر بعد تمكّن التيار الإسلامي من الوصول للقصر الرئاســـي، وأصبحـــت، مصر، كما يقول الرئيس الأمريكي أوباما، «لا حليف ولا عدو».

ثالثـــاً: مع وجود التظاهرات الغاضبة على نشـــر الفيلم، وهو أمر معلوم ومحســـوب بصورة جيدة، كما أسلفنا القول، تمكّن نصارى مصر مـــن إعطاء انطباع خارجي متوهم بأنهم مضطهـــدون، ومن ثم جاءت الأصـــوات المنادية بدولة قبطية أو تدخل لحماية الأقبـــاط، وهي ورقة أراد نصارى مصر أن يلاعبوا بها النظام السياســـي الجديد في رســـالة مضمونها أنهـــم وإن كانوا أقلية في الداخل، إلا أنهم أغلبية في الخارج، ولذا يجب على ســـاكني القصر الجدد فهم أوراق اللعب، وأن يعلموا أين مصادر القوة والتأثير.

رابعاً: إحـــراج القيادة الجديدة، في ثوبها الإســـلامي، وإظهارها أمام العالم بأنها طائفية تمارس العمل السياســـي بمنطلقـــات عقدية تضطهد النصارى، وذلك في حالة إذا ما اتخذت هذه القيادة رد فعل يناســـب هذا الجرم الأخلاقي، أو إظهارها ضعيفة متخاذلة أمام أتباعها ومريديها، إن هي لم تتخذ القرار الذي يتناســـب مع هذا العمل المسيء، وذلك كله بهدف إعادة ترســـيم حدود القـــوى والنفوذ في المجتمع المصري.

وكما نرى فالكنيســـة في مصر تمكّنت من تحقيق بعض أهدافها من إنتاج ونشر هذا الفيلم المسيء، وهو ما يستدعي من قـــوى المجتمع في مصر أن يتحسّســـوا طريقـــاً لتحرير نصارى البلاد من قبضة الكنيســـة، ثم يحرّروا الكنيســـة من الغُلاة المتحكمين فيها، متحلين بالفطنة والذكاء، عامدين إلى قطع أنبوب التغذية الممتد من كنيسة مصر إلى أقباط المهجر، الذين هم آلة التأثير القبطـــي الخارجي والذراع التي تعتمد عليها الكنيسة في مواجهة الدولة والمجتمع.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

«إرهاب العصابة الأسدية»

محمود ثروت أبو الفضل

اسم الكتاب: إرهاب العصابة الأسدية خارج سورية.

المؤلف: د. محمد الداخل.

سنة النشر: ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

دار النشر: المؤسسة السورية للنشر والتوزيع.

الطبعة: الثالثة (مزيدة ومنقحة).

صفحات الكتاب: ١١٤.

فاق إجرام النظام الحاكم في سورية كل الحدود في الثورة السورية الأخيرة، واتسم بنعرات طائفية وعصبية شديدة الحقد على الشعب السوري، حيث سلك النظام بأجهزة قمعه المختلفة من جيش ومخابرات وقوات أمن، أبشع الأساليب البربرية والوحشية لإخماد لهيب تلك الثورة؛ من ذبح للأطفال، وقتل للنساء، ودفن للناس أحياء، ناهيك عن اصطياد النشطاء من شباب الساحات الشعبية، وصنع مجاعات قمعية لقرى كاملة بغرض قتل تلك المقاومة التي لا يزال أوار لهيبها مشتعلاً صامداً رغم مرور أكثر من سنة على بداية الانتفاضة السورية.

وهذا الكتاب «إرهاب العصابة الأسدية خارج سورية» للدكتور «محمد الداخل»، والذي صدرت طبعته الثالثة منذ شهور قليلة؛ يعدّ وثيقة حية على عتاقة وقدم عهد هذا النظام السوري في حرب الاغتيالات والإجرام الموجَّه والخيانات منذ تولي آل الأسد حكم سورية، حيث يحكي سجلاً كاملاً للإرهاب السوري ضد جميع المقاومين لطغيان النظام السوري منذ بدايات التسعينيات، وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨١م، ثم صدرت نسخته الثانية مزودة بالسجل الجديد للإجرام السوري عام ٢٠١١م مع تجدد المقاومة السورية الشعبية في لهيب الثورات الأخيرة، ثم تم إصدار هذه الطبعة بعد شهور قليلة من نفاد الطبعة الثانية ورواجها.

يقول الكاتب في مقدمته لهذا الكتاب بشأن ما تضمنه من حقائق حول انتهاكات النظام الحاكم خارج الأراضي السورية: «إنه ليس إرهاباً سورياً.. فشعب سورية الطيب أخ وشقيق لكل العرب.. إنه إرهاب النظام الطائفي القرمطي خارج الحدود السورية فقط، وكما انتشر في الماضي الإرهاب القرمطي في كل الجزيرة العربية حتى وصل الكعبة المشرفة وقتل الحجاج وبقر بطون النساء، فإن الإرهاب الطائفي القرمطي الجديد يسلك نفس الدرب ولن ينكفئ وتبتلعه الأرض حتى يتضامن العرب كل العرب مع الشعب السوري المجاهد.. ألا هل بلغنا.. اللهم فاشهد..» ص ٥.

عرض الكتاب:

يورد الكاتب سجلاً توثيقياً لإرهاب النظام الحاكم لكثير من المعارضين لقمع العصابة الأسدية، وعمليات استهداف المعارضين من صحفيين وساسة بالقتل والترويع والسجن والتعذيب؛ وذلك منذ تولي حافظ الأسد الحكم عام ١٩٧٠م بانقلاب عسكري، حيث كان النظام الحاكم يبعث بسرايا اغتيالاته وراءهم إذا استطاعوا الخروج من سورية، ليتم قتلهم غيلة، وذلك في الدول التي لجؤوا إليها، بل العمل على تخويف الدول العربية الجارة بأساليب إرهابية ردعية عقاباً لها إذا لم تتسق سياساتها مع هوى النظام الحاكم، الحارس لحدود إسرائيل في هضبة الجولان منذ ما يزيد على أربعين عاماً!

وقد ختم الكاتب كتابه بمجموعة من الشهادات التوثيقية لما جاء في الكتاب من جرائم تحت عنوان «شهادات للتاريخ»، جمع فيها فقرات من كتاب السياسي كمال جنبلاط «هذه وصيتي» عن مسلسل التدخل السوري في لبنان، والذي تم اغتياله عام ١٩٧٧م بتورط من المخابرات السورية، وكذلك بعض وقائع جلسات مجلس الأمة الكويتي والمجلس الاستشاري الأردني بعد التدخلات السورية الإجرامية في الكويت والأردن، وأيضاً وضعَ «بليوجرافيا» وشريطاً تاريخياً لمسلسل الاغتيالات والاختطافات والتخريبات منذ تولي عصابة الأسد حكم سورية.

اغتيال سليم اللوزي:

لعل من أهم العمليات التي قام بها نظام المخابرات السوري وأفظعها، هي محاولة الاغتيال الناجحة للصحفي اللبناني «سليم اللوزي»، رئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية، وهو في طريقه من مطار بيروت إلى بيته، حيث اختطف ووجد بعد أيام في أحراش «هرمون» بتاريخ ١٩٨٠/٣/٤ وقد هُشّم رأسه وحُرقت يداه حتى العظم التي كان يكتب بهما المقالات المنتقدة لتجاوزات النظام الحاكم في سورية وتدخلاته في لبنان.

وقد تم القبض على أحد العناصر الأمنية السورية الذي اعترف بأنه عذب سليم اللوزي بالكهرباء، وقام بإحراق يده التي كان يكتب بها؛ بناءً على أوامر قيادته العليا، وبعد تعذيبه تم اغتياله بدم بارد.

ولعل أسلوب كسر يد رسام الكاريكاتير «علي فرزات»، ونحر إبراهيم «القاشوش» واقتلاع حنجرته التي كان ينشد بها الأهازيج في الساحات الشعبية أثناء أحداث الثورة؛ يبيّن أن هذه الأساليب ليست بجديدة على النظام السوري بعد تتبع حالة الصحفي «سليم اللوزي» وغيرها من الحالات التي ذكرها الكاتب.

اغتيال بنان الطنطاوي:

لعل من أبرز الاغتيالات التي تورط بها النظام السوري الحاكم هو محاولة اغتيال القائد الإخواني والرمز الإسلامي الأستاذ «عصام العطار»، الذي انتخب رئيساً للإخوان عام ١٩٦١، كما انتخب نائباً لمدينة دمشق ورئيساً للجبهة الإسلامية في آخر برلمان سوري شرعي، وقد لجأ العطار إلى المعارضة للنظام السوري، وتم منعه من دخول البلاد عام ١٩٦٤ بعد عودته من أداء فريضة الحج، فلجأ وأسرته إلى ألمانيا، وعاش هناك في مدينة «آخن» مديراً للمركز الإسلامي فيها.

وقد دبر النظام السوري محاولة لاغتياله وأفراد أسرته في يوم ١٩٨١/٣/١٧، لكن لم يكن متواجداً في البيت ساعتها سوى زوجته «بنان الطنطاوي» ابنة الشيخ الجليل «علي الطنطاوي»، فتم إطلاق خمس رصاصات عليها أردتها شهيدة.

وقد علق الأستاذ «عصام العطار» على هذا الحادث الأثيم بعد تشييع جثمانها قائلاً: «اسمع مني.. لو قتلوا أفراد أسرتي فرداً فرداً تحت عيني، ولو قتلوني ألف مرة ثم عدت إلى الحياة، لتابعت الجهاد في سبيل الله».

مسلسل الاغتيالات:

وكما دبّر النظام السوري قتل الصحفي «سليم اللوزي»، دبّر أيضاً سلسلة من الاغتيالات لكبار الصحفيين والسياسيين، وعلى رأسهم نقيب الصحفيين اللبنانيين «رياض طه»، الذي اغتيل صباح يوم ١٩٨٠/٧/٢٣م، وذلك بعد أقل من خمسة أشهر فقط من اغتيال سليم اللوزي.

وهذا الاغتيال جاء بعد يومين فقط من اغتيال «صلاح البيطار»، أحد مؤسسي حزب البعث والخارجين عن نظام الأسد، وذلك في باريس.

وبعد أسبوع واحد من اغتيال «البيطار» اغتيل «عبدالوهاب البكري»، والذي كان ذنبه أنه كان قاضياً عسكرياً عام ١٩٦٢ وقام وقتها بالتحقيق مع عدد من الضباط المتآمرين من بينهم «حافظ الأسد»، وذلك في الأردن.

واستمرت سلسلة الاغتيالات، ففي يوم ١٩٨٠/٧/٢٨ اغتيل «موسى شعيب»، أحد قادة حزب البعث في لبنان، حيث عمدت سرايا دفاع النظام السوري لاغتياله لمعارضته النظام.

وفي يوم ١٩٨٠/٧/٣٠ قامت نفس العصابات باغتيال «علي الزين»، قيادي في حزب البعث. وفي ١٩٨١/٥/٢٩ تم اغتيال «عدنان سنو»، عضو بحزب البعث في بيروت، بمسدس كاتم للصوت.

وبتاريخ ١٩٨١/١٠/١ تم اغتيال الطالب «محمود ودعة» في يوغسلافيا، حيث كان يدرس هناك الهندسة الميكانيكية، وكان يندد بالمجازر التي يرتكبها النظام الأسدي بحق الإخوان المسلمين في مدينة حماه وقتها وسط الطلاب العرب والسوريين هناك، فتم إطلاق رصاصة عليه من الخلف أردته قتيلاً.

وفي ١٩٨٢/١١/٢٢ تم اغتيال الداعية نزار أحمد الصباغ، إخواني الانتماء، وذلك في إسبانيا التي لجأ إليها بعد التضييق عليه من المخابرات السورية، واستطاع هناك تأسيس نظام دعوي إسلامي، كما أقام أول اتحاد للطلبة المسلمين في إسبانيا، وترجم العديد من الكتب الإسلامية للغة الإسبانية، كان آخرها «حياة محمد»، عبر دار للترجمة والنشر أنشأها في إسبانيا، وأسهم في ترجمة معاني القرآن الكريم للغة الإسبانية.. وقد تم اغتياله وهو في طريقه للمركز الإسلامي ببرشلونة، حيث أطلق عليه الرصاص، وأشارت التحقيقات إلى تورط عناصر سورية في اغتياله.

إرهاب على الساحة العربية:

أرسل النظام السوري عديداً من المجموعات التخريبية إلى البلاد العربية بغرض تنفيذ عمليات إجرامية في تلك البلدان؛ لترهيبها وتخويفها وابتزازها.

ولعل من أبرز تلك العمليات التي كشفت للعيان: عملية جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت في ١٩٨٠/١١/١٧، وإلقاء متفجرة على مطعم «يا مال الشام» الذي يملكه سوري معارض في دبي بالإمارات في ١٩٨١/٣/١، ومحاولة اغتيال رئيس الوزراء الأردني «مضر بدران» في ١٩٨١/٢/٢٥، واكتشاف أسلحة ومتفجرات وسموم في السفارة السورية ببغداد في ١٩٨٠/٨/١٨، ومصادرة السلطات الأردنية شاحنة كانت تقل أسلحة و٥٠ ألف طلقة رصاص كانت في طريقها لمعرض الفاكهة في الرياض بالمملكة العربية السعودية في ١٩٨١/٦/٢٩، إلى جانب خطف القائم بالأعمال الأردني في بيروت «هشام المحيسن» في ١٩٨١/٢/٦.

كما أذاعت الإذاعة التركية في ١٩٨١/٥/٢٣ خبر ضبط أسلحة روسية مرسلة من سورية إلى تركيا تتضمن قاذفات صواريخ ومدافع مضادة للطائرات ومخازن ذخيرة وبنادق كلاشينكوف، وقد علقت جريدة «صون حوادث» التركية على هذا الحادث بقولها: «إن هذه الأسلحة في حقيقتها لم توجه إلا لضرب الشعب التركي نفسه بنفسه ولتجزئته وتقسيم تركيا، وهذا ما يدعونا للجزم بأن لسورية ضلعاً في دخول هذه الأسلحة لتحقيق أحلام روسيا في المنطقة»!

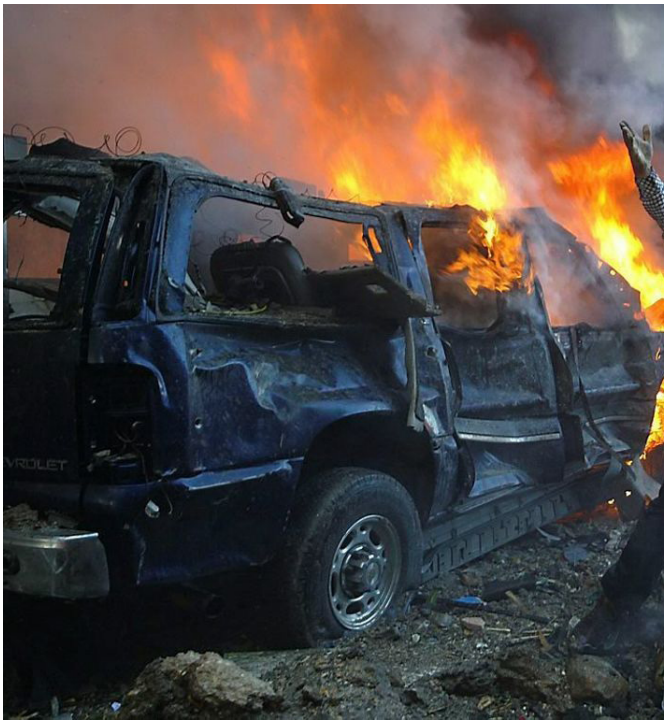

سورية في لبنان:

لعل الملف السوري في لبنان من أعقد الملفات الدولية وأشدها تداخلاً وتشابكاً، فالنظام السوري فرض الوصاية على لبنان منذ أمد بعيد، ولا يقبل بأي تدخلات قد تحد من سيطرته، أو تعوق حرية حركة سرايا دفاعه واغتيالاته المنتشرة في لبنان منذ بدايات التسعينيات.

ولعل اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري في ٢٠٠٥/٢/١٤ في انفجار ضخم لسيارته ببيروت هو و٢٢ من مرافقيه والمارة، وذلك رداً على تدخلات الحريري لإصدار القرار الأممي رقم ١٥٥٩ القاضي بمنع أي تدخلات دولية في لبنان، وانسحاب جميع القوات الأجنبية من لبنان، ومن ثم انسحاب النظام السوري من لبنان بموجبه.

وفي مقابلة لعبدالحليم خدام - وزير الخارجية السورية الأسبق - مع قناة العربية، جاء فيها بيان للانتقادات والضغوطات التي مورست على حكومة الحريري في لبنان من قبل النظام السوري، حيث قال: «في لقاء فريد من نوعه لرفيق الحريري مع بشار الأسد، قال الأخير مخاطباً الأول: أنت تريد أن تأتي رئيساً للبنان.. أنت تريد كذا.. أنا لا أسمح لك، سأسحق كل من يحاول أن يخرج عن قرارنا..!!».

وقد تم تدبير شريط مفبرك من المخابرات السورية، وتم إرساله إلى مدير مكتب الجزيرة في بيروت، لإيهام الإعلام بتورط عناصر مسلحة ذات صبغة إسلامية في قتل الحريري.

وهم المقاومة:

أشار كثير من السياسيين إلى وهم المقاومة السورية للعدو الصهيوني، وأسطورة عدم التهاون في شبر من الأرض السورية وهضبة الجولان، فقد أثبتت شهادات التاريخ أن القادة السوريين أنفسهم وعلى رأسهم الأسد هم من سلموا هضبة الجولان دون أن يطلقوا رصاصة واحدة على جيش الاحتلال الصهيوني، بل الأدهى وجدناهم يوجهون رصاصهم وصواريخهم إلى صدر الشعب السوري الأعزل كما رأينا في أحداث الانتفاضة السورية بدلاً من أن يوجهوها للعدو الذين يدّعون مقاومته!

يقول «كمال جنبلاط» في كتابه «هذه وصيتي» منددا بتسليم الأسد مرتفعات الجولان: «ولو كان لديهم – قبل هذه الأيام أي في عام ١٩٦٧ – شيء من الروح الثورية أو روح المغامرة أو لنقل أنه لو كان لديهم شيء من المتطلبات الثورية، لحولوا الجولان إلى (فردان) عربية مدوية بأصداء أسطورية وتاريخية، بدلاً من أن تنتهي بالانسحاب من التحصينات التي كان يمكنها أن تصمد شهوراً، انسحاباً يوشك أن يكون بغير قتال!!».

وقال ممثل حركة فتح في الكويت «سليم الزعنون» في مؤتمر صحفي بالكويت عام ١٩٧٦: «إن الهدف من احتلال السوريين لمنطقة «العرقوب» في جنوب لبنان هو إبعاد المقاومة عن خط التماس مع إسرائيل.. ولا يستبعد أن يكون من أهدافها أيضاً المشاركة عملياً في تجزئة المنطقة طائفياً».

العصابة الأسدية:

ذكر الكاتب – في نهاية كتابه – الملف الأسود لأفراد العائلة الأسدية المتورطين في الجرائم الدولية، والجرائم على الشعب السوري، وعلى رأسهم الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، إلى جانب أخيه رفعت الأسد المتورط في مذبحة حماه عام ١٩٨٢، هو واللواء آصف شوكت زوج بشرى الأسد شقيقة بشار الأسد، والذي يعدّ المحرك الرئيسي للاستخبارات العسكرية السورية، وقائد عمليات الاغتيال الكبرى (تم اغتياله مؤخراً).

وكذلك اللواء رستم غزالة، رئيس جهاز الأمن والاستطلاع للقوات السورية العاملة في لبنان، والذي أشرف على العمليات العسكرية في درعا برفقة ماهر الأسد واللواء علي مملوك.

واللواء بهجب سليمان، والذي يعد أحد أهم المطلوبين في قضية اغتيال الحريري، وتم ذكر اسمه في تقرير «ميليس»، والذي يعرف بأنه مؤدب أولاد الأسد من باسل إلى بشار إلى ماهر، إلى درجة أنه كان مسؤولاً عن تعليمهم أبسط الأشياء في الحياة اليومية!

أما العميد محمد سليمان فهو المسؤول الأول عن العلاقات العسكرية مع إيران وحزب الله، ومسؤول عن حركة التنقلات والإقالات داخل القوات المسلحة الحاكمة.

ويدعو الكاتب في نهاية كتابه إلى انتباه الدول العربية لإجرام ذلك النظام الطائفي السوري، صاحب الملف الإجرامي الفظيع في سورية وخارجها، وعزله دولياً؛ تمهيداً لنزعه من سورية، والخلاص من ذلك الورم السرطاني الذي نخر لسنوات طويلة في جسد الأمة السورية والعربية.

صدر حديثاً

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

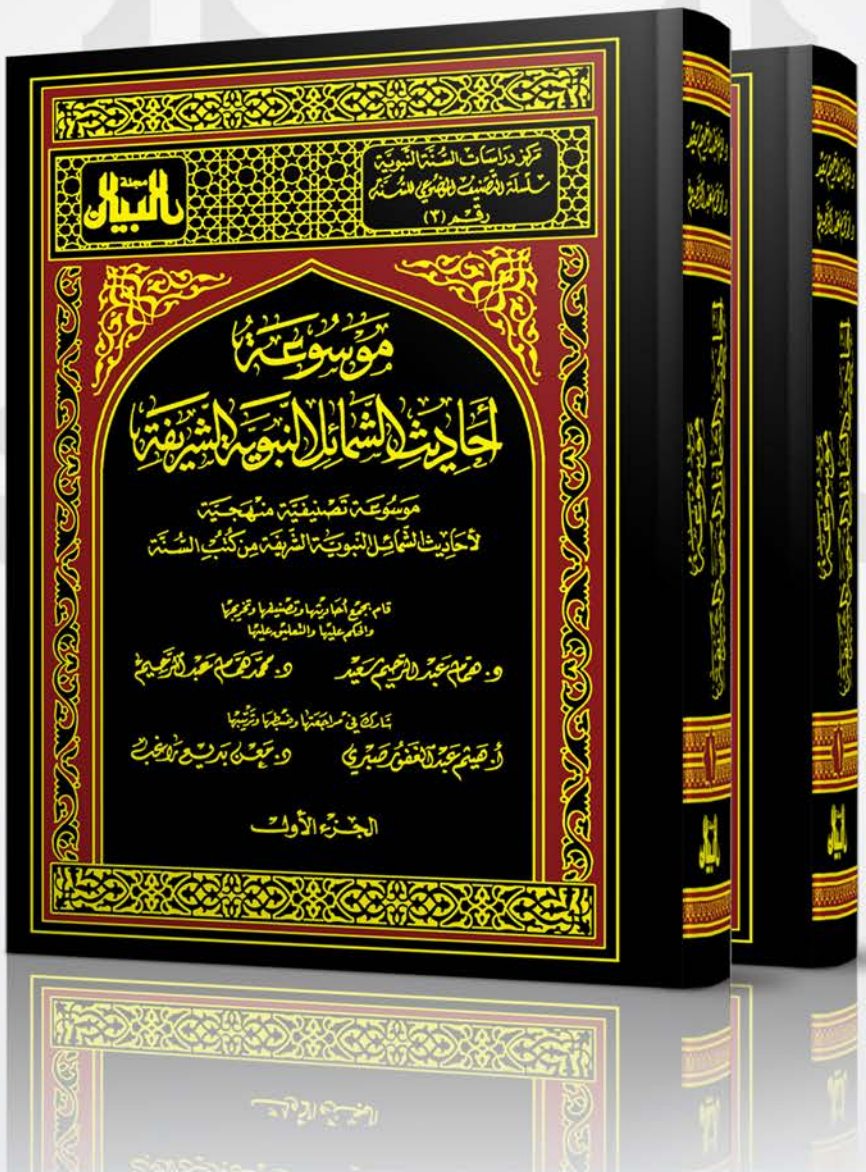

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

أحمد عمرو(*)

أزالت ثورات الربيع العربي كثيراً من الحجب الكثيفة التي أحاطت بكثير من الأفكار والحركات الفاعلة سياسياً في مجتمعاتها، ومن أبرز تلك التيارات التي ظهرت بشكل جلي على واجهة الأحداث، التيار السلفي، الذي تبلور وجوده في المشهد السياسي في دول الربيع العربي بواسطة أحزاب سياسية تمتثل أيديولوجيته ورؤيته لمستقبل تلك الدول.

كان الظهور الأكبر للتيار السلفي في مصر عبر حزب النور الذي حصل على ما يقارب ٢٥ في المائة من مقاعد البرلمان المصري، وحلّ ثانياً في أول انتخابات حرة يشهدها المجتمع المصري منذ عقود.

تلا الظهور السلفي في مصر ظهور أحزاب سياسية سلفية أخرى في كل من تونس واليمن حتى المغرب؛ ففي تونس منحت الحكومة في الآونة الأخيرة ترخيصاً لحزب ذي مرجعية سلفية أطلق عليه حزب «جبهة الإصلاح»، وهو أول حزب بهذه المرجعية يطلب خوض غمار السياسة في تونس.

كما أعلن عدد من الشخصيات اليمنية تتبنى المنهج السلفي، تأسيس حزب سياسي أطلقت عليه «اتحاد الرشاد اليمني».

وفي المغرب أعلن محمد الفزازي، وهو أحد رموز التيار السلفي، أنه يستعد لتأسيس حزب سياسي تكون مرجعيته إسلامية.

وفي حين يخشى كثير من الليبراليين دخول التيار السلفي اللعبة السياسية خوفاً من أطروحاته التي يرون أنها تمثل خطراً على قيمهم العَلمانية والليبرالية وتشكل تراجعاً عنها، فقد اعتبرت صحيفة الغارديان البريطانية أن السلفيين يشكلون خطراً على الثورة التونسية في ظل الأزمة الاقتصادية والمطلبية الاجتماعية التي أجَّجتها سياسات التفقير والتهميش السابقة؛ يرى كثير من المراقبين أن انضمام السلفيين وانخراطهم في العملية السياسية في مصر وتونس واليمن وغيرها، هو في حدّ ذاته علامة إيجابية،

(*) مدير وحدة الحركات الإسلامية في المركز العربي للدراسات الإنسانية.

وفي هذا السياق لم يستبعد محمد القوماني، الأمين العام لحزب الإصلاح والتنمية التونسي والمتخصّص في الحركات الإسلامية، بعيد الإعلان عن حزب جبهة الإصلاح؛ أن يَقبل السلفيون في تونس باللعبة الديمقراطية مثلما قبل بها نظراؤهم في مصر.

وأشار إلى أن حركة الاتجاه الإسلامي سابقاً (حركة النهضة حالياً) لم تكن تقبل الديمقراطية مثلما أن جزءاً مهماً من السلفيين ما زالوا يعدونها «حراماً» أو «كفراً».

وهنا يبقى سؤال: أيهما أعظم تأثيراً على الآخر.. هل السياسة بأدواتها وآلياتها وأيديولوجياتها النابعة من الفكر الليبرالي العَلماني ستطبع السلفيين بطابعها، أم أن السلفيين هم من سيؤثرون في السياسة ليقودوها إلى نموذج إسلامي رصين؟

وأقول: إن التيارات السلفية ما دامت قد دخلت في المعترك السياسي فهي مدعوة بقوة لأن تقدّم للأمّة الإسلامية تأصيلاً لمشروع نهضوي كامل نابع في كل خطواته من منهج القرآن والسنة النبويّة؛ وأن تطور نظرية إسلامية سياسية بدلاً من النظرية الغربية المطبّقة في دول العالم كافة الآن، ليس فقط على الصعيد النظري، بل على صعيد الممارسة نفسها، فالأحزاب الإسلامية السلفية مدعوة لأن توجد غطاء من الأدلة الشرعية تبيّن فيه مستنداتها الشرعيّة الإسلاميّة في أيّ موقفٍ من مواقفها السياسيّة، فما دامت الأحزاب الإسلامية السلفية ارتضت لنفسها الوصف الإسلامي السلفي، فإنها تعني بذلك أن الإسلام يمثل مرجعها في أهدافها ورؤيتها وبرامجها وخطابها، حتى مواقفها السياسية المختلفة، ونحن إذ ندعو لذلك نشير إلى أن كلّ حركة أو تيار أو حزب دخل المجال السياسي فهو لا يقدم تجربة سياسيّة فقط، بل يقدم بالأساس تجربة إسلاميّة في المجال السياسي.

ومن شأن هذا التأصيل أن يخدم الأهداف التالية:

١

أنّه يُعطي القاعدة الشعبية والتنظيمية الموازين والمعايير التي تقيس بها مدى انسجام القيادة مع الخطّ الإسلاميّ الشرعي. وهنا تلعبُ القاعدة الشعبيّة والتنظيمية دور الناقد والمصوّب لمسار القيادة، ودور المثبّت لمواقفها كذلك.

ويُمكن للقيادة هنا أن تتّكل على القاعدة الشعبيّة والتنظيمية الواعية لدعمها في أيّ مشروع من مشاريع الإصلاح التي قد يعرقلها بعضُ من «طال عليهم الأمد فقست قلوبهم» ممّن لا يقوون أو لا يريدون أن يواكبوا أيّ حركة تطوير في جسم التنظيم أو النظام. أضف إلى ذلك أنّ القواعد الشعبيّة التي تفهم منطلقات القيادة السياسية يُمكنها أن تشكّل هامشاً واقعيّاً للقيادة تستند إليه للتخلّص من أيّ ضغوط خارجيّة تدفع باتّجاه أخذ مواقف معيّنة قد لا تكون في مصلحة الاستراتيجية.

٢

أنّ هذه المعرفة والثقافة تؤمّن الأرضيّة لاستمراريّة قيم التيارات السلفية عن طريق الإعداد العفوي والموجّه لمشاريع القادة القادرين على مواكبة المتغيّرات والتحدّيات من خلال الرؤية الإسلاميّة ومنهج الحركة، ما يُسهم في تقوية البنية الذاتيّة للحركة الإسلاميّة ككل عبر تحقيق التلاحم المستمرّ بين القيادة والقاعدة الجماهيريّة في الثقافة الحركيّة الإسلاميّة الموحّدة.

٣

أنّ ذلك يؤسّس لثقافة مشتركة لدى القواعد الشعبيّة لكلّ الحركات الإسلاميّة تجاه ما يواجهها من تحدّيات، وكلّما ارتفع منسوب الوعي الجماهيري لقواعد السلوك والخطاب والمواقف السياسيّة، أصبحت تلك الجماهير أكثر تماسكاً وتآزراً؛ وكلّما انخفض منسوب الوعي لديها أصبحت أكثر عرضةً للإثارة العصبيّة والغرائزيّة وما إلى ذلك. ومن هنا؛ وجدنا أنّ الوعي الجماهيري نقيض كلّ الحكومات الجائرة والظالمة على مدى التاريخ، ولا يزال هو الذي يجري اللعب عليه عبر سياسات التجهيل والتسطيح الثقافي والفكري، خصوصاً عبر وسائل الإعلام التي تمتلك اليومَ فاعليّة تضاهي فاعليّة الجيوش الجرّارة [1].

فنحن ندرك أن كل محاولات التغيير في العالم الإسلامي تجري في إطار سيادة ثقافة دنيويّة غربيّة فرضت نفسها عالمياً بكل خلفيّاتها وظلالها وانعكاساتها ومواقفها من الدين كلاً

(١) جعفر محمد حسين، الحركات الإسلاميّة، http://www.al-akhbar.com/node/35067.

وتفصيلاً، ثقافة عَلمانيّة استبعدت الدين تماماً من فلسفة العلم ونظريّاته وقوانينه ومعالجاته، وهذه الثقافة تحظى بتعميم وتكريس عالميّين، والغرب يرى أن سيادة هذه الثقافة واكتساحها لكل ما عداها شرطٌ ضروريٌّ ودعامة أساسيّة لما سمّاه «النظام العالميّ الجديد» الذي أقامه على «قواعد تفكير مشتركة» أفرزتها الحضارة الغربية المهيمنة الآن.

وفي تقديري، فإن أساليب الهيمنة الغربية مرت بثلاث مراحل: كانت المرحلة الأولى هي مرحلة العهود الاستعمارية الغربية، وكانت تأثيراتها متجلية على الصعيد العسكري أو المادي، إلى جانب محاولة التأثير في مجالات الهوية الثقافية بتفرعاتها التاريخية واللغوية، ومجالات الاقتصاد والاجتماع. ثم بعد الاستقلال من نير الاحتلال الغربي العسكري ظهرت الموجة الثانية من الاستعمار، وهو ما اصطلح على تسميته الغزو الفكري أو الثقافي تعبيراً عن تلك الحالة من التبعية الفكرية والثقافية للغرب رغم التخلص الظاهر من الوجود العسكري.

أعقب ذلك موجة ثالثة من الحرب على الإسلام، وهي حرب تستهدف تطويع الإسلام وقيمه ومفاهيمه بحيث يتلاءم ومفاهيم وقيم الحضارة الغربية. بدأت هذه الموجة بشكل جلي بعد وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، حيث أدارت النخبة السياسية ووسائل الإعلام الغربية بعدها حرباً متعددة المستويات والأهداف والوسائل. وإذا كان هدف هذه الحرب المعلن هو القضاء على (الإرهاب)، إلا أنها ومن الناحية الواقعية كانت حرباً مباشرة على الإسلام انصبت على محاولة التدخل في البنى العقدية والفكرية والقيمية، من أجل تغييرها وتطويعها للمفاهيم والأهداف الغربية.. وأشد تلك المحاولات في نظري محاولة تسخير الحركات الإسلامية نفسها بدعوى دمجها في الحياة السياسية، وإلحاقها بالأحزاب والمؤسسات الرسمية؛ لجعلها أداة في تطوير الإسلام وتحويره ليتقارب مع القيم الغربية الرأسمالية والديمقراطية والعلمانية أو اتخاذها ذريعة لإحكام السيطرة والهيمنة على بلاد المسلمين. وفي ظل هذه الأوضاع، وما أفرز فيها من تحولات فكرية ونفسية سممت الأجواء الفكرية والسياسي؛ أصبحت الأمة موجهة بحسب التوجيهات الغربية وهي تحسب أنها تجلب لنفسها الخير، فلنا أن نعلم أن الغرب عمل على تسكين الحركة الإسلامية وأحزابها داخل حدودها، وواجهها بمختلف الأشكال، وحاصر فكرتها، وحاول أن يجعل نطاق الحركات الإسلامية هو النطاق القطري، وضغط بكل وسائله لتصبح الأحزاب الإسلامية جزءاً من التيارات السياسية المتنافسة داخل إطار الدولة القومية القطرية.. وهكذا لم يعد المشكل فقط مشكل إعادة بناء الوحدة السياسية الجامعة، بل أيضاً مشكل إعادة الاعتبار للهوية الجامعة التي كانت أساساً الوحدة لسياسية الجامعة المذكورة.

لقد تعرّضت الحركات الإسلامية والسلفية في مركزها لضغط هائل داخلياً وخارجياً لإصدار مزيد من التراجعات والمراجعات الفكرية، وكلها تصب في صالح دمج الحركة الإسلامية في منظومة القيم الغربية؛ لتصبح القيم الإسلامية في النهاية لدى الحركات الإسلامية مجرد مرجعية فكرية هشة ليس لها أي تأثير في الواقع، وتبقى أحكام الإسلام وشرائعه وقيمه مجرد مظاهر تدينية تعبدية خاصة لا تخرج من هذا الحيز؛ لذلك فإن الأحزاب الإسلامية السلفية مدعوة لتطوير نظرية سياسية ومشروع نهضوي كامل، ومدعوة أيضاً لأن تحافظ على ثوابتها من تخلخلات السياسة، ومدعوة أيضاً لأن تضع الإطار السياسي في نسقه الصحيح.

وإذا كنا نطرح تلك الأفكار فإننا نهدف من وراء ذلك إلى ألا تنسى الأحزاب الإسلاميّة، خاصة السلفية منها، أهدافها التي قامت من أجلها بأن تقدّم تجربة إسلاميّة تأصّل فيها قدرة المبادئ الإسلامية على التطبيق في الواقع العملي، فقد كان من المنتظر أن تكون مرحلة غيبة الحركات الإسلامية عن الحراك السياسي فترة مراجعة ذاتية تؤول إلى منظور جديد للعلاقة السياسية من ناحيتي الفكر والممارسة، لكن أياً ما يكن من أمر فالذي نرنو إليه هو أن تمارس الأحزاب الإسلامية إسلاميتها تنظيراً وتأصيلاً وممارسة، وتسعى إلى تجذير الهوية الإسلامية بنظريّاته ومفاهيمه، بحيث يمثّل قاعدتَه في رؤيته وأهدافه وبرامجه، والخشية التي يراها البعض أن تنخرط الأحزاب السلفية في مراجعات سياسية، وتقتصر إسلامية النظم الحاكمة في دول الربيع العربي على ذوات الأشخاص وتبقى الأفكار والقيم الغربية هي الحاكمة.

مرصد الأخبار

جلال سعد الشايب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

خفض سعر الجنيه المصري مقابل الحصول على قرض البنك الدولي

كشف ممتاز السعيد، وزير المالية المصري، عن أن رئيسة الصندوق «كريستين لاجارد» طلبت خلال زيارتها الأخيرة للقاهرة، خفض قيمة الجنيه المصري مقابل العملات الأجنبية، وذلك في مقابل حصول مصر على القرض المقرّر بواقع ٣,٢ مليار دولار، والذي قد طلبته الحكومة مؤخراً.

وقد رفض الدكتور محمد مرسي، رئيس الجمهورية، ووزراء حكومته، هذا الطلب جملة وتفصيلاً، مؤكدين أن الحكومة لن تخفض قيمة العملة المصرية وتتركها لآليات العرض والطلب، حتى لا تتكرر مأساة ٢٠٠٣ التي شهدت زيادة سعر الدولار في السوق المحلي المصري إلى أكثر من ٧ جنيهات.

[جريدة المصري اليوم ٢٠١٢/٩/٢٩]

توتو وبلير وبوش

دعا الأسقف الجنوب إفريقي، ديزموند توتو، إلى محاكمة رئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير والرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، أمام المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي، على خلفية حرب العراق، مطالباً بأن يُدانا بسبب التدمير المادي والأخلاقي الذي سبّبته حرب العراق.

واتهم توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام عن جهده في مكافحة التمييز العنصري ببلاده، بلير وبوش بالكذب بسبب «أسلحة الدمار الشامل»، مضيفاً أن الغزو الذي قادته الولايات المتحدة للعراق جعل العالم «أقل استقراراً وأكثر انقساماً مقارنة بأي نزاع آخر في التاريخ».

وأكد أن حصيلة القتلى في العراق، سواء خلال الغزو أو بعده، كافية بمفردها لمحاكمة بلير وبوش أمام المحكمة الجنائية الدولية. [صحيفة الأوبزرفر البريطانية ٢٠١٢/٩/٢]

مناشدة أردنية وأممية عاجلة بخصوص اللاجئين السوريين

نشرت وزارة التخطيط والتعاون الدولي في الأردن على موقعها الإلكتروني، بياناً حمل اسم «نداء الإغاثة المشترك بين الحكومة الأردنية ومنظمات الأمم المتحدة»، ناشدت فيه الجميع تقديم ٧٠٠ مليون دولار للمساعدة على التعامل مع العدد المتزايد للاجئين السوريين الذين يبحثون عن ملاذ آمن هرباً من الاضطرابات في سورية.

وصرّح وزير التخطيط الأردني جعفر حسن، أن هذه الأموال ستستخدم في مساعدة ٢٤٠ ألف لاجئ سوري وسوريين آخرين في الأردن، مُشيراً إلى أنهم يمثلون عبئاً إضافياً على موارد المياه والطاقة في البلاد المثقلة بالفعل. [موقع الوزارة ٢٠١٢/٩/٢]

أمريكا تعلّق برنامج تدريب الجنود الأفغان بسبب قتل جنودها

قامت القوات الأمريكية بتعليق برنامج تدريب الشرطة الأفغانية مؤقتاً؛ حتى يتم التأكد من خلفية المجندين الجدد؛ وذلك على خلفية تنامي حوادث «الهجمات الداخلية» التي أودت بحياة جنودٍ من قوات التحالف وصلوا إلى ١٨ جندياً في أغسطس الماضي وحده.

وجاءت هذه الخطوة إثر مقتل أكثر من ٤٠ من جنود الناتو، هذا العام، إما على يد عناصر أمنية أفغانية أو مسلحين تنكروا في زي الشرطة أو الجيش.

[القدس العربي ٢٠١٢/٩/٢]

حرية التعبير والموت

قرّرت محكمة الاستئناف في واشنطن وقف قرار وزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية الذي يُلزم شركات التبغ بوضع صور في منتجاتها تظهر أضرار التدخين على الإنسان.

فقد وافقت المحكمة على دعوى شركات التبغ المؤسَّسة على مخالفة القرار لحرية التعبير في الولايات المتحدة الأمريكية. [شبكة الـ BBC ٢٠١٢/٩/١]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

مرصد الأخبار

ضرب التعليم.. اغتصاب صهيوني من نوع آخر

نشـــرت جمعية حقوق المواطن في إسرائيل، وجمعية (عيرعميم)، تقريراً شـــاملاً يرصد مظاهر الإهمال والتهميش التي تسري في جهاز التعليم في القدس الشرقية، وجاء تحت عنوان: «العلامة راسب».

وتعرّض التقرير إلى الانتهاكات الصارخة للحق الأساسي للسكان في التعليم.

فقد أظهر التقرير أن هناك ٢٤٣٢٢ طفلاً مقدسياً لا يظهرون في أي قوائم، ولا يعرف أين يتعلمون؟

كما أشار التقرير إلى أن معدل التسرّب من المدارس من الصف السابع حتى الثاني عشر ١٧,٣٪، وفي صفوف الثاني عشر لوحدها يبلغ معدل التسرب ٤٠٪، وهي النسب الأعلى في البلاد. [العرب اليوم ٢٠١٢/٦/٢٧]

فقدان ثقة العالم.. درجة في سلم الانهيار

تحت عنوان «الولايات المتحدة فقدت ثقة العالم بأكمله»، نشرت صحيفة الغارديان البريطانية نتائج استطلاع للرأي يشير إلى أن انخفاض التأثير الأمريكي على الســـاحة الدولية يعود إلى ضعف الثقة بالنوايا والدوافع التي تحرك الولايات المتحدة نحو القضايا الدولية.

والمثير في هذه المرة أن هذه المشاعر السلبية تجاه أمريكا لم تقتصر على منطقة الشرق الأوسط، بل اتسعت لمناطق أخرى؛ ففي باكســـتان بلغت نســـبة عدم الثقة بالولايات المتحدة ٧٨٪، أما في المنطقة العربية فقد قال ٣٩٪ فقط من المشاركين في الاستطلاع إنهم ليس لديهم ذرة ثقة بها، وفي بريطانيا، فقد قال ٤٠٪ من المشاركين إن الكلمة التي ترتبط دائماً في أذهانهم عندما تذكر الولايات المتحدة هي «البلطجة». [صحيفة الغارديان البريطانية ٢٠١٢/٩/١٢]

علامة تعجب

حرية التعبير.. لهم وعلينا!

قرّرت إدارة أحد المســـارح في مدينة روســـتوف جنوبي روسيا، إلغاء عرض عمل مســـرحي يجسّد شخصية المسيح – عليه السلام –؛ وذلك بعد الاحتجاجات الشعبية والتظاهرات التي نظمها المسيحيون الأرثوذكس اعتراضاً على تقديم مثل هذا العمل، وأكد المحتجون أن العمل يمثل «تدنيساً» لمعتقداتهم الدينية.

وطالبوا بســـنّ قوانين جديدة لحماية المعتقدات الدينية في روســـيا، كما طالبوا أيضاً بضرورة حصول أي عمل يتطرّق إلى المعتقدات الدينية على موافقة الكنيسة قبل إنتاجه.

هذا في الوقت الذي احتج فيه العالم الإسلامي على إنتاج فيلم يسيء للرسول ﷺ، ونُشر مؤخراً على موقع الفيديو الشهير «يوتيوب» والمملوك لشـــركة البحث «جوجل».. وقد طالب المســـلمون في كل مكان الموقع بعدم عرض الفيلم، إلا أنه رفض الأمر بالكلية زاعماً أنه يدخل في إطار الحرية الشخصية.

أفلا يدخل تصوير المســـيح – عليه الصلاة والســـلام – في مســـرحية تعرض أمام عشرات الأشـــخاص في حرية التعبير المزعومة؟ «مع اعتراضنا على ذلك بالكلية إيماناً وعقيدة»؛ ويدخل فيلم يصور فيه نبينا ﷺ ويعرض أمام ستة مليارات من البشر في حرية التعبير؟! أم أنها الوزن والكينونة.. فأفيقوا يا أمة الإسلام! وأروا العالم مكانكم الفعلي فيه!

[مواقع وبتصرف ٢٠١٢/٩/٢٩]

تقرير عن: دولة جنوب السودان والوقوف على شفير الهاوية

نشـر المركز السوداني للخدمات الصحفية تقريراً مطولاً بمناسـبة اتفاق النفط الـذي جرى مؤخراً بـين الدولتين (السـودان وجنوبه)، وقـد تزامن هذا مع مـرور عام على الانفصال، وذلك تحت عنوان: «اتفـاق النفط.. دولة جنوب السودان والوقوف على شفير الهاوية». ووضع التقرير بعضاً مـن الحقائق أمام من يريد اسـتخدام حـق تقرير المصير، فضلاً عن بعض البيانات والمؤشـرات التي تُظهر مدى نتيجة ذلك التقسيم المتسرع لدولة جنوب السودان.

فأكـد التقرير أنـه في يوليو الماضي بلغـت دولة جنوب السودان عاماً كاملاً، إلا أن هذا العمر القصير قد بدّد آمالاً عراضاً عُقدت على هذه الدولـة الوليدة، فخلال هذا العام خبرت جميع أشـكال الفشـل والمعاناة والحروب والنزاعات الداخلية والكوارث الإنسـانية والمذابح والتطهير والفسـاد وافتعال الأزمات مع جارها الشمالي الدولة الأم.

وأظهر التقرير أنه ورغم تعدد أشكال الدعم التي انهالت على هـذه الدولة الوليـدة؛ إلا أنه وبعد مـرور هذا العام؛ كانت الصورة صادمة للجميع، كأنما كان الاسـتفتاء بمنزلة عملية ولادة قيصرية نتج عنها وليد مُشوه لا يكاد يقوى على الاستمرار دون مساعدة ورعاية الآخرين.

وأقـرَّ مؤخراً لوكا بيونق، مسـؤول ملف أبيي في حكومة جنوب السـودان، بأنهم تفاجؤوا بالسـرعة التي حدث بها الانفصـال، وإذا كان مِـنْ درس يتعلمه دعـاة تفكيك الدول من تجربة دولة جنوب السـودان خـلال عام واحد فقط من عمرها، أنه ليس كل من يطالب ويتمسك بحق تقرير المصير يجب مجاراته في ذلك، فالمقومات الضرورية لاستمرار ونجاح الدولـة تبدأ من البنية التحتية والحد الأدنى من القدرة على توفير الحد الأدنى من الخدمات الأساسـية للمواطنين دون الاتكال على هبات الآخرين.

ويكفي للوقوف على الفساد الموجود داخل هذه الدولة أن ننظر في أسـباب استقالة جيرارد برونييه، الخبير الفرنسي المختص بشؤون السودان، والذي عمل مستشاراً لدى حكومة جنوب السـودان عقب إعلان الدولة: «هـؤلاء بلهاء.. إنهم فاسدون حتى النخاع».

وقد صنفت منظمة الشـفافية الدولية الفسـاد في دولة «جنوب السـودان» بأنه من نوع (الفساد الكبير) الذي يرتبط بكبار المسؤولين الذين يسـخّرون الأموال والقروض وموارد الدولة لمصالحهم الشخصية.

وأشار التقرير إلى أن الفساد انعكس على تأسيس البنية التحتية وتوفير الخدمات العامة للسـكان، حيث تبلغ نسـبة الأمية وسط السـكان ٨٠٪، كما أن معدلات وفيات الأمهات هي الأعلى في العالم، وينتشـر سـوء التغذية الحاد وسط الأطفال والحوامل بمعـدلات مخيفة، وتحصر الأوبئة أرواح آلاف الناس، وتناولت وسـائل الإعلام مؤخراً أخبار انتشار وباء (إيبولا) القاتل.

وأشـارت أرقام الأمم المتحدة إلى أن ٤,٧ ملايين نسمة، أي نصف عدد السـكان، ليس لديهم مـا يكفي من الطعام أو يتعرضـون لأزمة غذاء حادة. وفـي يوليو الماضي ذكرت منظمة (أوكسفام) البريطانية أن جنوب السودان يواجه أسوأ أزمة إنسـانية منذ اتفاقية نيفاشا عام ٢٠٠٥ بسبب الانهيار الاقتصادي والصراعات المستمرة.

ورسـم آلان بوسيل، وهو صحفي أمريكي يراسل صحيفة (ماكلاتشي) الأمريكية، صورة قاتمة للأوضاع في دولة جنوب السـودان، فالدولة الوليدة ليس بها إلا طريق أسفلت واحد؛ وثلاثة أرباع المواطنين أميـون؛ والفقر المدقع في كل مكان.. فحتى النفط كاد أن يتحول إلى لعنة بدلاً من أن يكون نعمة.

وفي الخامس من أغسطس الماضي توصّلت دولتا السودان وجنوب السودان إلى اتفاق بينهما حول ملف النفط؛ وجاءت الخطوة عقب إغلاق دولة جنوب السـودان خط الأنابيب في ٢٠ يناير الماضي، وخسـرت بذلـك ٦٥٠ مليون دولار كانت تدخل خزينتها العامة شـهرياً. وتعتمد دولة جنوب السودان على النفط بنسـبة ٩٨٪، وأدى إغـلاق النفط إلى التضخم الحـاد، وأزمات إنسـانية، وتدهور الأمـن، وارتفاع أعداد الضحايا جراء ذلك.

وأخيراً.. تُعرِّف الأدبيات الدولة الفاشـلة: بأنها تلك التي تشـهد نزاعات وحروباً داخلها أو مع جيرانها ولا تسـتطيع حمايـة حدودها أو توفير الخدمات العامة لمواطنيها أو تنهار فيها القوات النظامية أو تبقى عاجزة، كما يغيب فيها فرض القانون وتتواجد على أراضيها القوات الأجنبية، وينتشر فيها الفسـاد... إلخ. وتكاد جميع المواصفات السابقة تنطبق على دولة جنوب السودان؛ بل إن الدول التي صنفت فاشلة أحسن حالاً منها بكثير.

[المركز السوداني للخدمات الصحفية ٢٠١٢/٩/٩]

أعلن الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء المصري وصول إجمالي عدد سكان مصر في الداخل والخارج إلى ٩١ مليون نسمة، مشيراً إلى أن عدد السكان في الداخل وصل الخميس إلى ٨٣ مليون نسمة، توزعت بين ٥٠,٧ في المائة للذكور، و٤٩,٣ في المائة للإناث.

وبلغ عدد المصريين في الخارج، طبقاً لتقديرات وزارة الخارجية، ٨ ملايين مصري.

وأشار الجهاز إلى أن سكان مصر يتركزون في مساحة ٧,٧ في المائة فقط من إجمالي مساحة مصر، خاصة في الوادي والدلتا. [جريدة الشرق الأوسط ٢٠١٢/٩/١١]

قالت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OECD) إنها تتوقع أن ينكمش الاقتصاد البريطاني بنسبة ٠,٧ في المائة هذا العام، وهو ما يعد تراجعاً كبيراً عن توقعها في مايو الماضي بأن الاقتصاد سينمو بنسبة ٠,٥ في المائة.

وفيما يخص الاقتصادات غير الأوروبية، فقد قالت المنظمة في تقرير لها إن نمو الاقتصاد الأمريكي سيتباطأ جزئياً إلى ٢,٣ في المائة مما كان متوقعاً (٢,٤ في المائة)، والاقتصاد الكندي سيشهد نمواً نسبته ١,٩ في المائة مقارنة بما كان متوقعاً (٢,٢ في المائة)، أما الياباني فسيشهد نمواً قدره ٢,٢ في المائة بدل الـ ٢ في المائة التي كانت متوقعة له سابقاً. [شبكة الـ BBC ٢٠١٢/٩/٦]

أكد تقرير الأمن الغذائي الصادر عن وزارة الزراعة الأمريكية، أن عدد الأمريكيين الفقراء الذين يعانون نقص الغذاء بشكل متكرر، زاد بمقدار ٨٠٠ ألف في عام ٢٠١١، ليبلغ نحو ١٧ مليونا مقارنة بعام ٢٠١٠.

وأشار التقرير إلى أن نحو ١٧ مليون نسمة من الأمريكيين عانوا «انخفاضاً شديداً في الأمن الغذائي» العام الماضي، بزيادة بلغت ٨٠٠ ألف شخص.

هذا وقد سجل ٤٦,٧ مليون أمريكي أنفسهم للحصول على إيصالات الغذاء في يونيو الماضي بزيادة ١٧٣ ألفاً عن مايو الماضي.

[رويترز ٢٠١٢/٩/٦]

توقع اقتصاديون أن يجني السودان نحو ملياري دولار سنوياً لقاء رسوم تصدير نفط دولة جنوب السودان عبر أراضيه، وذلك بعد توقيع جوبا والخرطوم مؤخراً بروتوكول تعاون مشترك، حيث نص على أن السودان ستحصل على ٢٤ دولاراً كمتوسط عن كل برميل، نظير رسوم التصدير، وذلك طبقاً لما أوردته وكالة الأنباء الرسمية «سونا».

[شبكة البي بي سي ٢٠١٢/٩/١٧]

أعلنت المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، أن أكثر من مائة ألف سوري غادروا البلاد في شهر أغسطس الماضي، ولجؤوا إلى الدول المجاورة.

وقالت إن هذا العدد هو أعلى رقم يسجل خلال شهر منذ بدء الثورة السورية قبل نحو ١٧ شهراً.

وأشارت المسؤولة الأممية إلى أن منظمتها سجلت ١٠٣ آلاف و٤١٦ يسعون للجوء في الدول المجاورة، ليرتفع عدد اللاجئين المسجلين لدى الأمم المتحدة إلى أكثر من ٢٣٥ ألفا و٣٠٠ شخص.

وتؤكد مفوضية اللاجئين أن هناك نحو ثمانية آلاف شخص ينتظرون عبور الحدود إلى تركيا، وأن معدّل النازحين السوريين في الأردن يقدّر بنحو ألف يومياً، بينما يوجد في لبنان أكثر من ٥٩ ألف سوري مسجّل لديها أو في انتظار تسجيلهم.

[الجزيرة + وكالات ٢٠١٢/٩/٤]

المسلمون في فرنسا.. بين تحدي الاضطهاد والإساءة للإسلام

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

عندما تتحوّل المبادئ إلى شعارات زائفة، وعندما تتحول الحرية إلى تمثال يدخل متحف التاريخ؛ عندها فقط يقف المرء ليتعجب ويتدبر أمر هؤلاء الذين ملؤوا رؤوسنا بحرية التعبير وحرية التدين والتعددية الثقافية والتعددية الدينية وحماية الحريات.. كيف سقطت هذه الدعوات في مستنقع القهر والإجبار؟ كيف عادت محاكم التفتيش؟ وكيف انقلب ما يسمى الحرب على الإرهاب إلى إرهاب حقيقي يدمّر كل إنجازات الحضارة الغربية وفلسفات الثورة الفرنسية وأغلى ما أنجزت (الحرية الدينية)؟!.. لقد كانت فرنسا تفخر بحرية التعبير عن الرأي وحرية التعبد وحرية الملبس وحرية الاعتقاد.. فما دهاها؟ ماذا حدث في مدينة النور والتنوير «باريس»؟

إنه العداء الفرنسي التاريخي للإسلام والمسلمين والخوف من الإقبال المتزايد من الفرنسيين على الدخول في الإسلام، فضلاً عن تضخم الأقلية المسلمة التي أصبحت تتعدى نسبة الـ ١٠ ٪ من إجمالي عدد السكان في فرنسا البالغ ٦٠ مليوناً، والذي تؤكد المؤشرات أنه أصبح في تناقص مستمر مقابل الزيادة المطردة للمسلمين. ومظاهر العبادة كتأدية صلاة الجمعة والعيدين في الخلاء، فضلاً عن تصدي الأقلية المسلمة لمحاولات الإساءة للرسول عليه الصلاة السلام، ومحاولات الإساءة للإسلام بوجه عام؛ كل هذه المظاهر أعلنت عن المسلمين بشكل أقلق أصحاب النزعات العنصرية والمتطرفة منهم، ودفعهم لمجابهتها بصورة عنيفة ومباشرة.

تتوزع الأديان في فرنسا على النحو التالي:

رومان كاثوليك (من ٨٣ ٪ – ٨٨ ٪)، بروتستانت (٢ ٪)، يهود (١ ٪)، مسلمون (من ٦ ٪ – ١٠ ٪)، أخرى (٤ ٪)؛ وطبيعة هذه الأرقام لا تتجاوز كونها استقراءات علماء الاجتماع واستطلاعات مختصّة للرأي.

وفرنسا دولة لا دينية منذ عام ١٩٠٥، فهي لا تعترف بالأديان ولا تعاديها (المفروض والمعلن)، فدستورها ينص في مادته الثانية على أنها «جمهورية علمانية، لكنها تحترم كل الأديان». فنظرياً وقانونياً، يُعامل الإسلام في فرنسا كما تعامل جميع الأديان، بما في ذلك الكاثوليكية التي كانت فرنسا تُعتبر ابنتها البكر قبل الثورة الفرنسية.

فأصبح الإسلام منذ ستينيات القرن العشرين الدين الثاني في فرنسا، ويُرتّب الإسلام حسب الأهمية مباشرة بعد الكاثوليكية، وقبل البروتستنتية واليهودية بكثير. وينتشر المسلمون في مدن فرنسا وفي ريفها على السواء، وأغلب المسلمين من أبناء أو أحفاد الطبقة العاملة الوافدة من المغرب العربي ومن الجزائر بالأخص (٣٥ ٪)، ثم المغرب (٢٥ ٪)، فتونس (١٠ ٪). ويوجد أيضاً مسلمون منحدرون من إفريقيا، لا سيما من البلاد التي كانت قد استعمرتها فرنسا، مثل: مالي والسنغال والنيجر وساحل العاج، كما يوجد كذلك مسلمون من بلاد المشرق العربي مثل: سورية ومصر والعراق وفلسطين، إضافة إلى أعداد كثيرة من المسلمين الأتراك (٣٦٠٠٠٠ نسمة).

إن عدد الجمعيات والهيئات التي تمثل الإسلام في فرنسا كثير، وأبرزها: المعهد الإسلامي ومسجد باريس الكبير الذي دشن في ١٩٢٦، والمساجد الإقليمية التابعة له، واتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، والفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا، وجماعة الدعوة والتبليغ، وتوجد جمعيتان كبريان لتمثيل الأتراك.

سياسات الإساءة للإسلام وللرسول عليه السلام:

تدور معظم الإساءات حول تشجيع المنظمات العنصرية التي تعادي وتسيء للإسلام والمسلمين، وعدم تجريم من يسيء للإسلام، سواء بالرسوم الكاريكاتورية أو المقالات أو البرامج والأفلام التلفزيونية، وفي المقابل تجريم كل من يسيء لليهود واتهامه بمعاداة السامية.

سياسات الاضطهاد للأقلية المسلمة:

يمكن تركيز هذه السياسات في قانون تجريم النقاب في الساحات والميادين والأماكن العامة والأماكن الحكومية بالغرامة المالية والسجن في المرة الثانية، وقانون منع الحجاب من المدارس والجامعات والهيئات الحكومية المختلفة، وقانون حظر الصلاة في الشوارع والساحات العامة وأمام المساجد، وقانون عدم منح الإقامة أو تجديدها إلا بعد عمل اختبار للمهاجر يتم فيه التأكد من إجادته اللغة الفرنسية واحترام التقاليد الفرنسية وعدم التمسك بالأصول الإسلامية وتغليبها على القواعد الفرنسية.

لقد سقطت أقنعة التسامح والتعددية الثقافية والتعددية الدينية وسقطت معها كل دعوات التفاهم والتحاور؛ لتظهر حقيقة الوجه الفرنسي، فلا نامت أعين دعاة التعايش، ولتخرص ألسنة أصحاب الحوار.

المراجع والمصادر:

١ – محمد إبراهيم الجيوشي، الأقليات المسلمة في المجتمع الغربي، لندن، المجلس الإسلامي العالمي.
٢ – مصطفى الخروبي، المغاربيون في فرنسا.
٣ – موقع طريق الإيمان.

كيفية التعامل الاستخباري الصهـــــــ

د. عـدنـان أبـو عـامـر(*)

adnanaa74@hotmail.com

تعيش الســـاحة الأمنية والعسكرية الصهيونيـــة حالـــة من القلـــق والحذر الشـــديدين بفعل التقلبات الحاصلة في المنطقة، بفعل الثورات العربية المتلاحقة، وســـقوط أنظمة موالية لـ «إسرائيل»، ما دفع خبراء الأمن لديها لتلخيص المخاطر الأمنية على «إسرائيل» في العقد المقبل على النحو التالي:

١- خطر السلاح غير التقليدي بأنواعه المختلفة، وإمكانية وصول سلاح نووي لأيدي دول أو جهات متطرفة.

٢- خطر الصواريـــخ على الجبهة الداخليـــة الصهيونية، خصوصـــاً من جانب المنظومة الشـــمالية، إيـــران، والمنظومة الفلسطينية.

٣- خطر تقليدي من جانب الجيوش النظامية في المنطقة التي تملك أسلحة متطورة.

٤- أخطار شبه عسكرية وعصابية.

٥- أخطار من جانب جهات معادية في المنطقة أو من جانب جهات دولية، ويشمل ذلك احتمال عمليات هائلة الترهيب.

٦- انتفاضة، عصيان مدني.

وهناك إمكانية لتقاطع المخاطر في ضوء أن عدداً من تلك القائمة في البيئة الاستراتيجية يمكن أن تتعاظم، مثل:

١- خطر ســـقوط أنظمة عربية معتدلة بالترافق مع خطر امتلاك ســـلاح نووي، على شـــكل الخوف القائـــم حالياً إزاء باكستان.

٢- خطر اســـتعداد جهات متطرفة لتنفيذ عمليات ترهيب هائلة بالترافق مع تسرب سلاح غير تقليدي.

٣- خطر تبلور دولة فلسطينية معادية بالترافق مع انتفاضة في أوساط عرب ٤٨.

ويمكـــن قراءة الآثار العملانية لهـــذه الأخطار على نظرية الأمن الصهيونيـــة، وتحديد الحاجة إلى الاســـتعداد لمواجهة في جبهة أوســـع مع عناصر عصابية، ومـــع الدول التي تطور أســـلحة غير تقليدية، ومع جهات فـــي مناطق معادية لا وجود فيها لســـلطة مركزية، مـــن خلال تتبّع نتائجهـــا المتوقعة على الاستخبارات الصهيونية، ومنها:

- شن حرب سرية في جبهة واسعة في ضوء طابع الأعداء وغياب المشروعية السياسية لاســـتخدام النار، فالعمل السري يســـمح أيضاً بتقليـــص مخاطر التصعيد، رغـــم أن ذلك ليس مضموناً.

- تنفيذ عمليات جراحية معقدة في مناطق بعيدة.

- تنفيـــذ عمليات إحباط واســـعة ضد الأعمال الســـرية والجرائم الاستراتيجية على الصعيد الداخلي.

- تطوير قدرات هجومية ودفاعية في الشـــبكة العنكبوتية كموضع قتال جديد في عصر المعلومات.

- توفير معلومات دقيقة وبكمية عالية لتجســـيد القدرات النارية للجيش.

- توفيـــر معلومات لتحقيق مصالح أمنية سياســـية، مثلاً: ردع الأعداء عن الحرب وإحباط مشـــاريعهم عبر الكشف عن نواياهم، أو توفير معلومات استخبارية ضد أعداء يعملون تحت ستار من السرية والخداع للأسرة الدولية.

- المساعدة في الحرب على العقول بكشف المعلومات التي تؤثر في شـــرائح مختلفة بهدف المساعدة على تحقيق أهداف أمنية قومية.

- الخداع والحرب النفسية.

(*) كاتب فلسطيني.

ـــــــيوني مع تهديدات المنطقة

ويكشف خبراء الأمن الصهاينة أن الحربين الأخيرتين على لبنان ٢٠٠٦، وغزة ٢٠٠٨، عملت خلالهما الأجهزة الاستخبارية بتوازٍ دون تنسيق تام بينها، ويعزو البعض سببه للعلاقات الشخصية غير الودية بين رؤساء أجهزة الأمن الاستخبارية، وأهمها: الشاباك، أمان، الموساد، مركزاً على ضرورة التنسيق بين الأجهزة المذكورة لأهمية وجوده، وخطورة انعدامه.

ولتفادي أي إشكاليات مستقبلية، يقدم المسؤولون الأمنيون في أجهزة المخابرات الصهيونية بمختلف مسمياتها: الشاباك والموساد وأمان؛ نموذجين لهيئة عليا تشرف على الاستخبارات، وتنسق فيما بينها؛ نموذج أمريكي وآخر بريطاني، رغم وجود هيئة مشتركة لرؤساء «الشاباك» و«الموساد» والاستخبارات العسكرية، إلا أنها غير فاعلة في الوضع الراهن، لذا اقترح تأسيس هيئة عليا، سلطة تضم تحتها الأجهزة الاستخبارية كافة.

النجاحات والنكسات

مع العلم أن هناك اعترافاً صهيونياً بأن للأجهزة الاستخبارية مبنى تنظيمياً ضعيفاً لا يلائم متطلبات مواجهة التحديات الأمنية الجديدة في «إسرائيل»، أي أنه ليس هناك مركز للأجهزة أو رأس مدير، كما أن التغييرات الحاصلة في التهديدات الاستراتيجية، وتقدم التكنولوجيا، وسهولة الحصول عليها من قبل أطراف معادية؛ يصعّب ويجعل مهمة مواجهتها غير سهلة على جهاز استخباري واحد، بل يتطلب العمل معاً من قبل الأجهزة الاستخبارية، في ظل توقع زيادة قوة «القوى الإسلامية» في العالم والمنطقة، مقابل تراجع دور الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن خلال استعراض تاريخ الاستخبارات الصهيونية، نجاحاتها ونكساتها، يمكن التطرّق إلى مهمات الأجهزة الاستخبارية في المستقبل، لا سيما على الأصعدة التالية:

١- التوجهات في البيئة العالمية: فالعولمة ماضية في تحديد وجه العالم في السنوات المقبلة، ومن أهم ميزاتها: تذليل الحدود بين الدول كحاجز لنقل المعلومات والبشر والتكنولوجيا والثروات، أي شرعية أقل لاستعمال القوة العسكرية مقابل استمرار مؤسسات دولية لعبت دوراً مهماً في المنظومة الدولية.

لكن هناك اتجاه معاكس للعولمة، وهو صعود قوى محلية في دول سلطة الحكم فيها ضعيفة، مثل: السلطة الفلسطينية، العراق، لبنان، وأفغانستان، معتبرة تلك المناطق بمثابة «وسادة» لنمو الأطراف المعادية لـ «إسرائيل».

٢- التوجهات في البيئة الإقليمية: حيث قدر الباحث أن الصراع العربي الصهيوني سيستمر في تصدر الأجندة الأمنية والسياسية في «إسرائيل» ودول المنطقة كـ «صراع قومي وديني وثقافي»، في صلبه الصراع الصهيوني الفلسطيني.

أما على المسار السوري واللبناني، فرأى أنّ العقد المقبل سيشهد صعوداً وهبوطاً في المسار السياسي، في ظل أن غالبية الدول العربية أصبحت تقرّ وتسلم بقيام «إسرائيل»، إلا أنه لا يستبعد صعوداً في قوة القوى المانعة للتسليم والاعتراف بوجود «إسرائيل».

٣- التنظيمات الإسلامية المحلية والعالمية: قرّر الباحث أن هذه المنظمات، إلى جانب إيران، ستستمر في تحديد «إسرائيل» كعدو يجب تدميره، لا سيما أنّ إيران مرشحة للتدخل في مواجهة بين «إسرائيل» وسورية وحزب الله، كما أن سورية وحزب الله قد يتدخلان في مواجهة حربية بين «إسرائيل» وإيران.

وهنا لا بد أن نفنّد مسألة بدت كما لو كانت حقيقة بديهية لدى عديد من المحافل الإقليمية والدولية، خاصة المخابرات الصهيونية، حيث عكف المتحدّثون باسم الحكومة والبرلمان ووسائل الإعلام على امتداح الدور الكبير والحاسم الذي تقوم به الأجهزة الاستخبارية الصهيونية في الحروب التي تشنُّها «إسرائيل» للقضاء على أعدائها في الداخل والخارج.

ويشدِّد قادة الجيش على أنه لولا المعلومات الاستخبارية التي توفِّرها هذه الأجهزة، لما استطاع أن يحارب قوى المقاومة، ومن ثم فإن هناك تخوفاً صهيونياً من أن يحظى الحيز الأمني والاستخباري بنصيب وافر من المواجهة العسكرية القادمة، في أي من الجبهات الحربية المتوقعة، ما يعطي له تركيزاً ملحوظاً يزيد على ما سواه من الجوانب الأخرى العملياتية والميدانية.

«فتمَّ الجنة»

عائشة الشريف
dr.alshreef@hotmail.com

هي:

كانت تعيش معه أسعد لحظات حياتها، رُزقت منه بولد كالقمر، واتفقا على تسميته «صهيب»، ملأ حياتهما بهجة وروعة على روعتها..

إلى أن جاءت يد المنون واختطفته من بين أهله وأحبابه، تاركاً وراءه زوجته التي لم تتجاوز العشرين من عمرها وربيعَ حياته «صهيب»..

عاشت مع «صهيب» تواسي نفسها بفقدان أبيه كلما نظرت إليه، تخاف عليه من نَفَسِها، تراقبه وهو يقطع حبال الصمت المطبقة على المنزل تارة بضحكاته وتارة ببكائه..

ذاقت المرَّ من أجله، تعلمت الكثير من المهن كي تجلب له كل ما يريد، عاش مدللاً بين أحضانها، لا تنام إلا بجانبه، تسهر معه الليالي الطوال تعلم وتربي وتحكي له حكايا النبي العظيم..

كان يفهم ما تريده وما يُفرحها وما يُغضبها من نظرة عينيها..

عجباً!!

كانت الكلمة المرسومة على أعين من يراها هي وابنها، مدللاً ومؤدباً، مطيعاً لها في جميع أحواله، لأنها – مع صغر سنها لكن مصائب الحياة علمتها خبرات شخص ناهز الثمانين – علمت كيف توازن بين أمور حاسمة الكثيرُ الكثيرُ لم يعرف كيفية الموازنة بينها..

علمته أخلاق النبي الكريم، علمته كيفية التعامل مع الجميع: صغيراً وكبيراً، فقيراً وغنياً، حاكماً ومحكوماً..

كبر وكبر معه أملها فيه.. كبر وكبرت معه فرحتها فيه.. تراقبه بعينيها وكأنه ما زال صغيراً، وكأنه ما زال «صهيب» ذاك الذي ينام في حضنها وعلى صوت حكاياها..

حكت له ذات مرة عن رفقة السوء وكيف يضرون المرء وما تؤول إليه صحبتهم، فنظر إليها بعينين ملؤها الحزن قائلاً: أمي.. أنا «صهيب» الكبير، لست «صهيباً» الذي تعوّدت عليه، «صهيب» الذي تحكي له الحكايا والنصائح وتوجهين له الأوامر، أريد أن أشعر باستقلاليتي.. أمي أرجوك.. أرجوك.. نظرت إليه بعينيها وهي تفكر ماذا دهى ولدها وما الذي أدى به إلى قول مثل هذا الكلام وما الذي.....؟

قطع حبل أفكارها بقوله: عذراً أمي.. عذراً.. هي كلمات خرجت مني... آآآآآ.. عذراً.. كنت متضايقاً قليلاً. نظر إلى ساعته ثم قال: ها قد حان موعدي مع الرفاق كما وعدتني.. هل تريدين مني شيئاً؟؟.. نظرت إليه ملياً وهي ما زالت مستنكرة تصرفاته.. لا.. شكراً.. انتبه لنفسك.. لا تنسَ أنني أنتظرك..

قبّل يدها ومال إلى أذنها هامساً: اعذريني.. أكررها مرة أخرى.. سأظل لك طائعاً مطيعاً كما عهدت مني وعهد مني الجميع..

هو:

كم أحب أمي.. كم أحب أمي.. لكن!.. هي السبب.. لم تعرف أنني كبرت.. لقد أصبحت في منتصف العقد الثاني من عمري.. يبدو أنها ما زالت تحسبني «صهيباً» ذلك الطفل الصغير، كما قلت، آآه ماذا أفعل؟!! لكن ما هذا الذي تقوله يا «صهيب»، استغفر الله، أهذا جزاء المعروف، ألم تر أنها تحبني وتخاف عليّ عندما قالت لي وأنا ذاهب: انتبه لنفسك، إني أنتظرك؟؟!!!..

كانت هذه الكلمات يردّدها عقله الباطن طيلة سيره للذهاب إلى مكان تجمع الرفاق.. وعندما وصل.. رحب بالرفاق.. تجاذبوا أطراف الحديث، ارتشف رشفة من فنجان القهوة الذي أمامه، وإذا به يسمع قول صاحبه: دورك اليوم يا «صهيب».. هيا.. لا

تخف.. مغامرة بسيطة وتنتهي.. هيا.. قم.. لا داعي للخوف.. وافق صاحبه الآخر قوله قائلاً: يبدو أنه ما زال يظن نفسه «صهيباً» الصغير.. هاهاها.. دعه إلى أن يكبر..

تحركت الرجولة في نفس «صهيب» وزأرت زئير الغضب، فنهض قائلاً: هاته هيا.. وسأريكم أني أرجل منكم..

تناول المفتاح من يد صاحبه وذهب خارجاً ووراءه باقي الرفاق كي يشهدوا تلك المغامرة الشيقة التي سيصنعها «صهيب»..

جلس على مقعد السائق ومعه باقي الرفاق في المركبة.. أعطى من كان بجانبه النقود والمناديل وكل ما كان في جيبه، استغرب صاحبه فعله فأزال تعجبه بقوله: كي أستريح في جلوسي.. وهو في الحقيقة خائف وجل لا يعرف كيف يتصرف.. يحدث تصرفات عجيبة لا تعني شيئاً.. تذكر أمه وما كانت تقول له، تذكر كلماتها الأخيرة عند باب المنزل.. تنهد وبدأ مغامرته..

وفجأة حدث ما لم يكن بالحسبان، انحرفت المركبة جانباً محدثة إصابات عمت الجميع..

نقل «صهيب» ورفاقه إلى المستشفى.. حادث عجيب أصابهم ولأول مرة منذ أن بدؤوا مغامراتهم، ويبدو أنه كان من خوف «صهيب» البالغ الذي أصابه عند ركوبه..

تلقت «أم صهيب» الخبر وكان مسمعه على أذنها كالصاعقة، قيل: «إن ولدها أصيب إصابة بالغة ستتسبب في حرمانه من البصر مدى الحياة».. خفق قلبها، ودار رأسها، وزاغ بصرها، وماجت الأرض تحت قدميها، اصطدم جسدها بالسرير الذي كان بجانبها، أجهشت ببكاء ونحيب مستمرين حتى غلبتها سنة من نوم أفاقت منها سريعاً على اتصال أتاها على الهاتف.. وقفت أمام الهاتف لتلتقط أنفاسها اللاهثة وتنتظم ضربات قلبها المضطربة، خوفاً أن تعكس نبرات صوتها ما يدل على خوفها أو قلقها.. لكن نبضات قلبها ازدادت وسار في جسدها إحساس شعرت به لحظة فراق زوجها فزلزل كيانها وجمّد أطرافها، لكن سرعان ما استرجعت لسانها بالدعاء والتوسل إلى الله.. التقطت سماعة الهاتف بيد مرتعشة..

- السلام عليكم

- وعليكم السلام.. أنا «عمر» الطبيب المتابع لحالة «صهيب».

- هل أصاب «صهيباً» مكروه.. أصحيح ما سمعت؟!

- الحمد لله على كل حال.. بسيطة بإذن الله.. نرجو حضورك فوراً فالـ.....

سقطت سماعة الهاتف من يدها وارتعشت شفتاها متمتمة: حسبي الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

ذهبت إلى المستشفى ولسانها يلهج بالدعاء.. لا تستطيع رجلاها حملها.. دخلت إلى القسم الذي يقيم فيه ابنها.. هرولت إلى الطبيب المختص بمتابعة ولدها.. نظر إليها بعينين ملؤهما الفرح.. استنكرت فرحته.. قالت والكلمات تتقطع عند خروجها: ما بك! أين «صهيب»، لماذا أنت فرح، أين ابني؟!

ذهبت من خوفها ولوعتها على ابنها تسير في الطرقات تنظر في الغرف علّها تجد ابنها.. وما زال لسانها يدعو ويدعو.. وفجأة لمحت طيف رجل جالس على كراسي الزوار هيئته مثل هيئة ولدها.. نظرت وتفحصت في الملامح فإذا هو «صهيب»..

ماذا؟! إن عينيه سليمتان.. ما الذي أراه؟ فركت عينيها بشدة.. اقتربت منه.. حدثت نفسها: يبدو أنك قد كبرت في السن يا «أم صهيب».. تلفتت حولها فرأت الطبيب ينظر إليها وبنفس فرحته، بل أشد.. خارت قواها وبدأت بالبكاء.. طمأنها الطبيب وقال لها: نعم.. هذا «صهيب».. هذا هو ابنك..

انتبه «صهيب» الذي كان مطرقاً رأسه ينظر إلى الأرض، إلى الحوار الذي جرى بين الطبيب وأمه.. نظر فإذا أمه قادمة وهي مسرعة إليه تحضنه وتستنشق رائحته.. ضمته وضمته ودمعاته تسقط على يديها حتى بللتها.. نظرت إليه عاتبة فقال لها: يكفي يا أمي معاتبة ضميري.. سامحيني.. أرجوك.. كانت تخاطبه خطاب العين والعقل.. قالت له: ما الذي حصل؟ أخبرني.. أجابها وقد فهم السؤال الذي انطلق من عينيها: لم يحدث شيء، كل ما في الأمر أني أعطيت صاحبي محفظة نقودي وبطاقتي وكل ما مكان في جيبي وبدأت المغامرة وبعدها.. آه.. نعم.. وبعدها حصل ما حصل، ووصلت إلى هنا، أدخلوني أنا ورفاقي الطوارئ للاطمئنان علينا، والحمد لله كلنا بخير، وجميع أصحابي خرجوا إلا أنا بسبب إجراءات بسيطة، أما صاحبي ذاك الذي كان يحمل أشيائي فكان يُحتمل أنه فقد النظر واعتقدوه أنه أنا لما قرؤوا اسمي على بطاقتي التي كان يحملها في جيبه، لكن ولله الحمد كان تشخيص الحالة خاطئاً، وقد خرج هو أيضاً قبل قليل بعد أن اطمأننت عليه.. فقط هذا هو كل ما حصل..

كانت تصغي إليه وهي محدقة في وجهه، وعندما انتهى.. أمسكت بيديه مغادرة المستشفى وسط استغراب من الطبيب، والأكثر منه ابنها، ولم تستفسر منه أكثر عما حصل رغم أن الكثير والكثير لم تفهمه منه ولم يخبرها به هو..

خرجت ولسان حالها يقول:

نعم.. الحمد لله على كل حال.. نعم.. على كل حال.. الحمد لله.. الحمد لله.

التعرِّي
تجارة الفضائيات العربية

باسل النيرب
basilnerab@gmail.com

أنهت أبواب الإعلام دراسة إعلامية متخصّصة تحت عنوان: «دراما رمضان 1433هـ.. دراسة وتحليل»، أشرف عليها الدكتور مالك الأحمد، وقام بها فريق إعلامي متخصّص دُرِّب على فنون التحليل التلفزيوني.

الإطار النظري للدراسة

اعتمدت الدراسة على منهج التحليل الكمي لعيّنة محددة من البرامج لدراسة متغيّرات محددة في محتوى المادة الإعلامية، من أجل الكشف عن محتواها، وهو أحد الأساليب البحثية التي تستخدم في تحليل المواد الإعلامية بهدف التوصّل إلى الاستنتاجات بطريقة دقيقة.

ترجع أهمية دراسة محتوى الرسالة الإعلامية إلى التعميمات التي يمكن الوصول إليها عن مصدر الرسالة الإعلامية وتأثيراتها المحتملة في الجمهور.

ولعل ما يميّز أسلوب تحليل المحتوى هو استيفاؤه لمتطلبات المنهج العملي في الدراسات الإعلامية، ولذلك فهو مختلف عن أسلوب التحليل النوعي أو التفسيري لرسالة الاتصال.

حرص الفريق العلمي المكلَّف بالدراسة على بناء أداة تحليل محدّدة ومقننة تساعد الباحثين على الرصد والتحليل، وقد تم وضع مجموعة من المتغيّرات، وكانت على النحو التالي:

- المجموعة الأولى: وتتضمن كل أشكال التدخين ومظاهره، وتعاطي المخدرات، وتناول الكحول.
- المجموعة الثانية: وتتضمن كل أشكال ومظاهر الرقص والتعري، والملابس المكشوفة، بشكل مثير.
- المجموعة الثالثة: وتتضمن كل ما له علاقة بالتعبيرات الجنسية اللفظية، والمحسوسة من عناق وقُبل، ومظاهر وبوادر وأفعال التحرش الجنسي.

- المجموعة الرابعة: وتتضمن كل ما له علاقة بالسرقة، والقتل أو محاولة القتل، والعراك بالأيدي أو بالأسلحة.
- المجموعة الخامسة: تتضمن الصراع بين النساء على رجل، أو الصراع بين الرجال على أنثى.
- المجموعة السادسة: وتتضمن الألفاظ النابية، والاحتيال والنصب.
- المجموعة السابعة: تتضمن كل ما له علاقة بالتعبير عن مظاهر وإشارات الكفر والإلحاد، والتجاوزات على الدين، ونقد الحجاب، واللحية.
- المجموعة الثامنة: تتضمن هدم العلاقة بين الأب والأبناء، والتعدي (لفظي أو بالأيدي) على الأب أو الأم من قبل الأبناء.

وَفْق تلك الرؤية تم متابعة مجموعة من الأعمال الدرامية التي بُثت خلال شهر رمضان ١٤٣٣هـ، وتم تحديد ما مجموعه ١١ عملاً درامياً موزعة على مجموعة من القنوات الفضائية.

تكاليف الإنتاج

خلال رمضان ١٤٣٣هـ تم إنتاج ما مجموعه ٢٠٠ مسلسل توزعت على نحو ٦١ قناة متخصصة في قطاع الدراما والسينما والمسلسلات من أصل ٧٣٣، شكّلت الكوميديا منها ٢٩,٩٪، والدراما ٦٤,٢٪، والمسلسلات التاريخية التراثية ٦٪.

وفي التكلفة، بلغت تكلفة المسلسلات المصرية على سبيل المثال ملياراً و١٥٠ مليون جنيه، وعدد مسلسلاتها ٦٢ مسلسلاً، اللبنانية ٤ مسلسلات، السورية ٣٥ مسلسلاً، الخليجية ٢٦ مسلسلاً، والمغربية ٢٢ مسلسلاً.

وفي الخريطة البرامجية لعام ٢٠١٠م أنتجت مصر على سبيل المثال ٥٠ مسلسلاً كلفت نحو ٧٥٠ مليون جنيه مصري، دفعت بعض القنوات المصرية ٣٥ مليون جنيه لشراء حقوق العرض لبعض المسلسلات، بينما بلغت تكلفة الإنتاج لـ ٣٥ مسلسلاً في عام ٢٠٠٩م ٣٦٤ مليون جنيه، وإجمالي ما أنتج من دراما عربية في رمضان لعام ٢٠٠٨م ٤٦ مسلسلاً تكلفتها الإجمالية ٦٠٠ مليون جنيه مصري.

الفضائيات في رمضان

تحوّلت الفضائيات في شهر رمضان بفعل سطوة الإعلام إلى وحش كاسر يلتهم الجمهور، وأصبحت المسلسلات نوعاً من التجارة دون النظر إلى مضمون العمل، وبعد انتشار الفضائيات أصبح هناك نوع من المنافسة الإعلامية على ما يُعرض من دراما وبرامج تعتمد على الجاذبية، وتهتم بالدراما الاجتماعية والترفيهية، على حساب الثقافة الدينية، لدرجة أن عدد الأعمال الدرامية أصبح أكبر من عدد الأيام الرمضانية، وأصبح المشاهد محاصراً بالاختيار بين سيئ وأسوأ، لكن المشكلة أن هذه الدراما تتجه اتجاهاً تجارياً، والمشكلة الأكبر أنها أصبحت تأخذ الشكل السلبي للثقافة بمعنى التركيز على العلاقات الأسرية السيئة والجرائم تحت بند الواقع المر للحياة، وتعتمد البرامج على الإساءة والإسفاف والاستهزاء بالإنسان، أما البرامج الدينية ونتيجة لكثرة الفضائيات، أصبحت تستعين ببعض الذين يصدرون فتاوى ونصائح دينية متناقضة وغير مقنعة، يشوبها مغالطات دينية، وتكتشف بجولة سريعة على الفضائيات أن للجميع جمهوره من حجم الاتصالات والطلبات والسؤال المكرر دائماً في كل موسم رمضاني عن قضايا دينية محددة.

واقع المشاهد في دراما رمضان ١٤٣٣هـ

- إجمالي المشاهد التي عرضت التدخين بأنواعه بلغ ٣٥٦ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي عرضت تعاطي المخدرات بلغ ٣٣ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي عرضت تناول الكحول بلغ ١١١ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي ظهر فيها التعري والملابس المكشوفة بشكل مثير من الصدر أو من الخلف، بلغ ١٥٣٦ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي تناولت التعبيرات الجنسية اللفظية بلغ ٢٧٠ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي ظهر فيها ما يمكن وصفه بالتعبيرات الجنسية المحسوسة من عناق وقُبل، بلغ ٤٢٨ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي عرضت التحرش ومظاهر التحرش الجنسي بلغ ٥٤ مشهداً.
- مشاهد السرقة بلغت ٢٢ مشهداً.
- مشاهد القتل أو محاولة القتل بلغت ٧٧ مشهداً.
- مشاهد العراك بالأيدي أو بالأسلحة بلغت ١٤٥ مشهداً.
- مشاهد الصراع بين النساء على رجل أو بين الرجال من أجل أنثى، بلغت ٣١ مشهداً.
- مشاهد الألفاظ النابية بلغت ٤٧٣ مشهداً.
- مشاهد الاحتيال والنصب بلغت ١٥٣ مشهداً.
- التعبيرات عن كفر وإلحاد والتجاوزات على الدين بلغت ٤٩ مشهداً.
- نقد الحجاب واللحية ظهر بواقع ٥٣ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي تناولت هدم العلاقة بين الأب والأبناء بلغ ٦٣ مشهداً.
- إجمالي المشاهد التي تناولت التعدي (لفظي أو بالأيدي) على الأب أو الأم من قبل الأبناء، بلغ ٤٦ مشهداً.

دلالات ونتائج

إن الرصد الذي قام به فريق الدراسة اشتمل على مجموعة من المفاصل الأساسية التي تشكّل عموداً أساسياً في صلب الحياة العربية الإسلامية، وظهرت فيها مخالفات متعددة في البرامج التي تم رصدها خلال رمضان ٢٠١٢م، ويمكن قراءتها على النحو التالي:

أولاً: المخالفات الأخلاقية:

يُلاحَظ تركيز كبير على إظهار المخالفات الأخلاقية وكأنها أمر طبيعي ومقبول في المجتمعات العربية، وكان لها النصيب الأبرز في الوضوح، حيث ظهر مشهد تناول الكحول بواقع ٣,٧ مشهد في اليوم الواحد في شهر رمضان.

والمخدرات ومع انتشارها في بعض المجتمعات، أظهرتها الدراما العربية في رمضان وكأنها واقع حياة يومي، وظهرت بواقع ١,١ مشهد.

أما التدخين، ومع معرفة الطفل بالضرر الذي يتسبّب فيه حتى على غير المدخنين، إلا أن منتجي الدراما العربية يحرصون على إظهار المدخن القدوة الذي يساعده على حل المشاكل والتغلب على قلقه، فظهر مشهد التدخين بواقع ١١,٩ مرة في دراما رمضان ٢٠١٢م.

أكاد أجزم أن المنتجين للدراما العربية لرمضان ٣٣هـ يعانون مشاكل مع الملابس، حيث تغلّبت مشاهد التعري على أغلب المشاهد التلفزيونية، وخلال ساعة تلفزيونية تظهر مشاهد التعري بواقع ٥١,٢ للبرامج التي تم رصدها في رمضان ٢٠١٢م، وهذا الرقم

مخيف جـــداً؛ بحيث لو فرضنا أن مدة المسلســـل ســـاعة نجد أن أغلب ما يُقـــدَّم فيها يخدش حياء المشاهد ويخدش فضائل الشهر الكريم – رمضان.

دخول التعبيرات الجنسية على مشاهد الدراما العربيـــة جاء بعـــد تعثر كتابة القصـــص، وأصبح المنتـــج يبحث عن الإثارة، حتى في أبســـط حالات التصوير، دون تقديم ســـبب مقنـــع. وحالات المنع وإعادة التصوير التي شـــهدتها بعض المشاهد تؤكد أن ما مُنع بثه كان أكبر مما سُـــمح به، حيث قدمت دراما رمضان – ومع الأسف – ٢٣,٣ مشهد تحمل تعبيرات جنسية، سواء كانت لفظية أو محسوسة.

وفتـــح باب التعبيرات الجنســـية يعني الدخول في عالم التحرش الجنســـي ومظاهره، وهو ظاهرة موجودة في كثير مـــن المجتمعات العربية، لكن من غير اللائق تصويرها تلفزيونيـــاً وإظهارها وكأنها أمـــر طبيعي، وفي رمضان المنصـــرم ٢٠١٢م ظهر التحرش الجنسي بواقع ١,٨ مرة في اليوم الواحد.

يبـــدو أن الدرامـــا العربية ملَّت من مشـــاهد السرقة التي كانت ســـمة الكثير من أعمالها، وفي دراما رمضان ٢٠١٢ بُثت مشـــاهد الســـرقة بواقع ٠,٧ مرة في اليوم.

تتجـــه الدرامـــا العربيـــة نحو برامـــج الإثارة والأكشـــن، وهـــو منحـــى جديد يحمـــل تطورات مســـتقبلية يميل إليها المنتجون الآن، وقد ســـجلت مشاهد الأكشن واقع ٧,٤ في اليوم الواحد.

الصراع على النساء أو الرجال جاء بواقع مشهد واحد فقط في كل يوم من دراما رمضان ٢٠١٢.

الألفـــاظ النابية التي كانت نـــادرة في الدراما العربية أخذت بالانتشـــار الآن عبر شتائم متواصلة لا تتوقف من قبل أبطال العمل للتعبير عن غضبهم من أمر ما، وظهرت بواقع ١٥,٨ في اليوم الواحد.

الاحتيـــال والنصب الذي برعـــت في تقديمه الدراما العربية قديماً وإظهار البطل الذي يتخذ من كل الطرق وسيلة لأخذ حقه مهما كانت ملتوية، ظهر في دراما رمضان ١٤٣٣هـ بواقع ٥,١ مرة يومياً.

ثانياً: المخالفات الدينية والاجتماعية:

المخالفات الدينية والتعدي على المعتقدات والعقائد السماوية بطرق ملتويـــة، كان له نصيب مـــن دراما رمضـــان ٢٠١٢، فالتعبير عن الكفر والإلحـــاد تم بواقع ٠,٧ مرة في اليـــوم الواحد، والتجاوز على الدين تم بواقع ٠,٩ في اليوم، أما نقـــد الحجاب فتم بواقع ٠,٢، والذقن فظهر بواقع ١,٥ مرة في اليوم الواحد.

كما أن مسعى الدراما نحو نقد مؤسسة الأسرة والتهجم عليها ظهر بكثافة في دراما رمضان ٣٣هـ، ولم يكن ظاهراً في الســـنوات الماضية، فهدم العلاقة بين الآباء والأبناء وتهجم الأبناء على الآباء والأمهات، أخذ حيزاً لا بأس به، وقد بلغ ٢,٧ مشهد في اليوم الواحد.

وختامـاً: لقد تبيَّن من خـــلال الرصد والتحليل لبرامج الفضائيات العربية في رمضان ١٤٣٣هـ، أنها هي ذاتها في الرداءة والميوعة والهبوط بالذوق العام مضموناً وعلى مســـتوى اللغة المقدمة، وفي كل سنة إعادة إنتاج الرداءة إلى ما لا نهاية وكأن الأمر مقصود ومرتب له.

لقـــد تبيَّن من التحليـــل تلميع مجموعة من النجوم ممن يشـــاركون شاشـــة القناة برامج رمضـــان، ويتخلل ذلك تكريســـهم ومنحهم أولوية الظهور المستمر طوال العام وكأن القناة مما ملكت أيمانهم.

لقد تبيَّن من التحليل غياب الأسس الموضوعية للبرامج حتى لو كانت مستنســـخة، ولا يوجد فريق يدرس الفكـــرة، بل هو قرار ارتجالي فوقي من مسؤول ما في القناة، والنتيجة: تجمّدت الطاقات، وضاعت الأفكار، والمضمـــون لا يختلف كثيراً عن حالة الإعلام العربي خارج أيام رمضان، لكن الجرعة الزائدة من الفساد والفجور تزداد في رمضان!

الربط القياسي..

مفهومه ومذاهب الفقهاء فيه

د. عبد السلام ميصور
Maiss1430@hotmail.com

لقد أُنجزت دراسات وأبحاث في مسألة تثبيت القوة الشرائية للدخول والديون. وعُقدت مؤتمرات وحلقات علمية من أجل بحث المسألة من جوانبها كافة: الشرعية والاقتصادية.

هذا ولم تجمع هذه الأعمال العلمية على الحكم الشرعي في مسألة تثبيت القوة الشرائية للدخول والديون.. هل يجوز الحكم بصحة تحديد القيمة فيها أم لا؟

كما لم تجمع على الصيغة الشرعية لربط الديون والالتزامات الآجلة والدخول:

هل يكون الربط بمؤشر تكاليف المعيشة؟

أم بعملة مستقرة نسبياً؟

أم بالذهب والفضة؟

وهل يصح إجراؤه على مقولات الفقهاء المتقدمين في تغيّرات النقدين الذهب والفضة، باعتبار الورق النقدي في حكمهما مطلقاً، أو على آرائهم السابقة في تغيّرات الفلوس الرائجة من حيث الغلاء والرخص والكساد والانقطاع، أم لا يصح ذلك كله ولا بد من اجتهاد في المسألة جديد[1]؟

(١) د. نزيه حماد: قضايا فقهية معاصرة في المال والاقتصاد، ص ٤٩١.

تعريف الربط القياسي:

الربط القياســـي «الاقتياس» ترجمة عربية للفظ الأجنبي indexation، وهذا مأخـــوذ من index numbers، وتعني الأرقام القياســـية التي يعرف معناها دارســـو الإحصاء والاقتصاد، ويطلق عليها بالفرنسية indices، حيث تتخذ ســـنة معينة أساســـاً للمقارنة وتعطي رقماً قياسياً مقداره ١٠٠، وتحدد التغيرات النسبية في ســـني المقارنة، فتكون أرقامها القياسية ١٠٠ أو أكثر أو أقل بحسب الثبات أو الزيادة أو النقصان[١].

ويقصد بالربط القياســـي جعل دَيـــن أو التزام مالي آخر يتغير مبلغه عند الاســـتحقاق بتغير مقياس أو مؤشـــر لا يكون مستواه عند الاستحقاق معروفاً عند التعاقد، بل يعرف عند الاســـتحقاق، والمقياس المشار إليه غالباً هو الرقم القياســـي لتكاليف المعيشة الذي يعكس تغير مســـتوى الأسعار، إلا أن هناك أرقاماً قياســـية كثيرة تتكاثف جميعاً في إعطاء صورة عن التغير في مستويات الأســـعار وتكاليف الإنتاج، ولا يمكن لأحد منها – فقـــط – أن يكون الجواب النهائي في هذه المسألة[٢].

ويقصد الربط القياســـي للقرض تثبيت قيمته تحقيقاً للعدالة بين طرفيه: المقرض والمقترض[٣].

أنواع الربط القياسي:

هناك ثلاثة أنواع للربط القياسي:

أحدها: الربط التعاقدي (الرضائـــي)، وقوامه اتفاق الطرفين في مداينة على كون الالتزام المالي فيها مرتبطاً بمؤشر تكاليف المعيشة.

والثاني: الربط القانوني، وذلـــك عندما يصدر قانون حكومي يُلزم جميع الأشـــخاص المتداينين بالربط، مثل إصـــدار حكومة قانوناً يلزم جميع البنوك بربط الودائع المصرفية بمؤشر تكاليف المعيشة.

والثالث: الربط العلاجي، وهـــذا الربط لا يكون مقرراً أصلاً عند المداينـــة لا بالتراضي بـــين العاقدين ولا بقوة القانـــون، لكن يُلجأ إليه عنـــد الوفاء في حـــالات التضخم التي تنخفض فيها القوة الشـــرائية للنقود انخفاضاً فاحشـــاً لتعديل الديون والالتزامات الآجلة بغية إعادة التوازن فـــي تلك المداينات تحقيقـــاً لمبدأ العدالـــة والإنصاف، ورفعاً للظلـــم والإجحاف عن المدينين، وجبـــراً للضرر اللاحق بهم نتيجة ذلك التضخم[٤].

(١) د. رفيق المصري: الإسلام والنقود، ص ٨٥.
(٢) محمد علي القري: ص ١٧.
(٣) نفسه ص ٨٦.
(٤) د. نزيه حماد، ص٤٩٤.

مذاهـب العلماء المعاصرين في حكم الربط القياسي:

اختلف العلماء والباحثون المسلمون في حكم الربط القياســـي، فمنهم من أجازه بقصد دفـــع الضرر التضخمي، خاصـــة الربـــط القياســـي للأجور والودائـــع المصرفيـــة، واســـتدل على موقفه بأدلة منها: أن الزيادة المستفادة من ربـــط الديون والقـــروض بقائمة الأسعار ليســـت زيادة حقيقية، وإنما هـــي رد لنفس المالية التـــي اقترضها المقترض[٥].

يقـــول الدكتـــور عجيل جاســـم النشـــمي: ولا نجد ما يمنع من تنظيم الدول نســـب التضخم وتحديدها كل عام، وتكون قائمة الأســـعار مقياســـاً لتقييـــم العملة. وهـــذا موضوع ينظر تفصيلـــه عند الاقتصاديين، لكن المبدأ مقبول ابتـــداء، حتـــى تتجلي صورته العمليـــة من كل وجه، ويتبـــين عدم مصادمته لنص أو قاعدة أو مقصد شرعي.

ومنهم من اعتبر الربط القياســـي للدخول (الأجـــور والرواتـــب والمعاشـــات وغيرها من الدخول الثابتة المتشـــابهة)، قـــد يكون مجدياً ويمكـــن اللجوء إليه باعتدال على أنه مســـكن مؤقت لآلام التضخم، لكنه ليس حلاً مستديماً. فإن السياسة البديلة المثلى التي تتفق مع معيار العدالة الاقتصاديـــة الاجتماعية، وهو المعيار الذي تؤكد الشريعة الإســـلامية أهميته، هي اســـتقرار الأســـعار لا الربط القياسي. وعلى الدولة الإســـلامية أن تبـــذل كل جهد ممكن لتحقيق هذا الهدف[٦].

ومنهم من اقترح جـــواز الربط بمجموعة من الأرقام القياسية لا برقم واحد: وعلى هذا

(٥) القاضي محمد تقي العثماني: تغير قيمة العملة، ص ٤٣٩، المجلة العربية للفقه والقضاء.
(٦) د. محمد عمر شابرا، نحو نظام نقدي عادل، ص ٦١.

الأســـاس تتطلب العدالة الاقتصادية الاجتماعية ربط الدخول والأصول النقدية لا باســـتخدام رقم قياســـي عـــام واحد، بل باستخدام عدة أرقام قياسية تستند إلى أنماط الإنفاق المختلفة، وعلى العكس من ذلك فقد بين التطبيق العلمي أن التوســـع في الربا القياســـي على الدخول والأصول النقدية حتى لو استند إلى رقم قياسي عام واحد؛ غير مجد بسبب تعقيداته وتكاليفه العالية، لذلك لم يحرم إلا ربط بعض الدخول والأصول النقدية وكان أوســـع تطبيق له في مجال الأجور والرواتب والمعاشـــات التقاعديـــة، كما حـــرم الربط في بعض الأصـــول المالية (مثل القروض والودائع المصرفية والســـندات الحكومية) والضرائب والإيجارات والقروض الموثقة برهون عقارية[١].

ومنهم من لم يقبله واستدل على موقفه بحجج منها:

– ســـد باب الذريعة إلى المحرم: والقول بالربط القياسي ذريعـــة للفائدة، ولا معنى للقـــول بحرمة الفائدة إذا أجيز ربط الديون والودائع بمؤشر الأسعار[٢].

– أن الربـــط يعني ضمان عائد إيجابي للقروض، وهو عين الربا المحرم.. يقول محمد عمر شابرا إن ربط القروض الحسنة لا يزال مشكلة قائمة. فهل يمكن الأخذ به؟ الحكم العام للفقهاء لا يزال حتـــى الآن على عدم جواز ربط الأصول المالية بما في ذلك القروض الحسنة، ويرجع ذلك إلى أن الربط يعني ضمان عائد إيجابي على القروض حتى لو كان ذلك على أساس نقدي لا حقيقي، ولهذا يعد داخلاً في ربا النسيئة[٣].

– النظـــر إلى المآلات معتبر مقصود شـــرعاً: فلو أبيح الربط القياســـي لأدى إلى أن يأخذ المقرض من المقترض أكثر مما يأخذه المرابون وأكثر مما يربح لو استثمر مبلغ القروض بطريق مشروع[٤].

– أن الربط القياســـي ينبنـــي على أرقـــام تقريبية يكثر الاختـــلاف بين المتخصصين فـــي قواعد إعدادهـــا وفي فهم وتحليل نتائجها[٥].

– أن الربط القياســـي يتضمن غـــرراً محققاً، لأن طرفي العقد لا يعلمان ما سيؤول إليه الثمن أو الأجر عند القبض[٦].

– أنـــه يتضمن الجهالـــة بمقدار الثمن فـــي البيع المؤجل والأجرة في عقود الإجارة[٧].

– أن المقترح في ربط الديون بقائمة الأســـعار ليس تماثلاً فعلياً، وإنما هو تماثل مقدر على أساس المجازفة والتخمين، لأن نســـبة الزيادة والنقصان في الأســـعار ليست إلا نسبة تقريبية إنما تقدر على أســـاس حســـاب مخصـــوص لا يرجع إلا إلى المجازفة والتخمين[٨].

– أن المقصد الشرعي من مشروعية القرض أن يكون عملاً من أعمال البر والإرفاق بالمقرض: ولا يصح للمقترض أن يتخذ القرض طريقاً لاستثمار ماله والحفاظ على قيمته، فمن جعله وســـيلة لاســـتثمار أمواله وتنميتها والحفاظ على قيمتها؛ فقد خالف قصد الشارع[٩].

– أن ربط الأجـــور المتكررة بتغير الأســـعار يتضمن غرراً ناشئاً عن الجهالة بمقدار الأجر[١٠].

– اســـتباحة الفائدة الربوية تحت ستار الربط القياسي.. يقـــول الدكتور القري: بل إني أقـــول إنه لا معنى للقول بحرمة الفائدة إذا قلنا بجواز الربط القياســـي، لأن تحريمها لا يعدو أن يكون لغواً.

ومنهم من ميّـــز في الحكم بجواز الربط القياســـي بين أمرين:

– الربط القياسي للأجور والمرتبات.

– الربط القياسي للقروض أو الديون.

الأول: جائز عندهم.

والثاني: ممنوع.

ودليل هؤلاء:

– أن ربط الأجور والمرتبات يلبي معيار العدل الإسلامي[١١].

– أن الربـــا بنوعيه ينطبق فقط علـــى عمليات الاقتراض والإقـــراض والديـــون بشـــكل عـــام ولا ينطبق علـــى الأجور والمرتبات[١٢].

– أن ربـــط الودائع وأدوات الديـــن والقروض لا يجوز لأنه أكثر جوراً من الربا[١٣].

ومنهم من نظر في نوعين من الربط:

١ – الربط القياسي بمؤشر تكاليف المعيشة.

٢ – الربط ببعض العملات الذهبية.

(١) د. محمد عمر شابرا، نحو نظام نقدي عادل، ص ٥٦–٥٧.
(٢) علي القري: الربط القياسي، ص ٢٧.
(٣) د. محمد عمر شابرا: نحو نظام نقدي عادل، ص ٥٨.
(٤) د. نزيه حماد، ص ٤٩٧.
(٥) محمد علي القري، ص ١٨.
(٦) د. رفيق المصري: الإسلام والنقود، ص ٨٤.
(٧) د. رفيق المصري: الإسلام والنقود، ص ٨٤.
(٨) القاضي محمد تقي العثماني: تغير قيمة العملة، ص ٤٤٢، المجلة العربية للفقه والقضاء.
(٩) د. رفيق المصري: الإسلام والنقود، ص ٨٤.
(١٠) د. رفيق المصري: الإسلام والنقود، ص ٨٤.
(١١) انظر: القري: الربط القياسي، ص ٢٦–٢٧.
(١٢) نفسه، ص ٢٧.
(١٣) نفسه.

فأجازوا النوع الأول دون الثاني.

ولقد أدى النظـــر الاجتهادي فيما يتم به تثبيت الديون والدخول، إلى تنوع صيغ عديدة للتقويم ذكر منها الدكتور عصمت عبد المجيد بكر:

- تحديـــد العملة الأجنبية أو معادل قيمة هذه العملة في الالتزام العقدي.
- تحديـــد الالتزام النقـــدي بالذهب أو بقيمة معادلة لكمية معينة من الذهب.
- تحديد الالتزام العقدي بتسليم بضاعة معينة أو ثمن بضاعة معينة.
- تحديـــد الالتزام العقدي وفقاً لمؤشـــر معين.

وقد يتم اللجوء إلى أســـاليب أخرى في تحديد الالتزام العقدي لتجنب الآثار المترتبة على تغيّر قيمة النقد، كإدراج شرط الإرهاق وشـــرط إعادة النظر في العقد أو شـــرط التكييف؛ وهذه الأســـاليب تُعتمد عادة فـــي العقود الدولية خاصة.

وتحديد الالتزام النقدي بعملة مســـتقرة نســـبياً كالدولار الأمريكي والجنيه الإســـترليني والمارك الألماني؛ أسلوب يمكن في نظر البعـــض أن يتفادى به المتعاقدون آثـــار تذبذب قيمة النقود.. وبناء على هذا الأسلوب إذا استدان أحدهم ألف دينار أردني تحســـب قيمتها بالنسبة إلى الدولار مثلاً، فتكون ٢٣٠٠ دولار، وعند الوفاء إما أن يســـددها ٢٣٠٠ دولار أو ما يساويه من الدينار عند الوفاء[١].

وهناك من الباحثين من يرى أن هذا القول إذا اعتمد فكأننا نؤســـس نظرية شرعية في مصلحة الغرب، إذ مبتغاهم اعتماد عملاتهم في كل دول العالم للهيمنة والســـيطرة على مجريات حركة ســـوق البورصة العالمية؛ فالتحكـــم في أجهزة الاقتصاد لبلدان العالم كله[٢].

والحقيقة أنه ســـواء قلنا بربط الدين والالتزامات بالعملة الأجنبية أم لا، فإن هذا لا يدفع الهيمنة الغربية على المســـلمين

في مجال أســـواق النقد العالمية وغيرها ما داموا لم يستطيعوا استشـــراف المســـتقبل وتقييم الذات والأخذ بشروط النهضة الحقيقية في ضـــوء تنزيل قيم الســـماء وتحكيمها في ضبط سلوك البشر.

والدعوة إلى توحيـــد التعامل بعملة إســـلامية على غرار العملة الأوروبية الموحدة، تحتاج إلى إرادة سياسية قوية تستطيع إعادة توحيد الذات العربية والإســـلامية على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية.

أمـــا تثبيت قيمة الدين بالذهـــب أو بقيمة معادلة لكمية معينة من الذهب، فيدافع عنه الكثيرون لاتصافه بالاستقرار النســـبي من جهة، ثم لربط زكاة النقـــود الورقية به من جهة أخرى.

وفي لغة الأرقام أجرى الدكتور محمد الأشـــقر مقارنة بين قيمة الذهب في عصر رســـول اللـــه وفي عصرنا الحاضر في حساب الأنصبة وأقيامها، حتى قال: إن القوة الشرائية للذهب في زمن النبي ﷺ كانت تســـاوي ١٠٠٪ أو ١٢٠٪ مما هي عليه الآن لا أكثر [٣].

(١) هايل عبد الحفيظ يوسف داود: تغير القيمة الشرائية للنقود الورقية، دراسات في الاقتصاد الإسلامي ٣٥، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ٣٣٦.

(٢) مضر نزار العاني: أحكام تغير قيمة العملة النقدية وأثرها في تسديد القرض، ص ١٣٨.

(٣) مضر نزار العاني: أحكام تغير قيمة العملة النقدية وأثرها في تسديد القرض، ص ١٣٤-١٣٥.

الربـط القياسـي في دورات مجمع الفقه الإسـلامي الدولي:

انتهى رأي مجمع الفقه الإسلامي الدولي في مسألة الربط القياسـي بعد اطلاعه على البحوث والدراسـات في عدد من الدورات التي يعقدها المجمع؛ إلى اتخاذ قرار في الموضوع هو:

قرار رقم: ٧٥ (٦/ ٨)[١]

بشـأن قضايا العملة.. إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره الثامن ببندر سـيري بيجوان، بروناي دار السلام، من ١ – ٧ محرم ١٤١٤هـ الموافق ٢١ – ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٩٣م، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمـع بخصوص موضوع قضايا العملة، وبعد اسـتماعه إلى المناقشات التي دارت حوله؛ قرر ما يلي:

أولاً: يجـوز أن تتضمن أنظمة العمـل واللوائح والترتيبات الخاصة بعقود العمل التي تتحدد فيها الأجور بالنقود، شـرط الربط القياسي للأجور، على ألا ينشأ عن ذلك ضرر للاقتصاد العام.

والمقصـود هنا بالربط القياسـي للأجـور تعديل الأجور بصورة دورية تبعاً للتغيّر في مسـتوى الأسـعار وفقاً لما تقدره جهـة الخبرة والاختصاص، والغرض من هـذا التعديل حماية الأجـر النقدي للعاملين من انخفاض القدرة الشـرائية لمقدار الأجر بفعل التضخم النقدي وما ينتج عنه من الارتفاع المتزايد في المستوى العام لأسعار السلع والخدمات.. وذلك لأن الأصل في الشـروط الجواز إلا الشـرط الذي يحل حراماً أو يحرم حلالاً.. علـى أنه إذا تراكمت الأجرة وصارت ديناً تطبق عليها أحكام الديون المبينة في قرار المجمع رقم ٤٢ (٥/٤).

ثانياً: يجوز أن يتفق الدائن والمدين يوم السـداد – لا قبله – على أداء الدين بعملة مغايرة لعملة الدين إذا كان ذلك بسـعر صرفها يوم السداد. وكذلك يجوز في الدين على أقساط بعملة معينة، الاتفاق يوم سـداد أي قسـط على أدائـه كاملاً بعملة مغايرة بسعر صرفها في ذلك اليوم.

ويشترط في جميع الأحوال أن لا يبقى في ذمة المدين شيء مما تمت عليـه المصارفة في الذمة، مع مراعاة القرار الصادر عن المجمع برقم ٥٠ (٦/١) بشأن القبض.

ثالثـاً: يجـوز أن يتفق المتعاقدان عنـد العقد على تعيين الثمن الآجـل أو الأجرة المؤجلة بعملة تدفع مرة واحدة أو على أقسـاط محددة من عملات متعددة أو بكمية من الذهب، وأن يتم السـداد حسب الاتفاق، كما يجوز أن يتم حسب ما جاء في البند السابق.

رابعـاً: الدين الحاصل بعملة معينـة لا يجوز الاتفاق على تسـجيله في ذمة المدين بما يعادل قيمة تلك العملة من الذهب أو مـن عملة أخـرى، على معنى أن يلتزم المديـن بأداء الدين بالذهب أو العملة الأخرى المتفق على الأداء بها.

خامسـاً: تأكيد القرار رقـم ٤٢ (٥/٤) الصادر عن المجمع بشأن تغيّر قيمة العملة، ويوصي بما يلي:

قيـام الأمانة العامـة بتكليف ذوي الكفـاءة من الباحثين الشـرعيين والاقتصاديين مـن الملتزمين بالفكر الإسـلامي، بإعداد الدراسات المعمقة للموضوعات الأخرى المتعلقة بقضايا العملـة، لتناقش في دورات المجمع القادمة إن شـاء الله، ومن هذه الموضوعات ما يلي:

أ. إمكان استعمال عملة اعتبارية مثل الدينار الإسلامي، وبخاصة في معاملات البنك الإسـلامي للتنمية، ليتم على أساسـها تقديم القروض واسـتيفاؤها، وكذلك تثبيت الديون الآجلة ليتم سدادها بحسب سعر التعادل القائم بين تلك العملة الاعتبارية بحسب قيمتها، وبين العملة الأجنبية المختارة للوفاء كالدولار الأمريكي.

ب. السـبل الشـرعية البديلة عن الربـط للديون الآجلة بمستوى المتوسط القياسي للأسعار.

ج. مفهوم كسـاد النقود الورقية وأثره في تعيين الحقوق والالتزامات الآجلة.

د. حـدود التضخم التي يمكن أن تعد معه النقود الورقية نقوداً كاسدة.. والله أعلم.

قرار رقم: ١١٥ (٩/ ١٢)[٢]

بشأن موضوع التضخم وتغيّر قيمة العملة.. إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في دورته الثانية عشرة بالرياض في المملكة العربية السعودية، من ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ حتى ١ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢٣ –

(١) مجلة المجمع (العدد الثالث، ج٣، ص١٦٥٠؛ والعدد الخامس، ج٣، ص١٦٠٩).

(٢) مجلة المجمع (العدد الثاني عشر، ج ٤، ص ١٠؛ والعدد الخامس، ج ٣، ص ١٦٠٩).

٢٨ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠م، بعد اطلاعه على البيان الختامي للندوة الفقهية الاقتصادية لدراسة قضايا التضخم (بحلقاتها الثلاث بجدة، وكوالالمبور، والمنامة) وتوصياتها، ومقترحاتها، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حول الموضوع بمشاركة أعضاء المجمع وخبرائه وعدد من الفقهاء؛ قرر ما يلي:

أولاً: تأكيد العمل بالقرار السابق رقم ٤٢ (٥/٤) ونصه: «العبرة في وفاء الديون الثابتة بعملة ما، هي بالمثل وليس بالقيمة، لأن الديون تقضى بأمثالها، فلا يجوز ربط الديون الثابتة في الذمة، أياً كان مصدرها، بمستوى الأسعار».

ثانياً: يمكن في حالة توقع التضخم التحوط عند التعاقد بإجراء الدين بغير العملة المتوقع هبوطها، وذلك بأن يعقد الدين بما يلي:

أ. الذهب أو الفضة.

ب. سلعة مثلية.

ج. سلة من السلع المثلية.

د. عملة أخرى أكثر ثباتاً.

ه. سلة عملات.

ويجب أن يكون بدل الدين في الصور السابقة بمثل ما وقع به الدين، لأنه لا يثبت في ذمة المقترض إلا ما قبضه فعلاً.

وتختلف هذه الحالات عن الحالة الممنوعة التي يحدد فيها العاقدان الدين الآجل بعملة ما، مع اشتراط الوفاء بعملة أخرى (الربط بتلك العملة) أو بسلة عملات، وقد صدر في منع هذه الصورة قرار المجمع رقم ٧٥ (٨/٦) رابعاً.

ثالثاً: لا يجوز شرعاً الاتفاق عند إبرام العقد على ربط الديون الآجلة بشيء مما يلي:

أ. الربط بعملة حسابية.

ب. الربط بمؤشر تكاليف المعيشة أو غيره من المؤشرات.

ج. الربط بالذهب أو الفضة.

د. الربط بسعر سلعة معينة.

ه. الربط بمعدل نمو الناتج القومي.

و. الربط بعملة أخرى.

ز. الربط بسعر الفائدة.

ح. الربط بمعدل أسعار سلة من السلع.

وذلك لما يترتب على هذا الربط من غرر كثير وجهالة فاحشة بحيث لا يعرف كل طرف ما له وما عليه فيختل شرط المعلومية المطلوب لصحة العقود. وإذا كانت هذه الأشياء المربوط بها تنحو منحى التصاعد، فإنه يترتب على ذلك عدم التماثل بين ما في الذمة وما يُطلب أداؤه ومشروط في العقد، فهو ربا.

رابعاً: الربط القياسي للأجور والإجارات:

أ. تأكيد العمل بقرار مجلس المجمع رقم ٧٥ (٨/٦) الفقرة: أولاً بجواز الربط القياسي للأجور تبعاً للتغير في مستوى الأسعار.

ب. يجوز في الإجارات الطويلة للأعيان تحديد مقدار الأجرة عن الفترة الأولى والاتفاق في عقد الإجارة على ربط أجرة الفترات اللاحقة بمؤشر معين، شريطة أن تصير الأجرة معلومة المقدار عند بدء كل فترة.

الرأي المختار في حكم الربط القياسي:

يرى الباحث – بعد عرض مذاهب العلماء، وذكر ما توصل إليه مجمع الفقه الإسلامي الدولي من قرارات بشأن الربط القياسي – أن أنسب الآراء وأوفقها لمقصود الشرع هو جواز الربط القياسي بشرط مراعاة القواعد التالية:

الأولى: أن يقع الاتفاق على الربط القياسي يوم السداد لا يوم التعاقد؛ سداً لذريعة الربا أو الجهل بالثمن أو الغرر فيه.. والأصل في جواز هذا الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم: «المسلمون على شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً»، وأخذاً بالقاعدة الفقهية: الأصل في المعاملات الجواز.

الثانية: أن يكون الضرر محققاً وفاحشاً فيرفع.. والأصل في هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار»، والقواعد الفقهية الأخرى في الضرر، مثل: «الضرر يزال»، و«الضرر مرفوع».

الثالثة: ألا تكون للدائن قدرة على دفع الضرر قبل وقوعه، فينزل منزلة دفع الجائحة، في صحيح مسلم: «أمر النبي عليه السلام بوضع الجوائح».

الإمام ابن قيم الجوزية..

رحلاته للحج (٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ)

خالد بن محمد الأنصاري(*)

@khalidmalansary

لقد حاز علماء المسلمين قصب السبق في ميدان الرحلات، واعتنى بعضهم قديماً وحديثاً برحلة الحج عناية خاصة، وشدوا الرحال لبيت الله الحرام لأداء هذه الفريضة، ولأخذ العلوم عن الشيوخ ومقابلتهم، وحضور بعض المجالس العلمية للاستزادة من العلم والمعرفة، والقيام بتدوين ما يجري عليهم أثناء هذه الرحلة، ووصف مشاقها وأحداثها إلى حين عودتهم لبلادهم. وكان لهذه الشعيرة (الحج) الأثر البالغ في رفع معنوياتهم النفسية والعلمية، ما دفع بعضهم للمجاورة والتفرغ للعبادة وأخذ العلم وتدوينه.

وقد كان الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - أحد هؤلاء الأعلام الذين رحلوا للحج عدة مرات، وجاوروا البيت الحرام، وقد تحدث عن أسرار شعيرة الحج في كتابه الشيق والممتع (مفتاح دار السعادة) (٢/٣٢٣ - ٣٢٤)، فقال ما نصه: (وأما الحج، فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم، وشأنه أجل من أن تحيط به العبارة، وهو خاصة هذا الدين الحنيف، حتى قيل في قوله تعالى «حنفاء لله» أي: حجاجاً.

وجعل الله بيته الحرام قياماً للناس، فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه، فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض، هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس؛ فالبيت الحرام قيام العالم، فلا يزال قياماً ما دام هذا البيت محجوجاً.

فالحج هو خاصة الحنيفة ومعونة الصلاة وسر قول العبد لا إله إلا الله؛ فإنه مؤسَّس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة، وهو استزارة المحبوب لأحبابه، ودعوته إلى بيته ومحل كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم:

(*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وعضو الجمعية السعودية للدراسات الدعوية.

لبيك اللهم لبيك، إجابة محب لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبيـــة موقع عند الله، وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى، فهو لا يملك نفسه أن يقول: لبيك اللهم لبيك، حتى ينقطع نفسه.

وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام، واجتناب العوائد، وكشف الرأس، ونزع الثياب المعتادة، والطواف، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، وســائر شــعائر الحج؛ فمما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وعلمت بأن الذي شرع هذا لا حكمة فوق حكمته).

وذكر الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – ســر انجذاب أفئدة المســلمين للبلد الحــرام فقال في كتابه (زاد المعــاد) (١/ ٥٢ – ٥٣): (وقــد ظهــر ســر هذا التفضيــل والاختصــاص في انجــذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتهــا لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

محاســنه هيولى كل حســن
ومغناطيــس أفئــدة الرجال

ولهذا أخبر ســبحانه أنه مثابة للناس، أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقاً:

لا يــرجــع الــطــرف
عــنــهــا حــين يــنــظــرهــا
حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً).

وإن للإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – قصصاً عجيبةً في رحلته للحــج ومجاورته للبيت الحرام، أذكر منها ما تيسر الوقوف عليه، فمن ذلك:

اجتهاده في العبادة والطواف:

قــال الحافظ ابن رجب – رحمــه الله – في (ذيل طبقات الحنابلة) (٤٤٨/٢): (وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطــواف أمراً يتعجب منه).. وقال الحافظ ابن كثير – رحمــه الله – في «البداية والنهايــة» (٢٤٦/١٤): (ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه).

حضوره حِلَقَ العلم في مكة:

قــال ابن القيم – رحمه الله – «في مفتاح دار الســعادة» (١١٧/٢ – ١١٩): (وحضرت مرةً في مجلس بمكة – شــرفها الله تعالى – فيه من أكابر البلد، فجرت هذه المســألة، وأخذ بعض الجماعــة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل وفوائده، وقــال في أثنــاء كلامه: ويكفي في تفضيله أنّا نشــتري بنواه العنب؛ فكيف يفضــلُ عليه ثمر يكون نواه ثمناً له؟! وقال آخر مــن الجماعة: قد فصــل النبي ﷺ النزاع في هذه المســألة، وشــفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرماً، وقال: «الكرم قلــبُ المؤمن»، فأي دليل أبينُ من هــذا؟! وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك.

فقلت للأول: ما ذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل؛ فإن هذا له أسباب:

أحدهــا: حاجتكم إلى النوى للعلف، فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته.

الثاني: أن نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع.

الثالــث: أن الأعناب عندكم قليلة جداً، والتمر أكثر شــيء عندكم، فيكثرُ نواه، فيشترى به الشيء اليسير من العنب، وأما في بلاد فيها ســلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شيء ولا قيمة لنوى التمر فيها.

وقلــت لمن احتج بالحديث: هــذا الحديث من حُجج فضل العنب، لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم؛ لكثرة منافعه وخيره، فإنــه يؤكل رطباً ويابســاً وحلواً وحامضــاً، وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك، فسموه كرماً لكثرة خيره؛ فأخبرهــم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التســمية؛ لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبر والرحمة واللين والعدل والإحســان والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن، فهو أحق بأن يسمى كرماً من شجر العنب.

ولــم يُرد النبي ﷺ إبطال ما في شــجر العنب من منافع وفوائد، وأن تســمية «كرماً» كذب، وأنها لفظة لا معنى تحتها كتسمية الجاهل عالماً والفاجر براً والبخيل سخياً، ألا ترى أنه لم ينفِ فوائد شــجر العنب، وإنمــا أخبر أن قلب المؤمن أغزرُ فوائد وأعظم منافع منها؟! هذا الكلام أو قريب منه جرى في ذلك المجلس).

أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في مكة:

حرص الإمام ابن القيم – رحمه الله – على القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي إحدى رحلاته للحج يقول عن بعض المنكرات في كتابه «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣١) ما نصه: (ومن أعظم المنكرات تمكينهم من إقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله في المسجد الأقصى عشية عرفة، ويقيمونه أيضاً في مسجد الخيف أيام منى؛ وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه، والناس في الدعاء والتضرع والابتهال والضجيج إلى الله، وهم في هذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء!).

فقدانه ابنه يوم التروية:

يقول الإمام ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣١١): (وأخبرك عن نفسي بقضية من ذلك، وهي أني أضللت بعض الأولاد يوم التروية بمكة وكان طفلاً، فجهدت في طلبه والنداء عليه في سائر الركب إلى وقت يوم الثامن، فلم أقدر على خبر، فأيست منه، فقال لي إنسان: إن هذا عجز، اركب وادخل الآن مكة فتطلبه فيها، فركبت فرساً، فما هو إلا أن استقبلت جماعة يتحدثون في سواد الليل في الطريق وأحدهم يقول: ضاع له شيء فلقيه، فلا أدري انقضاء كلمته كان أسرع أم وجداني الطفل مع بعض أهل مكة في محمله، عرفته بصوته).

تدوينه العلم:

اشتغل الإمام ابن القيم – رحمه الله – أثناء مجاورته في مكة بتصنيف العلم وتدوينه، وقام بكتابة عدد من مؤلفاته القيمة التي كان من أبرزها كتابه الفريد «مفتاح دار السعادة»، حيث يقول في مقدمته (١/ ٢١٥ – ٢١٦): (إذا كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله عليّ حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكيناً ذليلاً، وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلاً، فما خاب من أنزل به حوائجه، وعلق به آماله، أصبح ببابه مقيماً وبحماه نزيلاً).

ومن ذلك أيضاً تأليفه لكتابه «تهذيب السنن»، إذ يقول في خاتمته (٨/ ١٢١) ما نصه: (ووقع الفراغ منه في الحجر – حجر إسماعيل – شرفه الله تعالى تحت الميزاب – ميزاب الرحمة في بيت الله – آخر شوال سنة ٧٣٢، وكان ابتداؤه في رجب من السنة المذكورة).

مرضه في مكة واستشفاؤه بزمزم ورقيته لنفسه:

لقد اعترت الإمام ابن القيم مجموعة من الأمراض والأسقام أثناء مجاورته البيت الحرام، وكان يعالج نفسه تارة بماء زمزم وشرب العسل، وتارة بالرقية الشرعية، وعن ذلك يقول في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٧١): (ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة، ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم، ورأيت فيها من الشفاء أمراً عجيباً).

وقال في كتابه «الداء والدواء» (ص ٨): (ومكثت بمكة مدة تعتريني، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً. ولكن ها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل، وتأثيره، فمتى تخلّف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المحل المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية؛ فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة؛ أثر في إزالة الداء).

ويقول في كتابه «مدارج السالكين» (١/ ١٣٣): (وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة. لا سيما مدة المقام بمكة. فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني. وذلك في أثناء الطواف وغيره. فأبادر إلى قراءة الفاتحة أمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مراراً عديدة. وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً. فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك. ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين. والله المستعان).

(لَطَائِفٌ وفَوَائِدٌ)

ذكره بعض الأودية في مكة والمشاعر المقدسة:

قال ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» (٢/٢٣٦ - ٢٣٧): (ومحسِّر: برزخ بين منى وبين مزدلفة، لا من هذه، ولا من هذه، وعُرَنَةُ: برزخ بين عرفة والمشعر الحرام، فبين كل مشعرين برزخ ليس بمشعر، ومزدلفة: حرم ومشعر، وعُرَنَةُ ليست مشعراً، وهي من الحل، وعرفة: حِل ومشعر).

ثناؤه على بعض الفوائد وكونها تساوي رحلة:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن بعض الفوائد التي يقتنصها ويفتح الله بها عليه في كتابه «بدائع الفوائد» (٢/٦١٤): (فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة).

واضع رحلة الإمام الشافعي:

قال الإمام ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢٤٧): (عبدالله بن محمد البلوي هذا؛ فإنه كذابٌ وضّاع، وهو الذي وضع رحلة الشافعي، وذكر فيها مناظرته لأبي يوسف بحضرة الرشيد، ولم يرَ الشافعي أبا يوسف ولا اجتمع به قط، وإنما دخل بغداد بعد موته).

ابن حزم لم يحج قط!

قال ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» (٢/٢١٣): (وسألت شيخنا عنه - أي ابن حزم - فقال: هذا من أغلاطه، وهو لم يحج رحمه الله تعالى).

وصفه الحج شعراً:

قال الإمام ابن قيم الجوزية في ميميَّته عن «موقف الحج»:

أما والذي حج المحبون بيته
ولبوا له عند المهلّ وأحرموا
وقد كشفوا تلك الرؤوس تواضعاً
لعزةِ من تعنو الوجوهُ وتُسلمُ
يهلون بالبيداء لبيك ربنا
لك الملك والحمد الذي أنت تعلمُ
دعاهم فلبوه رضاً ومحبة
فلما دَعَوه كان أقربَ منهمُ
وقد فارقوا الأوطان والأهل رغبة
ولم يثنهم لذاتهم والتنعم
يسيرون من أقطارها وفجاجها
رجالاً وركباناً ولله أسلموا
ولما رأتْ أبصارهُم بيته الذي
قلوبُ الورى شوقاً إليه تَضرمُ
كأنهمُ لم ينصبوا قط قبله
لأن شقاهم قد ترحل عنهمو
فلله كم من عَبرة مهراقة
وأخرى على آثارها لا تقدم
وقد شرقت عين المحب بدمعها
فينظر من بين الدموع ويسجمُ
إذا عاينته العين زال ظلالها
وزال عن القلب الكئيب التألمُ
ولا عجبٌ من ذا فحين أضافهُ
إلى نفسه الرحمن؛ فهو المعظمُ
كساهُ من الإجلال أعظم حُلة
عليها طراز بالملاحة معلمُ
فمن أجل ذا كل القلوب تحبهُ
وتخضعُ إجلالاً له وتعظم

أجمل طفل في العالم

سحر شعير

كم هي رائعة لحظات انتظار مولود جديد.. قلوب الأحباب تخفق ودعاؤهم إلى الله تعالى لا ينقطع.. رجاءً لسلامة الأم والمولود السعيد.. والآن اطمأن خاطرهم ووضعت الأم وأهلَّ علينا ذلك الضيف الجديد، وبعد سجدات الشكر والمسارعة بترديد الأذان في أذن الصغير، يبدأ الحضور من الأهل والأحباب بتداوله بين أيديهم مستشرفين لقياس شبهه ودرجة جماله التي حباه الله تعالى بها، فيا سعده وسعد والديه لو كان جميلاً.. فيتلقى وابلاً من الثناء والإطراء قد يصاحبه طوال حياته..

وأعانهم الله تعالى إن كان دميماً قليل الحظ من الجمال.. داكن اللون أو به عيب ظاهر؛ فليستعد الوالدان إذاً لوابل آخر من التعليقات اللاذعة أو الساخرة أو التساؤلات الموجّهة للوالدين متضمّنة الاعتراض والضيق من شكل الابن أو البنت، مثل: أسمر اللون لمن؟ أو لماذا لم يأتِ جميلاً مثل أبيه أو أمه؟ وكأن الوالدين يملكان الإجابة!!

والمشكلة التربوية تحدث إذا تَشَرّب الوالدان ردود أفعال الآخرين حول شكل الطفل وانعكس ذلك على أسلوبهم في تربيته، خاصة إذا كان حظه قليلاً من الجمال، وعندئذ سنربي طفلاً منطوياً، فاقداً الثقة بنفسه، شاعراً بالدونية تجاه أقرانه.

أعزائي المربين والمربيات:

الجانب الأول من هذه المشكلة: هو شعور الوالدين بالألم والتعاسة لشكل الطفل غير الجميل، والذي يتجدد ويزداد عند مواجهة تعليقات المحيطين.. هذا الجانب يمكن حلّه في تعديل نظرتنا نحن لقضية الشكل عموماً وفق ما علّمنا الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، فالله عزّ وجلّ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وامتن علينا بذلك في أكثر من موضع في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٧]. قال ابن كثير: قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر «فعدلك» بالتخفيف، أي صرفك وأمالك إلى أي صورة شاء؛ حسناً وقبيحاً وطويلاً وقصيراً. وقرأ الآخرون بالتشديد «فَعَدَّلك»، أي قومك وجعلك معتدل الخلق والأعضاء ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝﴾ [الانفطار: ٨]. قال مجاهد والكلبي ومقاتل: في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم[1]. وقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١ – ٤]، هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها.

ثم إنّ الله تعالى قد بيّن لنا الأساس الذي يتفاضل عليه البشر، فقال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. قال ابن حزم – رحمه الله تعالى –: «وإن كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجية لغيَّة، وأنّ العاصي والكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيّين».

وكذلك جاءت السنّة النبوية مؤكدةً هذا الأصل، حيث يقول ﷺ: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر؛ إلا بالتقوى، أبلّغت؟». قالوا: بلّغ رسول الله ﷺ[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[3]، وفي رواية: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».. معنى الرواية الأولى أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته. ومعنى نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته، أي إنما يكون ذلك على ما في القلب دون الصور الظاهرة.

وأمّا نسبة الجمال في الشكل والملامح فهي من الرزق الذي قسّمه الله تعالى بين العباد بتمام عدله وحكمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]، ولم يكتسبها الجميل بمهارته، ولم يفتقدها الدميم بتقصير منه، هذا الأصل لا بد أن يكون واضحاً في أذهاننا تماماً، وليكن ميزان التفاضل عندنا هو الميزان نفسه الذي وضعه الله تبارك وتعالى ليتفاضل على أساسه البشر عنده سبحانه.

وبقدر ما يكون هذا الأصل واضحاً وثابتاً في أذهاننا، بقدر ما ستكون ردود أفعالنا متّزنة انفعالياً تجاه تعليقات الآخرين حول شكل الأبناء، وليكن ردّنا المباشر عليهم مذكراً لهم بتلك القاعدة الربانية: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

الجمال الذي نتمناه لأبنائنا

إنّ الجمال الذي نتمنى أن يكون لأبنائنا النصيبُ الأوفى منه، هو جمال الجوهر المتولد عن الإيمان العميق، ونقاء السريرة، وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله: «اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن؛ فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته كما في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، وهذا الجمال الباطن يزيّن الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال فتكسوا صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطى مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه ومن خالطه أحبه، وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان أسود أو غير جميل، لا سيما إذا رزق حظاً من صلاة الليل، فإنها تنوّر الوجه وتحسنه، وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل فقيل لها في ذلك فقالت إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهي)[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص: ٣٧٥.
(٢) أخرجه أحمد من حديث أبي نضرة.
(٣) أخرجه مسلم، رقم: ٤٦٥١.
(٤) ابن القيم: روضة المحبين.

ويبقى الجانب الأهم، وهو تربية الأبناء على القاعدة نفسها، وذلك كي تتكوّن عندهم قناعات صحيحة في التفاعل مع شكلهم الخارجي الذي أنشأهم الله تعالى عليه، وذلك من خلال أمور عدة يراعيها المربي مع تلقينها المتكرر والمستمر للطفل، فيتأصل عنده أن قيمته كفرد مصدرها صلاحه واستقامته وتقواه لله تعالى، ما يكسبه التوازن النفسي المطلوب إن لم يكن ذا حظٍ من الجمال أو به ما يعيب، ويحدُّ من إعجابه بنفسه إن كان بارع الجمال ظاهر الحُسن، ولنضرب له الأمثلة على ذلك:

- فالله عزّ وجلّ رفع ذكر لقمان الحكيم في كتابه العزيز وذكر لنا وصاياه الرائعة في سورة من سور القرآن الكريم تحمل اسمه، فمَن هو لقمان؟

عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان عبداً حبشياً نجاراً. وقال قتادة: عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم في شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس - عريض الأنف - من النوبة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال الأوزاعي: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر - يعني كبير الشفتين جداً -.

وهكذا كان النبي ﷺ يُؤصّل هذا الفهم عند الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ويربيهم على القاعدة نفسها فيقول: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم»، ويؤكد عليها إذا بدر منهم شيئاً يناقض هذا الفهم، فعن علي كرّم الله وجهه قال: أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه فضحكوا، فقال النبي ﷺ: «ما يضحككم؟ لرِجلا عبد الله في الميزان أثقل من أُحد»..! وكان يُعرف في الصحابة بصاحب السواد والسواك، شهد بدراً والحديبية، وهاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة فيما ذكر في حديث العشرة بإسناد حسن جيد، فما ضرّته حموشة ساقيه (شدة نحافتهما) ودقة بدنه ما دام عند الله تعالى عظيماً؟

- تربية الأبناء على الثقة بالنفس من خلال تبصيرهم بما منحهم الله تعالى من قدرات ومواهب يتميزون بها، ودفعهم إلى تفعيل تلك المميزات، خصوصاً إذا كان الابن مصاباً بمرض أو عيب خلقي خارج عن إرادته، ونعلمهم أنّ الرجل الذي تربو ثقته بنفسه لا يشلّ إقدامه على الحياة نقصٌ في بدنه أو عنتٌ في ظروفه، بل قد يكون ذلك مثار نشاطه وشدة شكيمته كما قال الشاعر:

إلّا يكن عظمي طويلاً فإنني
لي بالخصالِ الصالحاتِ وصولُ
إذا كنتُ في القومِ الطوال
علوتهم بمعارفةٍ حتى يقال طويلُ

- توجيه الأبناء نحو معالي الأمور، مثل طلب العلم النافع وعدم الرضا بأقل من مرتبة التفوق والتميز في أي عمل يقومون به، وتعويدهم وتشجيعهم على ذلك؛ حتى يصير ديدنهم التميّز والتفوق، فيبني الواحد منهم لنفسه مكاناً عالياً لا يعود لقلة حظه من الشكل الجميل ذكر بجانبه.. والمتتبّع لتراجم النابغين وسير العظماء يجد من ذلك أمثلة كثيرة يبرز فيها دور الوالدين - خاصة الأم - في ذلك، منهم القاضي محمد بن عبد الرحمن الأوقس، عندما نقرأ في سيرته نجد علماء التراجم يقولون عنه: كان فقيراً، لم يكن حسن الصورة، كان له منكبان عاليان، وكان الناس يعيّرونه بأنه ليس له رقبة، فكان يوماً من الأيام يدعو الله تعالى عند الكعبة يقول: «اللهم اعتق رقبتي من النار». فالتفتت إليه امرأة وقالت: يا ابن أخي أي رقبة لك هذه التي تريد عتقها من النار. فقالت له أمه: يا بني لا تكون في قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بتعلم العلم، فتعلّم العلم وناله، وأصبح قاضياً، فكان الخصوم إذا وقفوا أمامه يرتعدون من شدة هيبته - رحمه الله رحمة واسعة.

عزيزي المربي:

لا يهم أن يكون ولدك جميلاً.. اصنع منه ولداً صالحاً ورجلاً عظيماً.. حينها سيكون في نظرك وأمام الجميع «أجمل طفل في العالم».

البناء على القبور.. الهدم والوهم

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

«مِن أعظم مكايد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا إلا من لم يرد الله فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبِد أربابها من دون الله، وعُبِدت قبورهم، واتخذت أوثاناً..»(١).

والحديث عن مفاسد اتخاذ القبور مساجد، وشرور وثنية الأضرحة؛ لا يكاد يحصى(٢)، فهو فوق ما يخطر بالبال، أو يدور بالخيال.

والذي يهمّنا في هذه السطور أن نذكّر بمشروعية هدم الأبنية على الأضرحة، وإزالة المساجد المبنية على القبور، كما ثبت في السنة النبوية، وجرى عليه عمل السلف الصالح.

فعن أبي الهيّاج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته»(٣). وقرر الإمام الشافعي مشروعية هدم البناء على القبور، وأنه رأى الولاء في مكة يهدمون ما بُني في المقابر(٤).

وقال ابن القيم: «إن حكم الإسلام في المساجد المبنية على القبور أن تهدم كلّها، حتى تسوّى بالأرض، وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب أن تهدم كلها؛ لأنها أسِّست على معصية الرسول؛ لأنه قد نهى عن البناء على القبور، فبناءٌ أسس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً»(٥).

وقال ابن حجر الهيتمي: «وتجب المبادرة لهدم القباب التي هي على القبور، إذ هي أضرّ من مسجد الضرار، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر»(٦).

وقد هدم الحارثُ بن مسكين (ت ٢٥٠هـ) مسجداً كان بني بين القبور(٧). وهدم أبو إسحاق الجبيناني عيناً تسمى «عين العافية» قد فُتِن الناسُ بها، فمن تعذّر عليه نكاح أو ولد مضى إليها..!

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.
(١) إغاثة اللهفان لابن القيم، ١/ ٤٨٦.
(٢) ينظر: كتاب الأم للشافعي، ١/ ٢٧٧.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) إغاثة اللهفان لابن القيم، والقبورية لأحمد المعلم، ومعارج الألباب لحسين النعمي (ت ١١٨٧هـ)، كما أن له كتاباً بعنوان: «مدارج العبور على مفاسد القبور».
(٥) إغاثة اللهفان لابن القيم، ١/ ٣٢٧.
(٦) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٤٩، ويجزم محمود الألوسي (ت ١٣٤٢هـ) بأن كتاب الزواجر مأخوذ من كتاب الكبائر (المفقود) لابن القيم.
(٧) انظر: ترتيب المدارج لعياض ١/ ٣٣٢، والديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٣٣٩.

فهدمها وقت السحر، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأساً، فما رُفع لها رأس إلى الآن[1].

ومن جهود المتأخرين أن الأمير سعود بن عبد العزيز هدم القبة الموضوعة على قبر الحسين في كربلاء سنة ١٢١٦هـ، كما هدم القباب التي بنيت على القبور في مكة - حرسها الله[2].

كما هُدِمت القباب في صنعاء في اليمن سنة ١٢١٦هـ، وكذا أزيلت بعض الأبنية على القبور في مدينة بيت الفقيه باليمن سنة ١٣٤٨هـ، كما هدمت مشاهد وثنية في محافظة حجّة سنة ١٣٩٤هـ، وأزيلت قباب ومشاهد في مدينة عدن سنة ١٤١٥هـ[3].

فالقدرة والاستطاعة هي منوط إزالة هذه الأبنية على القبور، وموجب هدمها، كما حرّره ابن القيم قائلاً: «لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً؛ فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبتة، وهذا حكم المشاهد التي بُنيت على القبور»[4].

ومثال ذلك: أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في أول أمره إذا سمع الناس يستغيثون بالشرك عند قبة قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة بنجد، فإنه يقول لهم: الله خيرٌ من زيد، تمريناً لهم على نفي الشرك بلين الكلام[5].

فلما صار له قوة ومنعة، أزال هذه القبة بنفسه ومعه عثمان بن معمر أمير العيينة[6].

وكما ينبغي توخي الحكمة ومراعاة قواعد المصالح والمفاسد في الاحتساب وإزالة الأوثان وهدم الأبنية على القبور؛ ينبغي الحذر من تهويل عشاق الأضرحة، والمولعين بالمشاهد، فطالما عــلا ضجيجهم بأن هذا الهدم يعدّ إخلالاً بالأمن! وتحريكاً للقلاقل! وإثارة لشغب العوام! وإيقاعاً للفتن... إلخ، والبلية أن فئاماً من المتسنّنة تغشاهم هذا التهويل، فصاروا سمّاعين مستجيبين لذلك الإرجاف.

لا سيما أن إرجاف القبوريين وأشياعهم لا ينفك عن تقديس وتعظيم للأضرحة، وتخويف من المساس بتلك الوثنيات، ولذا فهم يبالغون في تزويق القبور، وتشييد القباب، وإرخاء الستور الغالية، والقناديل الساطعة... لأجل أن تُعمّر قلوب الجهال بالتعظيم والإجلال لتلك الجيف والأوثان.

ومن ثم، فإن هدمها وإهانتها مطلوب شرعاً وديناً، «فإن كل ما عُظِّم بالباطل من مكان، أو زمان، أو حجر، أو شجر، أو بِنْية؛ يجب قصد إهانته كما تهان الأوثان المعبودة، وإن كانت لولا عبادتها كسائر الأحجار»[7].

ثم إن العزم على هدمها قد يواجَه بتخويف وإرجاف من شياطين الإنس والجن، وأن في ذلك انتهاكاً لحرمة الأولياء، ومجلبة للعقوبات والمثلات..

لكن الاستعانة بالله، والإقدام على هدمها؛ يُبْطِل هذه الأراجيف والتخذيلات، ويزيل الرواسب العالقة والأوهام الجاثمة في أذهان العوام، فإن الذين هدموا الأوثان والأبنية على القبور قد صاروا عقب هدمها في أحسن حال وأطيب بال.

ومثال ذلك: العمود المخلّق في دمشق، فقد ذكر أبو شامة في كتابه «الحوادث والبدع» أن الكثير من الناس فُتنوا بهذا العمود، فعظّموه، ونذروا له..[8].

وكان الإمام النووي يدعو أن يهيّأ الله رجلاً ليكسر هذا العمود الوثني[9].

فعزم ابن تيمية على كسره، وخرج معه أخوه عبد الله وخلق كثير، فصاح الشيطان بالبلد، وصدح الناس بالأراجيف وقالوا: ما بقي ابن تيمية يفلح بعد أن تعرّض لهذا! وتخلّى أكثر الناس عن ابن تيمية وأخيه، فلما وصلا إلى العمود أَمَرا الحجّارين بتكسير العمود، فجبنوا وأحجموا! فأخذ ابن تيمية وأخوه المعاول وشرعا في تكسيره، ثم تابعهما الناس، وما أصاب الناس من ذلك إلا الخير[10].

وهدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب قبة زيد بن الخطاب - رضي الله عنه - بيده، لما تهيّب هدمها الذين معه، وانتظر الجهال ما يصيب الشيخ بسبب هدمها، فأصبح في أحسن حال[11].

والحاصل أن هناك وهماً جاثماً، وتعظيماً فاسداً لتلك الوثنيات، لا سبيل إلى إزالته وطمسه إلا بمحو هذه القباب والأبنية التي على القبور، كما قد شُوهد وجرّب، فهدم الأبنية التي على القبور يستلزم محوها من القلوب، ومن توخي الحكمة التواصل مع العلماء الربانيين، والتنسيق مع أهل الرأي والعقلاء لدرء أكبر قدر ممكن من المفاسد، والله المستعان.

---

(١) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة، ص ١٠٣ - ١٠٤.
(٢) انظر: عنوان المجد لابن بشر، ١/ ٢٥٧ - ٢٦٣.
(٣) انظر: القبورية لأحمد المعلم، ص ٦٣٤ - ٦٤٦.
(٤) زاد المعاد، ٣/ ٥٦.
(٥) انظر: مجموعة التوحيد، ص ٣٣٩.
(٦) انظر: عنوان المجد لابن بشر، ١/ ٣٩.
(٧) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ١/ ٤٧٧.
(٨) ينظر: إغاثة اللهفان، ١/ ٣٢٨.
(٩) الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٢٨.
(١٠) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٨٠ - ٨١.
(١١) عنوان المجد لابن بشر، ١/ ٣٩.

مسابقة شبكة الألوكة الكبرى
لتعزيز القيم والمبادئ والأخلاق

شبكة الألوكة
www.alukah.net

جوائز المسابقة

1.000.000 مليون ريال

موزعة على النحو الآتي:

٨٠٠,٠٠٠ ريال جوائز قسم البحوث من المسابقة

موزعة كما يأتي:

الجائزة الأولى على مستوى جميع الفروع ٢٠٠,٠٠٠ ريال.

الجائزة الثانية على مستوى جميع الفروع ١٠٠,٠٠٠ ريال

جائزة قيمتها ٢٥,٠٠٠ ريال للفائز الأول في كل فرع من فروع المسابقة العشرة. بما مجموعه ٢٥٠,٠٠٠ ريال للفائزين بالمراكز الأولى.

جائزة قيمتها ١٥,٠٠٠ ريال للفائز الثاني في كل فرع من فروع المسابقة العشرة . بما مجموعه ١٥٠,٠٠٠ ريال للفائزين بالمراكز الثانية.

جائزة قيمتها ١٠,٠٠٠ ريال للفائز الثالث في كل فرع من فروع المسابقة العشرة . بما مجموعه ١٠٠,٠٠٠ ريال للفائزين بالمراكز الثالثة.

موضوعات المسابقة

- إعلام الأطفال: واقعه، وسبل النهوض به
- الإسلام والقيم الحضارية المعاصرة: الديمقراطية أنموذجاً
- تنمية الشعور بالمسؤولية عند أفراد المجتمع
- الطلاب المبتعثون: تأهيلهم وتحصينهم
- خصوصيَّة تعليم المرأة: الجذور الشرعيَّة وتحديات الواقع
- المحسوبيَّة والوساطة وأثرهما في الفساد الإداري والاجتماعيّ
- الانتماء للوطن وتعزيزه بالضوابط الشرعيَّة
- التوجهات الفكرية والسلوكية لدى الشباب
- تعامل الأسرة مع مُدمن المخدرات
- الإعلام الجديد ما له وما عليه

ترسل البحوث إلى
info@alukah.net

مسابقة إلكترونية لجميع أفراد الأسرة
٢٠٠ ألف ريال

لمزيد من التفاصيل

www.alukah.net
00966 537373717
info@alukah.net
www.facebook.com/alukah.net
twitter.com/#!/alukahNet1

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

والعديد من الخدمات المميزة

اتجاه القبلة

أوقات الصلاة

تقويم: هجري/ميلادي

واجهه خدمية مميزة

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk